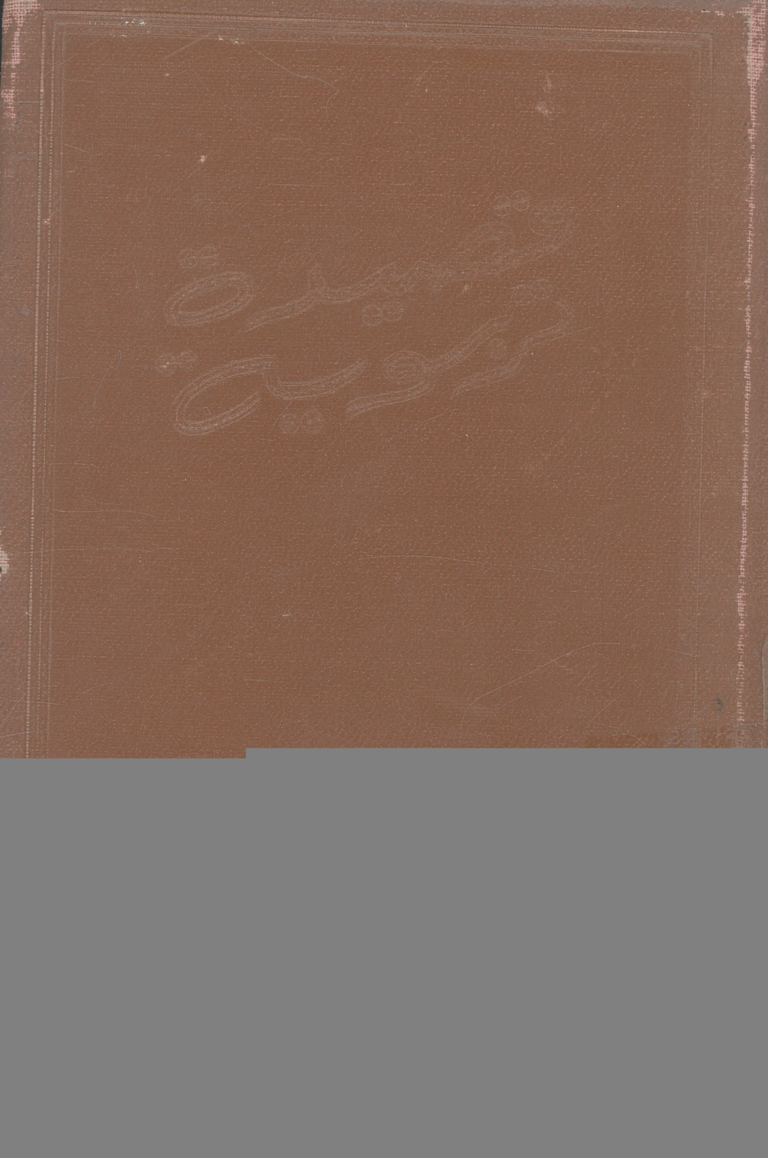


مكتبة الادب السوفييتي

А. С. МАКАРЕНКО

ПЕДАГОГИЧЕСКАЯ ПОЭМА

ПОВЕСТЬ
В ТРЕХ ЧАСТЯХ

ЧАСТЬ ПЕРВАЯ

ИЗДАТЕЛЬСТВО ЛИТЕРАТУРЫ НА ИНОСТРАННЫХ ЯЗЫКАХ
Москва

انطون ماكارينكو



في ثلاثة اقسام

القسم الاول

دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية
موسكو

ترجمة كامل ناصيف

الاشراف الفني لتساريفيتش



إلى راعينا وصديقنا ومعلمنا مكسيم غوركي
اعترافا بالاخلاص والمحبة



١. حديث مع مدير التعليم العام

في شهر ايلول – سبتمبر – من عام ١٩٢٠، استدعاني مدير مصلحة التعليم العام في المقاطعة وقال لي:

– ها أنت يا صاحبي... لقد بلغني أنك تحتج احتجاجا شديدا على هؤلاء... الغوبسوفنارخوز*.

– وكيف لا أحتج؟ إن هذا لا يدعو الى الاحتجاج فقط، بل يدفعني لأن أجأر صارخا: أهذه مدرسة

* مجلس الاقتصاد الوطني في المقاطعة. المعرب.

عملية؟ إنها ماخور... إنها اصطبل! أهذه لها شبه بالمدرسة؟ (١)

ـ أجل... لقد رأيتك بلغت ما تريد..: إنك تريد ان يبنى لك بناء جديد على هواك، وأن توضع فيه التخت الجديدة. وإذ ذلك تشرع بالعمل! ليست القضية قضية الابنية يا صاحبى! إن ما يهمنا هو تربية الانسان الجديد، ولكنكم، انتم المربين، تخربون كل شئ: الأماكن لا تلائم هواكم والطاولات كذلك. أنتم ينقصكم هذا... الحمية أرأيت؟! أجل الحمية الثورية تنقصكم. ثم ان بناطيلكم لا تصلح للمعركة!

ـ ليس بنطلونى من هذا القبيل.

ـ دعنا منك... آه من هؤلاء المثقفين السيئين! لقد ضاعت جهودى أدراج الرياح وأنا أبحث وأبحث عن أشخاص... فهناك عمل كبير... لقد ظهر كثير من أولئك المتشردين، الصبيان، فلا تستطيع ان تمشى فى الشوارع بسلامة، لقد أخذوا يتسللون إلى البيوت لسرقتها.

ثم يقال لى: هذا عملك ما دمت مسؤولا عن التعليم العام... كيف؟

ــ ماذا؟

ــ هذا ما يحدث... ما من أمرئ يود ان يشتغل بهذا الأمر، إن كل من اقترحت عليه هذا رفضه بكل ما لديه من حيلة. انهم يقولون: تقتلوننا. تريدون هذا... مكتبا وكتباً. وإنه يحمل النظارة!

وأخذت أضحك:

ــ يا للغرابة.. حتى النظارات أصبحت فضلة!

ــ وأنا أقول لك انكم لا تريدون ان ترفعوا الوجوه من الكتب: وعندما يراد ان يوضع بين أيديكم انسان حي تصرخون: «ان انسانك الحى سيذبحنى هنا». يا لكم من مثقفين!

وكان هذا المدير يرمقنى بشدة بنظرات غاضبة من عينيه الصغيرتين السوداوين: ويصب من تحت شاربيه اللذين يشبهان شاربى نيتشه سيل التوبيخ لجميع زملائنا المربين. ولكن مدير التعليم هذا لم يكن على حق.

ـ اسمح لي. أرجوك...

ـ «اسمح»... «اسمح» وبعدئذ؟ ماذا عندك لتتفوه به؟ أنا أعرف أنك ستقول لى هذا: لو كان عندنا مثل ما فى أمريكا! فقد قرأت منذ وقت قريب كتابا فى شأن ذلك قد وصل إلى يدى! وكان يدور حول الريفورماتور اوكيف تسمى هذه؟ اجل، تذكرتها، بلى: الريفورماتوريوم ولكن هذا ما زال لم يوجد عندنا.

ـ ومع ذلك أصغ لى.

ـ حسنا. سأصغى.

ـ وحتى قبل الثورة كانوا يتغلبون على هؤلاء المتشردين، وكانت ثمة اصلاحيات للمجرمين الاحداث.

ـ ليس هذا الذى يلزمنا. ان كل ما كان قبل الثورة ما عاد يلزمنا.

ـ تماما واذاً يجب خلق انسان جديد بوساطة اساليب جديدة.

ـ صحيح ما تقول... بوساطة اساليب جديدة...

ـ ولكن.. ما من أمرئ يعرف كيف يصنع ذلك.
ـ وأنت لا تعرف ايضاً؟
ـ وأنا كذلك، لا أعرف.
ـ ولدى في مصلحتي من يعرف ذلك...
ـ ولكنهم لا يريدون أن يتكلفوا بذلك.
ـ لا يريدون، الحق عليك يا للحثالة.
ـ واذا اشتغلت بهذه المهمة فانهم سيجعلون من حياتي شيئا رهيباً.. فمهما فعلت فانهم سيقولون: إن هذا ليس حسنا..
ـ سيقولون ذلك، انت على حق.
ـ وهم الذين سوف تصدقهم. لا آنا.
ـ لا، أبدا. سأقول لهم: كان عليكم ان تشتغلوا بذلك انتم بانفسكم.
ـ ولكن اذا افسدت العمل فعلاً؟
فضرب بقبضته على الطاولة:
ـ سأفسد وسأفسد! ماذا ستظل تهددني:

لا بأس، ستفسد! ماذا تريد منى؟ أأنا لا أفهم الأمور ربما؟ افسد، ولكن يجب ان تشتغل. ولسوف نرى بعدئذٍ. الشئ الاساسى هو هذا... لا نريد معتقلاً للأحداث الجانحين وانما نريد تربية اجتماعية... أفهمت؟ اننا نريد رجالا... رجالا سوفييتيين! عليك أن تصنعهم. والناس على السواء يجب ان يتعلموا وأنت أيضاً سوف تتعلم. لقد احسنت اذ قلت لى بصراحة: لا أعرف. حسنا قد تم الأمر...

— والمكان؟ الابنية تلزمنا على كل حال.

— اننا نملكها يا صاحبي؛ وهو مكان رائع. قد كان فيه تماما معتقل للأحداث الجانحين. وليس بعيدا: إنه على بعد ستة فراسخ. هناك حسناً جدا... غابات وحقول. وستكون لديك بقرات...

— والناس؟

— سأخرجهم لك الآن من جيبى. لعلك تريد سيارة أيضاً؟

— والمال؟

ـ يوجد. اقبض. خذ.

واخرج حزمة الدراهم من درج طاولته.

ـ مئة وخمسون مليوناً (٢). سيغطى هذا المبلغ نفقات التنظيم: الترميمات والاثاث اللازم...

ـ والبقرات؟

ـ بالنسبة لها سوف تنتظر؛ فالبيت لا يوجد له ألواح من الزجاج: ولسوف تحسب حسابك لمدة سنة.

ـ هذا شيء غير ملائم! ففى اول الأمر لا بأس من القاء نظرة عليه.

ـ انا قد القيت نظرات عليه. هل سترى اكثر منى؟ سافر، وانتهى الامر!

وقلت: ـ قد اتفقنا. وتنفست الصعداء لأننى فى تلك اللحظة لم أكن أعرف شيئا أفظع من مكاتب «الغوبسوفنارخوز».

واختتم المدير كلامه قائلا: ـ مرحى لك.. يا صاحبي!! هيا الى العمل، فما من شيء مقدس أكثر منه!

٢. ولادة غير موفقة لاصلاحية غوركي

على بعد ستة كيلومترات من مدينة بولتافا، وعلى تلال رملية، مئتا هكتار من اشجار الصنوبر، وعلى طرف هذه الغابة – طريق معبد إلى خاركوف، ويبدو بلاط الطريق لاحبا يلمع ببريق باهت.

وفي وسط تلك الغابة تقوم بقعة جرداء ذات مساحة تناهز الأربعين هكتارا قد أقيم في أحد أركانها خمسة أبنية مكعبة من الآجر بنسب هندسية دقيقة كل الدقة؛ فكانت تشكل بمجموعها مربعا كاملا. هكذا كانت تبدو اصلاحية الأحداث الجانحين الجديدة.

وكانت أرض الباحة الرملية تنحدر على شكل فسحة عريضة في الغابة، نحو قصب بحيرة صغيرة، يستطيع أن يرى المرء على ضفتها المقابلة بيوت قرية صغيرة كولاكية. ووراء ذلك يرتسم في السماء صف من اشجار البتولة القديمة وبعض سقوف من القش أيضا. هذا كل شيء.

كان هذا المكان قبل الثورة معتقلاً للجانحين

القاصرين؛ ثم تبدد في عام ١٩١٧، ولم يترك غير آثار ضعيفة جدا من نشاطه التربوي. فاذا سعى المرء لأن يحكم عليه من خلال الآثار التي احتفظت في سجلاته المخربة، وجد ان النظار الذين اختيروا من ضباط الصف المتقاعدين – كانوا يشغلون المناصب التربوية الرئيسية فيه. وكان عملهم يقوم على أن لا يتركوا الأحداث يغربون عن أنظارهم في ساعات العمل كما في ساعات الراحة؛ وأن يمضوا لياليهم في حجرة مجاورة للمهاجع. وفي وسع المرء أيضا ان يتقصّى من حكايات فلاحي المنطقة المجاورة فيعرف أن الطرائق التي كان يعمد اليها هؤلاء النظار لتكوين تلاميذهم، لم تكن لتتميز بتعقيد شديد؛ فالعصا البسيطة كانت رمزا لهذه الطرائق. وكانت الآثار المادية لهذه الاصلاحية الآنفة الذكر لا تنطبق بمعنى ابداً. فقد حمل سكان المنطقة المجاورة ونقلوا بالعربات الى بيوتهم ومستودعاتهم كل ما يمكن الافادة منه: اعتدة المشاغل، ومحتويات المخازن، والآثاث. ونقلوا علاوة على ذلك اشجار البستان المثمرة. بيد انه ما من شيء

في هذه القصة يذكرنا بمآثر البرابرة: فالاشجار المثمرة لم تقطع وإنما اقتلعت وغرست في أمكنة أخرى؛ وألواح الزجاج لم تكسر بل انتزعت بدقة وأخذت؛ والأبواب ما من شخص هب بفأسه عليها يحطمها؛ فقد نزعت بعناية واقتلعت من مفاصلها وحملت؛ والمدافيء قد قلعت حجرا حجرا؛ ولم يبق غير خزانة في شقة المدير القديمة.

سألت احد الجيران، لوكا سيميونوفيتش فيرخولا، الذى جاء من القرية ليلقى نظرة على ارباب الاصلاحية الجدد، قلت له:

ـ لماذا تركت هذه الخزانة؟

فأجابني:

ـ لأن هذه الخزانة لا يمكن أن تفيدنا بشئ.. ألا ترى؟.. لو اقتلعت لن يمكن ادخالها الى بيوتنا لا بالطول ولا بالعرض.

وكان ركام من الحطام يتكوم في زوايا السقيفات، ولكن ما من شيء ذي قيمة. وتقصيت الآثار الحديثة العهد فوصلت الى استعادة بعض الاغراض المفيدة التي

كانت قد سرقت في الايام الاخيرة، وجدت: آلة عتيقة للبذار، وثماني طاولات للنجارة لا تكاد تنتصب على أرجلها، وحصانا مخصيا يزهو بأصله القرغيزي؛ ولكنه قد طعن في السن فبلغ الثلاثين عاما، ثم جرسا من النحاس.

وعثرت في الاصلاحية على وكيل الشؤون الاقتصادية لها واسمه: «كالينا ايفانوفيتش» فبادرني بهذا السؤال:

ـ أأنت مدير قسم التربية؟

ولم ألبث أن تبينت انه يعبر بنبرة أوكرانية؛ على الرغم من أنه في الاساس لا يعترف بهذه اللغة. لقد كان في مجموعة مفرداته كثير من الألفاظ الأوكرانية؛ ويلفظ الحرف «غ» دائما على شاكلة أهل الجنوب ولكنه بالنسبة لكلمة «بيداغوجيك» ـ فن التربية ـ لا أعرف كيف اعتاد أن يتكئ بقوة على الحرف «غ» من هذه الكلمة الذي يميز لفظ الروس.

ـ أأنت مدير قسم «البيداكوجيك»؟

ـ كيف؟ أنا مدير الاصلاحية!

فاجاب:

ـ لا. وهو يسحب غليونه من فمه: ـ انت مدير القسم البيداكوجي وأنا مدير القسم الاقتصادى...

تصور معى شكل «بان» كما رسمه فروبل (٣)، ولكن من دون أن تحتفظ بغير بقايا من الشعر فوق أذنيه، واحلق لحيته؛ وقص شاربيه على غرار رئيس الاساقفة الارتودكس ثم دس بين أسنانه غليونا فعوضا عن أن ترى «بان» ستجد كالينا ايفانوفيتش سيرديوك، انه لشخصية بالغة التعقيد وضعت لتمارس الشؤون الاقتصادية البسيطة فى اصلاحية للأحداث. لقد خلف وراءه ما لا يقل عن خمسين عاما أنفقها فى أعمال مختلفة. ولكنه يعتز بهذين العهدين من حياته: فقد خدم فى شبابه خيّالا فى فوج كيكسهولم لحرس صاحبة الجلالة الامبراطورية، وفى عام ١٩١٨ كان يشرف على الجلاء عن مدينة ميرغورود وقت الهجوم الألمانى.

وأصبح كالينا ايفانوفيتش أول غرض من نشاطى التربوى؛ والذى كان يجعل مهمتى صعبة معه أننى

وجدته مكتظا بالاعتقادات المختلفة... كان يسب بنفس الحمية: البرجوازيين والبلاشفة والروس واليهود وعدم المبالاة عندنا والانضباط الالماني. على انه كان يلمع في عينيه الزرقاوين حب عظيم للحياة؛ وكان سريع الاستيعاب ونشيطا جدا وحتى انني لم اتردد في أن أكرس له جزءا ضئيلا من نشاطي التربوي؛ فشرعت بتربيته منذ الأيام الأولى ابتداء من حديثنا الاول:

ـ ما رأيك أيها الرفيق سيرديوك؟ أيمكن أن تكون الاصلاحية بلا مدير؟ يلزم أن يكون احد مسئولاً عن كل شيء.

وسحب كالينا ايفانوفيتش غليونه من فمه مرة ثانية، وانحنى بأدب صوب وجهي:

ـ وكيف؟ إنك تريد أن تكون مديرا للاصلاحية؟ وأن اكون مأمورا عندك نوعاً ما؟

ـ لا. لا داعي الى ذلك سأكون أنا مأمورا عندك اذا اردت.

ـ أنا لم أتعلم فن التربية فلكل مهنته... ولكن... ولكنك ما تزال شابا في مقتبل العمر وتريد أن تجعل

من رجل عجوز مثلي ولدا لأعمالك؟ ان هذا ليس بالحسن أيضا. ثم... ثم أن أصبح مديرا للاصلاحية وأنت تعلم أنني لم أرب تربية كافية. ولاي غرض هذا العمل لي؟..

وغادرني وهو منزعج مصر. وظل طيلة النهار مكتئب النفس ثم أقبل في المساء ليقابلني في حجرتي وهو حزين كل الحزن.

ـ وضعت لك هنا هذه الطاولة وهذا السرير. لا تغضب انهما رديئان. هذا ما وجدته!

ـ شكرا لك.

ـ لقد فكرت في ذلك الأمر جيدا... كيف سندبر أمر هذه الاصلاحية. فوجدت أنه من المستحسن ـ طبعا ـ أن تكون أنت المدير وأن أكون أنا المأمور بعض الشيء.

ـ سنتفاهم يا كالينا ايفانوفيتش.

ـ وأنا أيضا اعتقد أننا سنتفاهم. إن العمل ليس سيئا كل السوء. وكل واحد سيعمل ما عليه... ولكن... أنت؛ بما أنك رجل مثقف فسوف تعمل كأنك مدير.

وشرعنا نعمل. فقصدنا الحصان المسن ذا الثلاثين عاما فأوقفناه منتصبا على قوائمه؛ واعتلى كالينا ايفانوفيتش فوق مقعد عربة تكرم بها علينا أحد الجيران؛ واخذت هذه المنظومة تسير نحو المدينة بسرعة كيلومترين فى الساعة. ان وقت التنظيم قد ابتدأ. كانت المهمة الموضوعة لهذه الفترة مهمة ملائمة تماما وهى تقوم على تركيز القيم المادية الضرورية لتربية الانسان الجديد. ففى خلال شهرين قضينا أنا وكالينا ايفانوفيتش اياما كاملة فى المدينة. وكان كالينا ايفانوفيتش يذهب إليها بالعربة؛ وأنا سيرا على الأقدام... كان يرى هذا النمط من الانتقال يحط من قدره بينما أنا كنت لا أستطيع على الاطلاق أن اسير بالسرعة التى كان يقدر عليها ذلك «القرغيزى» القديم الآنف الذكر.

وقد توصلنا فى خلال هذه الفترة من الزمن بمساعدة الاخصائيين القرويين ان نصلح احدى ثكنات الاصلاحية السابقة نوعا ما: فوضعنا فيها الواحا زجاجية ورممنا المدافئ وأعدنا الأبواب. أما فى حقل السياسة الخارجية فلم نحرز

غير نجاح واحد، ولكنه كان عظيما إذ نجحنا باستلام مئة وخمسين بوداً من طحين الجودار من قبل اللجنة الخاصة لمؤن الجيش الاول الاحتياطى. ولم يسعفنا الحظ «بتركيز» قيم مادية أخرى.

ولدى مقارنة هذا الوضع بمثلى الاعلى فى محيط الثقافة المادية، كونت هذه الملاحظة: لو حصلت على نتيجة أكثر من تلك بمئة مرة فإن المسافة نفسها ما تزال تفصلنى عن مثلى الاعلى، وهذا ما حملنى على أن أعلن أن فترة التنظيم قد انتهت؛ وقد أخذ كالينا ايفانوفيتش بوجهة نظرى:

— اى شئ سيمكنك ان تجنيه عندما يؤول الامر باولئك الطفيليين الى صنع قداحات؟ لقد خربوا بيوت الشعب، ثم دبر امرك الآن!.. يجب علينا ان نصنع صنيع إيليا مورروميتز (٤).

— إيليا مورروميتز؟

— نعم... كان هناك هذا الرجل: ايليا مورروميتز... لعلك سمعت به، وقد جعل منه هؤلاء الطفيليون فارسا

مغوارا. ولكن انا... اعتقد انه كان مجرد صعلوك كسلان: كان يضرب بالعربة الزلاقة فى خلال الصيف... أرأيت هذا؟

ـ حسنا سوف نصنع مثل ايليا موروميتز فهذا ليس بذي ضير كبير... ولكن اين «العندليب الشقي» (٥)؟!

ـ الاشقياء كثيرون... ايها الأخ، يوجد بقدر ما تريد.

ووصلتنا مربيتان الى الاصلاحية: ايكاتيرينا غريغوريفنا، وليديا بيتروفنا. فالجهود التى بذلتها بالبحث عن مساعدين تربويين قد كادت تؤول بى إلى اليأس. فما من شخص يود أن يكرس نفسه لتربية الانسان الجديد، ففي وسط غاباتنا إن الناس جميعا يخشون هؤلاء المشردين. وما من أحد كان يعتقد أن عملنا سيصل إلى نتيجة خير؛ ففي مؤتمر لمعلمى المدارس الريفية الذى فتقت فيه كنوز فصاحتي انا ايضا، وجدت كائنين حيين ابتهجت اذ كانا امرأتين: كان يبدو لى

أن «التأثير النسائى الخيّر» سيكمل إكمالا طيبا منظومة قوانا.

كانت ليديا بيتروفنا فتية جدا تكاد تكون فتاة؛ فقد تخرجت منذ وقت حديث من الكلية؛ فكانت لا تزال تحتفظ بشئ من العناية الامومية بغضارة الحداثة. وقد سألنى مدير دائرة التعليم العام وهو يوقع تعيينها:

ـ ما حاجتك بهذه البنت الصغيرة؟ إنها لا تعرف شيئا.

ـ هذا بالضبط ما كنت أسعى إليه. كثيرا ما يخطر ببالى أن المعارف لا تهم الآن كثيراً فى مثل هذه الحال. فليديا الصغيرة هذه إنها الصفاء نفسه؛ وإننى لأعتمد عليها كأنها غصن غض نضير.

ـ ألست مغاليا فى التدقيق بعض المغالاة؟ حسنا...

أما إيكاتيرينا غريغوريفنا فكانت على العكس من ذلك؛ لقد كانت عاملة عتيقة فى حقل التربية. ولم تكن أسن بكثير من الأخرى؛ ولكن ليديا كانت تتكئ

على كتفها كأنها طفل على كتف أمه؛ وكان لها حاجبان أسودان عريضان يعترضان صفحة وجهها الرصين والجميل. كانت تحسن ارتداء ملابسها المحفوظة بشكل عجيب بنظافة بادية. وقد قال كالينا ايفانوفيتش كلمة صحيحة بعد ما تعرف عليها:

ـ يجب التزام جانب الاحتراس مع امرأة كهذه.

وهكذا كان كل شئ جاهزا. وفى الرابع من شهر كانون الاول ـ ديسمبر ـ وصل أول ستة اولاد واستلمنا منهم غلافا عجيبا مختوما بخمسة أختام كبيرة من الشمع الاحمر؛ فقد كانت فيه «اضباراتهم». كان اربعة منهم يبلغون الثامنة عشرة من العمر، وقد أرسلوا إلينا لاقترافهم جرم سلب المنازل بالسلاح؛ أما الاثنان الآخران فكانا أصغر سنا، وهما متهمان بالسرقة. كانوا يلبسون لباسا فاخرا: أحذية جميلة وبناطيل عسكرية بديعة، وشعر مقصوص على أحدث طراز. ولم يكونوا بحال من الأحوال أولادا مهجورين. وكانت أسماؤهم: زادوروف، بورون، فولوخوف، بينديوك، غود، تارانيتز.

واستقبلناهم استقبالا حسنا ؛ وكنا قد أعددنا منذ الصباح طعاما لذيذا فكانت قبعة الطباخة البيضاء كالثلج تتلألأ نظافة، وفي المهجع نصبنا الموائد بين المسافة المتروكة من الأسرة؛ ولم يكن لدينا اغطية للموائد، فاستعضنا عنها بشراشف جديدة. واجتمع في هذه الحجرة جميع أعضاء الاصلاحية الناشئة، وجاء كالينا ايفانوفيتش بعد ما غير للمناسبة جاكيته الرمادي الملیء بالبقع وارتدى جاكيتا من المخمل الأخضر.

وألقيت خطبة حول الحياة الجديدة، حياة العمل التي سوف تنفتح بعد اليوم لهم، وقلت لهم إن ماضيهم ينبغي أن يصبح شيئا منسيا؛ وانه يجب السير الى الأمام، دائما إلى الأمام. كان الأحداث لا يصغون جيدا للخطاب؛ ويتبادلون فيما بينهم همسات خافتة، فكانوا يلقون نظرات مليئة بالاحتقار تصحبها الابتسامات الساخرة الى الأسرة المطوية المصطفة في القاعة والمغطاة بألحفة مبطنة بالقطن ولكنها غير جديدة ابداً، والى الأبواب والنوافذ التي فقدت

دهانها. وفى وسط خطابى قال زادوروف فجأة بصوت عال لأحد رفاقه:

ــ أنت الذى اوقعتنا فى هذه الورطة!

وأمضينا بقية النهار فى رسم خطط حياتنا المقبلة؛ ولكنهم ما كانوا ليبدوا غير عدم مبالاة مهذبة لاقتراحاتى، وهم لا يفكرون بغير التخلص منى بأسرع وقت ممكن.

وفى صباح اليوم التالى جاءت إليّ ليديا بيتروفنا وهى منفعلة كل الانفعال وقالت لى:

ــ لا. أعرف كيف أكلمهم... أقول لهم يجب أن تذهبوا لتأتوا بالماء من البحيرة؛ واذا بواحد منهم وهو الذى شعره كذا. كان ينتعل الحذاء فقرب نعله من وجهى قائلا: انظرى إن صانع الأحذية قد صنعها ضيقة جدا.

وقد كفوا فى الأيام الأولى حتى عن إهانتنا؛ ولكنهم كانوا يتجاهلوننا بكل بساطة. وفى المساء كانوا يتغيبون بحرية من الاصلاحية، ويعودون فى الصباح فيستقبلون بابتسامات مهذبة التوبيخ المؤثر الذى كنت ابديه وفقا

لفكر «التربية الاجتماعية» (٦). وبعد اسبوع اوقف مفتش قلم المباحث فى المقاطعة بينديوك لاقترافه جريمة القتل والسلب فى الليل؛ فذعرت ليديا بيتروفنا ذعرا شديدا لهذا الحادث، وبكت ثم أوت إلى غرفتها ولم تكن لتخرج منها إلا لتسأل الجميع:

ـ ولكن... ما هذا؟ كيف يمكن هذا؟ يخرج ويقتل احد الناس؟

وكانت إيكاتيرينا غريغوريفنا تقطب حاجبيها بابتسامة رصينة:

ـ لا أعرف يا أنطون سيميونوفيتش؛ لا أعرف جادة بهذا... لعله من الواجب أن ننصرف بكل بساطة... لا أعرف أى وضع يمكن اتخاذه هنا...

الغابات المقفرة التى كانت تحيط اصلاحيتنا؛ ومكعبات ابنيتنا الفارغة والأسرة الخشبية العشرة، والفأس والمجرفة اللتان تؤلفان كل أواثلنا وهؤلاء الأحداث الخمسة الذين لا يطرحون عملنا التربوى فقط بل يرفضون كل شكل من أشكال الحضارة الانسانية.. كل هذا ـ والحق

يقال ــ لم يتفق بحال من الأحوال مع تجربتنا المدرسية السابقة.

كانت امسيات الشتاء الطويلة تبعث الكآبة وكانت الاصلاحية مضاءة بمصباحين صغيرين للبترول؛ واحد في المهجع؛ والآخر في غرفتي؛ اما المربيتان وكالينا ايفانوفيتش فكان عندهم سرج قديمة وهي اختراع يعود تاريخه الى عهد كي وتششيلك وخوريف (٧). وكانت زجاجة مصباحي مكسورة الفوهة؛ فكانت تظل دائما مسودة بالدخان وذلك لأن كالينا ايفانوفيتش الذي اعتاد أن يأخذ من عندي النار لغليونه، كان يدس فيها لهذا الغرض نصف جريدة لتحترق ثم يشعل الغليون.

ابتدأ الشتاء مبكرا هذا العام؛ وكانت الباحة بكاملها مستورة بركام الثلج ولم يكن هناك من شخص لينظف الممرات؛ فطلبت من الأحداث أن يقوموا بهذه المهمة ولكن زادوروف قال لي:

ــ من الممكن أن ننظف، ولكن يجب انتظار آخر الشتاء... فلو نظفناها الآن عاد الثلج وتراكم.. أفهمت؟

وغادرني وعلى ثغره ابتسامة لطيفة ليذهب إلى رفيق له وقد نسي وجودي أمامه. لقد كان زادوروف من أسرة مثقفة؛ وقد كان هذا يبدو على الفور: كان يتكلم كلاما صحيحا، وكان وجهه يتميز بنضارة الصبا التي لا تكون إلا لدى الأطفال الذين تغذوا تغذية جيدة. أما فولوخوف فكان من نوع آخر: فم عريض، وانف كبير وعينان متباعدتان في صفحة وجه بارز القسمات، متحرك العضلات بشدة. انه لرأس قاطع طريق.. كان لا يخرج يديه من جيوب سرواله وأقبل عليّ بهذا الوضع:

ــ أما قيل لك؟..

وغادرت المهجع وانا اشعر كأن حجرا ثقيلا في صدري من شدة حنقي المكبوت. ولكن كان لا بد من تنظيف الممرات؛ وكان الغضب المتحجر يطلب حركة، فدخلت على كالينا ايفانوفيتش:

ــ هيا نكشط الثلج.

ــ ماذا تقول؟ أتعتقد أنني أجرت نفسي كأنني عامل. وأولئك ــ وأشار برأسه إلى المهجع ــ أولئك قطاع الطرق.

ـــ أنهم لا يريدون.

ـــ آه. الطفيليون! اذا كان الامر كذلك فهيا بنا!

وأنهينا أنا وكالينا ايفانوفيتش الممر الأول عندما خرج من هذا الطريق فولوخوف وتارانيتز قاصدين المدينة كعادتهما.

قال تارانيتز بمرح:

ـــ هذا هو الحسن!

فعقب عليه فولوخوف:

ـــ كان يجب أن يكون هذا منذ زمن طويل.

وقطع عليهما الطريق كالينا ايفانوفيتش:

ـــ كيف تقول «هذا هو الحسن»؟ أنت أيها الوغد؛ لقد رفضت أن تعمل فيه؛ فهل تعتقد أننى اكشطه لأجلك؟ لن تمر من هنا أيها الطفيلى هرول فى الثلج وإلا ضربتك بالمجرفة...

ولوّح كالينا ايفانوفيتش بهذا السلاح، ولكن المجرفة طارت بلمح الطرف بعيدا الى ركام الثلج، وطار غليونه

فى طرف آخر، فاحتد غضبا صاحبهما ولم يستطع إلا ان يتبع ببصره الولدين وهما يصرخان له من بعيد:

ـ يجب أن تعدو لتأخذ بنفسك المجرفة!

وانطلقا صوب المدينة ضاحكين.

ـ سأذهب إلى جهنم. خير من العمل هنا؛ قال هذا كالينا ايفانوفيتش وترك المجرفة فى الثلج وعاد الى بيته.

وأصبحت حياتنا محزنة رهيبة. ففى كل مساء كان الناس يصرخون على الطريق الرئيسى الى خاركوف:

ـ النجدة!! النجدة!!

وكان القرويون المسلوبون يأتون الينا، ويطلبون النجدة بصوت حزين.

وطلبت من مدير التعليم العام مسدسا حتى أستطيع الدفاع عن نفسى ضد اللصوص على الطريق. وأنا أخفى عليه وضع الاصلاحية. وقد كنت ما زلت لم أفقد الأمل بأن أجد وسيلة أتفاهم فيها مع نزلاء اصلاحيتنا.

ولم تكن الأشهر الاولى من تجربتنا بالنسبة لى ولرفاقى فترة يأس وتوتر مرهق فقط ؛ وإنما انقضت كذلك وراء البحث عن الحقيقة ؛ ففى حياتى كلها لم أقرأ من الكتب التربوية بقدر ما قرأت فى شتاء عام ١٩٢٠.

وكانت تلك الأوقات ، أوقات فرانجل والحرب البولونية. فكان فرانجل فى مكان مجاور لنا فى ضواحى نوفوميرغورود، وفى تشيركاسي غير بعيد منا كان البولونيون يقومون بعمليات حربية؛ وفى أوكرانيا كلها كان رؤساء العصابات يهيمون على وجوههم بينما كانت راية بتليورا الصفراء والزرقاء (٨) تجتذب اليها كثيرا من الناس، أما نحن فقد كنا فى أعماق الغابة ، رأسنا على يدينا ، ونحن نجتهد لأن ننسى اعاصير الحوادث الجسام. فقد كنا نقرأ كتبا في فن التربية.

كانت الفائدة التى جنيتها من تلك المطالعات هى الاعتقاد الذى سرعان ما انقلب يقينا راسخا بأنها ـ أى المطالعات ـ لن تضع بين يدى اى علم أو نظرية وأنه يجب استقاء هذا من حصيلة الحوادث الواقعية التى تمر

تحت ناظري. ومع هذا فلم أفهمه فى أول الأمر ولكننى رأيته مجرد رؤية اننى لا احتاج الى صيغ كتبية لايمكننى ان استفيد منها فى العمل بل احتاج الى تحليل فورى مباشر وعمل فورى مباشر.

كنت أشعر من أعماق كيانى بأنه يجب أن أسرع، وأنه لا يمكننى أن اتمهل يوما واحدا؛ فكانت الاصلاحية قد بدأت تأخذ بازدياد شكل مرتع للصوص. ففى مضمار علاقات الأحداث بالمربين، اشتطوا فى إهانتنا فى كل مناسبة وأخذوا يظهرون بمظهر سفلة الناس. حتى بدأوا يحكون الحكايات الرذيلة امام المربيتين؛ ويطلبون طعامهم بخشونة ثم يرمون أطباق الصحون فى المطعم فى الهواء. وأخذوا يشهرون سكاكينهم الحادة على مرأى البصر؛ ويستخبرون ــ ساخرين ــ عن المال الذى يمكن سلبه من مستخدمى الاصلاحية:

ــ هذا يمكن دائما ان يفيد فى المآزق...

ورفضوا رفضا باتا أن يذهبوا لقطع الأحطاب لأجل المدافئ؛ وخربوا على مرأى من كالينا ايفانوفيتش،

السقف الخشبى لإحدى السقيفات وتم ذلك بالمزاح والضحكات:

ـ هذا يكفى للزمن الذى سنبقى فيه!

وأطلق كالينا ايفانوفيتش ملايين الشرارات من غليونه، وازاح ذراعيه:

ـ ما لديك لتقوله لهم، لهؤلاء الطفيليين؟ انظر معى الى هذه الجزمات الانيقة. ومن اين تعلموا هذا... ان يخربوا السقيفات؟ يجب ان يوضع اهلهم فى السجن. يا لكم من عصابة طفيليين...

وحدث حادث: فقد طرحت جانبا المسلك التربوى.

وفى صبيحة يوم من ايام الشتاء طلبت من زادوروف ان يمضى لقطع احطاب للمطبخ؛ فسمعت جوابه المعتاد:

ـ اذهب اليه بنفسك. فامثالك هنا كثيرون.

وكانت هذه اول مرة يخاطبنى فيها بضمير المفرد.

وانجرحت من هذه الاهانة الى حد أننى من شدة غضبى اليائس الذى أدت بي إليه تجربتى طيلة الأشهر الماضية؛ هززت كفى وصفعت زادوروف على خده؛

وكانت الضربة قوية فلم يستطع الانتصاب على قدميه بل سقط متدحرجا على المدفأة، وضربته مرة ثانية وأمسكت به من تلابيبه ورفعته وضربته مرة ثالثة.

وفجأة رأيته قد تملكه الذعر فامتقع لونه ووضع قبعته على رأسه بسرعة بيديه المرتجفتين ثم رفعها وأعاد وضعها ثانية؛ وهممت أن أضرب به أيضا ولكنه تمتم بصوت خافت وهو ينتحب:

– عفواً... يا أنطون سيميونوفيتش...

كان قد تملكني حنق شديد جدا حتى شعرت بأنه من يلفظ بكلمة نابية ضدي فسأنقض عليهم جميعا وأقتل هذه العصابة الشقية وأبيدها. وكان قد وقع تحت يدي سفود من الحديد، ووقف الخمسة منتصبين قرب أسرتهم دون أن ينبس احد ببنت شفة فبادر بورون الى تصليح شئ في لباسه، فاتجهت إليهم وضربت بالسفود على حافة احد الأسرة قائلا:

–يجب أن تذهبوا على الفور جميعا إلى الغابة لتشتغلوا... وإلا فاخرجوا من هنا واذهبوا اين شئتم!..

وخرجت من المهجع.

ومررت بالسقيفة حيث توضع اواثلنا؛ فاخذت منها فأسا وانا الاحظ بتجهم الأحداث يتجهزون بالفؤوس والمناشير. وخطر لى فجأة أنه من المستحسن ان لا يكون قطع الأحطاب هذا اليوم؛ كيلا توضع هذه الأسلحة بين ايديهم؛ ولكن كان الوقت قد فات. فقد كان عندهم كل ما يلزمهم. لا بأس! كنت مستعدا لكل طارئ؛ فقررت ان أكلفهم غاليا ثمن الاعتداء عليّ. فقد كان فى جيبى مسدس ايضا.

واخذنا نمشى؛ ثم لحق بي كالبنا ايفانوفيتش وهمس فى اذنى وقد تملكه اضطراب مريع:

— ما معنى هذا؟ قل لي بحقك. لِمَ اصبحوا اليوم وديعين الى هذا الحد؟

ونظرت وأنا ساهم الى عيني هذا «البان» الزرقاوين وقلت:

— لقد ارتكبت عملا سيئا يا صاحبي... لأول مرة فى حياتى ضربت انسانا.

ـ آه... يا للاشقياء... ـ قال كالينا ايفانوفيتش متعجبا.

ـ وإذا ذهبوا وأقاموا عليك دعوى؟

ـ هذا لن يكون ذا شأن...

ولشد ما ادهشني ان مركل شيء على ما يرام فقد اشتغلت معهم حتى وقت الطعام. فحطمنا اشجار الصنوبر الماثلة في الغابة؛ وكان الأولاد عابسي الوجوه ولكن الهواء النقي البارد وجمال الغابة ذات الأشجار المغطاة باوشحة ثقيلة من الثلج؛ وانغام المناشير والفؤوس المرحة؛ كل ذلك قد أثر فيهم.

وفي وقت الراحة اخذنا ندخن من مئونة تبغي وبدأنا ننفث الدخان إلى عنان السماء، ونحن متضايقون؛ وانطلق زادوروف فجأة بضحكة قوية:

ـ حسناً!.. ها ـ ها ـ ها ـ ها!..

كان شيئا مسرا رؤية وجهه الاحمر الضاحك، ولم أملك إلا أن ارد ببسمة:

ـ اي شيء حسن؟ العمل؟

ـ العمل دعك منه! ولكن كيف ضربتني!

لقد كان لدى زادوروف وهو يافع كبير قوى ما يدعوه إلى الضحك، وعجبت من نفسى كيف استطعت أن اضرب مثل هذا الولد الشديد البأس.

وانفجر بالضحك ثم أخذ فأسه ضاحكا واتجه صوب شجرة:

ـ شيء مضحك! ها ـ ها ـ ها...

وتناولنا الطعام معا، بشهية ونحن نطلق النكات دون أن نتعرض بكلمة لحادث الصباح، ولم أكن لأشعر أبدا أننى مرتاح، ولكننى عزمت على أن لا أخفض لهجة كلامى الصارمة، وبعد الغداء اصدرت اوامرى بحزم. وكان على شفتى فواوخوف ابتسامة خبيثة، ولكن زادوروف أقبل نحوى بوجه رصين جدا وقال:

ـ نحن لسنا أشرارا جدا... يا أنطون سيميونوفيتش، وسيجرى كل شئ على ما يرام. نحن نفهم.

٣. طابع الحاجات الأولية

وفى اليوم التالى قلت للأحداث:

ـ يجب أن يكون المهجع نظيفا؛ فينبغى لكم ان تتناوبوا هذا العمل؛ كل يوم يقوم به واحد منكم؛ ولن يذهب احد إلى المدينة إلا باذن منى. ومن يتغيب بدون إذن فليس عليه إلا ان لا يعود؛ فلن أتركه يرجع.

فاستغرب فولوخوف، قائلا:

ـ ألا توجد وسيلة اسلس؟

ـ اختاروا ـ أيها الاولاد ـ الأنسب لكم؛ فانا لا استطيع ان اصنع غير هذا. يجب ان يكون فى الاصلاحية نظام؛ فاذا لم يلائمكم هذا فاذهبوا اين شئتم. ولكن الذين يودون البقاء فما عليهم الا ان يراعوا النظام؛ لن تكون الاصلاحية مرتعا للصوص.

ومد زادوروف يده اليّ قائلا:

ـ اتفقنا... هذا هو الصحيح! انت ـ يا فولوخوف ـ فاسكت. انك ما زلت غبيا فى هذه

الشؤون؛ كل شيء قد حسب حسابه، فلا بد من قضاء الشتاء هنا. أنذهب الى السجن؟

وسأل فولوخوف:

ـ والذهاب الى المدرسة اجبارى؟

ـ حتما.

ـ ولكن اذا لم أرد ان اتعلم... فيم سيفيدنى هذا؟

ـ المدرسة الزامية، سواء شئت او لم تشأ... أرأيت لقد نعتك زادوروف منذ قليل بالغبى الاحمق؟ يجب ان تتعلم وتصبح ذكيا.

وعلى سبيل المزاح هز فولوخوف رأسه وقال مرددا كلمات احدى النوادر الاوكرانية:

ـ لقد وقعت في ورطة مناسبة!

كان حادث زادوروف نقطة انعطاف في ميدان النظام؛ وفي الحقيقة ان تبكيت الضمير والندم ـ والحق يقال ـ لم يعتلجا في نفسي. نعم. لقد ضربت واحدا من الأحداث الذين عندي، وشعرت بكل مخالفتي لقواعد التربية وكل الظلم القانونى لهذا الحادث ولكننى

في الوقت ذاته رأيت ان نقاء يدى كمربٍ كان مسألة ثانوية بالنسبة الى الرسالة الملقاة على عاتقي. فقد عزمت عزما راسخا على ان أكون ديكتاتورا اذ لم اتعلم طريقة أخرى. وبعد فترة قصيرة من الزمن نشب نزاع قوى بينى وبين فولوخوف؛ إذ كان مناوبا في ذلك اليوم ولم يقم بكنس المهجع؛ ورفض ان يقوم به بعد ملاحظتي؛ فنظرت اليه غاضبا وقلت له:

– لا تخرجني عن طوري وهدوئي!.. نظف!

– واذا لم أفعل؛ فهل سوف تضربني على وجهي؟ لا يحق لك هذا!

وامسكت به من تلابيبه وقربته مني وصرخت في وجهه بصوت داوٍ مخلص كل الاخلاص:

– اسمع!.. انذرك للمرة الأخيرة؛ ولن اضربك على الوجه؛ انما سأشوهك، وسوف يكون في وسعك بعدئذ أن تقيم دعوى عليّ. وسأُوقف، ولكن هذا لا يعنيك!

وانتزع فولوخوف نفسه من يديّ وقال بصوت يشيع فيه البكاء:

ـ لا يكون توقيف بسبب هذه الحماقات؛ سأقوم بالتكنيس، ثم اذهب الى الجحيم!

وصرخت في وجهه بصوت راعد:

ـ كيف تكلمني؟

ـ وكيف اكلمك اذاً؟ واذهب الى!..

ـ ماذا؟ سبني لترى...

وأخذ يضحك فجأة؛ ولوح بيده:

ـ يا لك من رجل... اكنس، اكنس. لا تصرخ أبدا.

ومع ذلك فتجب الملاحظة بأنه ما من لحظة كنت افكر فيها بأن أجد في العنف طريقة تربوية قوية كل القوة؛ لقد كلفتني حادثتي مع زادوروف اكثر مما كلفته هو؛ فقد اخذت اخشى ان اخوض ميدان اقل مقاومة. أما من جهة المربيتين فقد شجبتني ليديا بيتروفنا علنا دون ان تتغاضى عن ذلك. وفي ذاك

المساء نفسه حدثتني وهى واضعة رأسها بين كفيها الناعمتين فقالت لى:

ــ لعلك وجدت الطريقة الآن؟ كما فى المدارس الدينية؟ هكذا؟

ــ عفوا يا عزيزتى ليديا!!

ــ لا... قل لى هذا هو الأفضل... هل سوف نشرع بالضرب؟ وهل هذا مسموح لى به ايضا أم انه لك فقط؟

ــ يا عزيزتى ليديا؛ سأحدثك عنه فيما بعد. أما الآن فانا نفسى لا أعرف. انتظرى قليلا.

ــ حسنا سأنتظر...

وظلت ايكاتيرينا غريغوريفنا عدة أيام تقطب حاجبيها، وتكلمنى بلهجة المجاملة الرسمية؛ ولم تسألنى إلا بعد خمسة أيام وهى تبتسم ابتسامتها الرصينة:

ــ قل لى: كيف تجد نفسك؟

ــ كالعادة... فأنا أشعر بأننى على ما يرام.

ــ ولكن أنعرف احزن شئ فى تلك الحادثة؟

ــ أحزن شيء؟

ــ نعم. احزن شيء هو ان هؤلاء الاولاد يتحدثون عن بطولتك بحماسة الى حد انهم مستعدون ان يعبدوك، واولهم زادوروف في ذلك. ماذا يعني هذا؟ أنا لا ادري. أهذا تعوّد على الاستعباد؟

وفكرت قليلا ثم قلت لها:

ــ لا... ان الاستعباد لاشأن له هنا فالأمر يبدو بشكل آخر؛ حللي الامر تحليلا جيدا؛ ان زادوروف أقوى مني، وكان في وسعه ان يجندلني بضربة واحدة؛ ومع ذلك فلا يخاف شيئا؛ وكذلك بورون والآخرون. ففي هذا الحادث كله لا يرون الضربات؛ إنما يرون الغضب والرجل الذي ينفجر. فقد فهموا فهما كاملا انه كان في مقدوري ان لا اضرب زادوروف بل استطيع ان أعيده كشخص لا يمكن إصلاحه؛ الى لجنة «الأحداث الجانحين» (٩) فأسبب لهم كثيراً من الانزعاجات. ولكنني لم افعل ذلك واخترت خطة سلوك خطرة بالنسبة إلي، إلا انها انسانية وليست شكلية. وانه لمن الجلي

ايضا انهم مع ذلك يحتاجون الى الاصلاحية؛ وهذا اكثر تعقيدا، وعلاوة على ذلك انهم يرون اننا نعمل كثيرا في سبيلهم. انهم بشر على كل حال. وهذا هو الأمر الاساسي.

ــ ربما، ــ قالت هذا ايكاتيرينا غريغوريفنا وهي ساهمة تتأمل.

على أننا لم يكن لدينا الوقت للتأمل؛ فبعد أسبوع في شباط (فبراير) ١٩٢١ جلبت في عربة لنقل المفروشات خمسة عشر طفلا مشردا حقا ورثي الثياب حقا. فغسلناهم والبسناهم على قدر طاقتنا وخلصناهم من الجرب فكلفنا هذا مجهودا كبيرا؛ وفي شهر آذار (مارس) كانت الاصلاحية تضم عددا منهم يبلغ الثلاثين؛ وقد كانوا في أغلبهم سيئي الحال جدا ومتوحشين غير أهل أبدا لتحقيق حلم «التربية الاجتماعية». ان هذه العبقرية الخلاقة التي تجعل ــ على ما يُزعم ــ فكر الطفل قريبا جدا من الفكر العلمي لم يكن المرء ليعثر عليها لديهم في ذلك الحين.

وانضم الى الاصلاحية ايضا مربون جدد؛ وفى شهر آذار (مارس) كنا قد صرنا نكوّن مجلسا للمعلمين حقيقيا، وابهج الجميع ان حط الرحال الزوجان اوسيبوف ايفان ايفانوفيتش وناتاليا ماركوفنا مع اثاث عظيم: أرائك، وكراسى وخزانات وكمية من الملابس وأوائل المطبخ؛ فكان نزلاء الاصلاحية شبه العراة يرمقون باهتمام زائد تفريغ هذه الاعاجيب كلها عند باب مسكن الأسرة اوسيبوف.

كان هذا الاهتمام بعيدا عن ان يكون مجرداً وكنت أخشى كل الخشية أن يأخذ هذا الاثاث البديع طريقه عائدا ادراجه الى اسواق المدينة. ولكن الاهتمام الذى اتجه صوب ثروة اوسيبوف قد تضاءل بعد اسبوع؛ ولعل ذلك يعود قليلا إلى مجيء وكيلة الخرج. كانت امرأة عجوزا طيبة جدا ولكنها ثرثارة جدا وحمقاء جدا؛ فعلى الرغم من انها ما كانت تشبه اسرة اوسيبوف من حيث وفرة امتعتهم، فقد كانت امتعتها، هى، تحتوى على اشياء جد ظريفة: كمية كبيرة من الطحين؛

وقطرميزات المربيات وغيرها من المأكولات، ومعها عدد كبير من الاكياس الصغيرة اللطيفة، وأكياس للسفر؛ كان تلاميذنا يتحسسون في داخلها بانظارهم كل صنف من الاغراض النفيسة.

ورتبت الوكيلة غرفتها بهذا الذوق الذى يبديه العجائز بميلهم الى الراحة؛ فقد رتبت فيها علبها الصغيرة والأوانى الأخرى بنظام جميل وذلك فى الخزانات والزوايا والاركان المخصصة بطبيعتها لهذه الأشياء؛ وسرعان ما انعقدت الصداقة بينها وبين اثنين أو ثلاثة من الاولاد؛ وتمت هذه الشركة على أساس تعاقدى: فقد تعهدوا بأن يجلبوا لها الأحطاب وان يشعلوا لها النار فى السماور؛ وبالمقابل تقدم إليهم الشاى وملاحظاتها حول الحياة. لم يكن هناك — بعبارة صحيحة — من ضرورة تقتضى وجود وكيلة للخرج فى اصلاحيتنا وقد دهشت من تعيينها لنا.

لم تكن الحاجة لتشعرنا بها أبدا؛ فقد كنا فقراء الى حد لا سبيل الى احتماله.

فعلاوة على المساكن المعدودة التى اقام بها الموظفون لم نستطع ان نصلح غير مهجع واسع كنا ندفئه بمنقلين مستديرين. كانت هذه الحجرة مجهزة بثلاثين سريرا خشبيا للنوم وثلاث طاولات كبيرة؛ كان الاولاد يأكلون عليها ويكتبون. وكان هناك مهجع آخر بنفس السعة، ومطعم وقاعتان للدروس ومكتبة تنتظر ان تصلح وتفتح.

وكان ما عندنا من شراشف للغيار يكفى لنوبة ونصف، وما من شيء آخر غيرها من الابايض. وكانت علاقتنا مع مسألة الثياب تكاد تقتصر على الطلبات الموجهة الى دائرة التعليم العام وغيرها من المؤسسات.

اما المدير الذى اجتهد لفتح الاصلاحية بمثل هذا الحزم فقد نقل الى منصب آخر وجاء خلفه فكان يهتم اهتماما قليلا بنا اذ كانت تشغل رأسه أعمال أخرى اكثر أهمية.

وأما الجو الذى كان يسود حينئذ فى دائرة التعليم العام فلم يكن ملائما اطلاقا لمطامحنا إلى البحبوحة والغنى. فقد كانت الدائرة متألفة فى ذلك الحين من

كتلة مختلف العناصر من حجر وغرف كثيرة العدد مع عدد كبير من الموظفين؛ ومع ذلك فلم تكن الغرف ولا الأشخاص هم الذين يجسدون فى هذه الأمكنة الابداع التربوى ويمثلونه؛ بل الطاولات. فهناك طاولات للكتابة وطاولات التواليت أو اللعب؛ وكلها مفككة الأوصال مقشرة؛ كانت من قبل سوداء أو حمراء وعلى جوانبها كراسى على نفس النمط، كل هذه الأشياء كانت تمثل مختلف اقسام الدائرة؛ وهذا ما كانت تشهد به اللوحات المعلقة على الجدار أمام كل واحدة منها. وقد كان القسم الأكبر من هذه الطاولات غير مشغول لأن الشيء الاضافى، وهو الانسان، لم يكن فى حقيقته رئيس القسم بقدر ما هو محاسب مصلحة توزيع المؤن. فاذا كان يبدو على بعض هذه الطاولات بسائق الصدفة شكل انسانى فقد كان الزوار يتوافدون عليه مسرعين من كل جهة. وكان الحديث يدور اذ ذاك حول معرفة ماذا كان هذا القسم وهل هو القسم الذى ينبغى للزائر ان يقصده او الى غيره، وفى مثل هذه الحالة لأى سبب والى

أى قسم آخر يجب ان يقصد على وجه التحديد؛ واذا لم يكن هو مع ذلك فلماذا قال الرفيق الذى كان على تلك الطاولة فى الأسبوع الأخير: ان القسم هو هذا بالضبط؟ وما ان تستوى فى الخاطر هذه الاسئلة حتى ينصرف رئيس القسم ويغيب ولا يعود له من اثر.

ولم يكن لتطوفاتنا عديمة الخبرة حول الطاولات اى نتيجة ايجابية بطبيعة الحال ولذا كانت الاصلاحية فى شتاء عام ١٩٢١ تشبه قليل الشبه مؤسسة للتربية. فالجاكيتات الممزقة التى يستحسن جدا أن يطلق عليها العبارة العامية شراطيط كانت لا تكاد تغطى جسم الانسان. فقلما كانت تظهر تحت هذه الشراطيط بقايا قميص ممزق. أما اولادنا الأحداث الأولون الذين قدموا الينا بملابسهم الجميلة فلم يكونوا ليختلفوا عن الجمهرة العامة الا لفترة قصيرة. فأعمال الغابة وعمل المطبخ والمغسلة قد انجزت مهمتها التربوية بدون شك ولكنها كانت شؤما على الثياب. وفى آذار (مارس) كان جميع نزلاء الاصلاحية عندنا يلبسون بشكل يثير غيرة اى

فنان يقوم بدور الطحان فى الأوبرة «حورية الماء» (١٠).

كان عدد قليل جداً منهم ينتعل فى قدميه حذاء، أما الأغلب فكانوا يلفون اقدامهم بخرق يربطونها بخيوط؛ الا ان هذا النوع من الأحذية كان يعاني عندنا أزمات دائمة ايضا.

كان طعامنا العادى يسمى «المرقة» وكل طعام آخر كان خاضعا للمناسبات. وقد كان يوجد فى ذلك الوقت سلسلة عديدة متدرجة من حصص الطعام: حصص عادية؛ حصص مقوية؛ حصص للضعاف؛ حصص للأقوياء؛ حصص للمصحات والمستشفيات؛ حصص للناقصين... وبفضل نشاط ديبلوماسى شديد كنا نتوصل أحيانا الى الاقناع أو عطف القلوب من فرط الرجاء والتوسل اوالحيلة والخديعة؛ أو نهدد بفكرة التمرد لدى أولادنا الأحداث حتى نظفر مثلا بحصة المصحة. وكانت هذه الحصة تشتمل على الحليب والدهن والخبز الأبيض. وغنى عن البيان ان تلك الاشياء لم نكن

لنحظى بها او نظفر ولكن كنا نعطى كميات اكبر من بعض عناصر «المرقة» وخبز الجودار. وما ان ينصرم شهر او شهران حتى نقع تحت وطأة هزيمة ديبلوماسية تعود وتهوي بنا الى مستوى الناس العاديين فنعاود سلوك السبيل المريب والوعر فى مفاوضاتنا السرية والعلنية. وقد كنا ننجح احيانا فى القيام بضغط شديد فنأخذ لحما وكونسروا وسكاكر، ولكن حياتنا ما كانت لتصبح بها إلا أكثر بؤسا وحزنا؛ وذلك عندما كانوا يكتشفون ان الناقصين خلقياً لا حق لهم بهذا البذخ وانما هو مخصص فقط للناقصين عقلياً.

وقد كنا من حين الى آخر نخرج من المجال الضيق لعالم التربية لنقوم بغارات على المناطق المجاورة لا سيما «لجنة مؤن المقاطعة» او لجنة للجيش الأول الاحتياطى أو مصلحة التموين لبعض الدوائر الملائمة لهذا المشروع. وكان بحرم تحريما باتا هذا النوع من غارات حرب الأنصار فى ادارة التعليم العام. فكان علينا ان نقوم بغاراتنا السريعة خفية.

كان من الضرورى لنا أن نتسلح بعريضة لا تحمل غير هذه الجملة البسيطة المعبرة: «إن اصلاحية الأحداث الجانحين ترجو ان تعطى مئة بود من الطحين لتغذية اولادها الاحداث».

أما فى الاصلاحية فلم نكن نستعمل ابدا كلمات مثل «الجانحين» ولم تكن الاصلاحية لتسمى هكذا. فقد كنا نسمى فى ذلك الحين «الناقصين خلقيا». على أن هذه الصيغة كانت فى عوالم أخرى قليلة الملاءمة لأنها تُشعر بفرط بيروقراطيتها التربوية.

كنت أقف مع ورقتى فى ركن من دهليز المؤسسة الملائمة على باب أحد المكاتب. وكان جمهور من الناس يدخل اليها، وكان فى بعض الأحيان يزدحم عليها خلق كثير الى حد ان أى امرئ كان يستطيع أن يدخل إليها وحالما ندخل ينبغى لنا ان نشق طريقا إلى الرئيس بين رؤوس الزوار لنضع العريضة بين يديه دون أن ننبس ببنت شفة.

لقد كان رؤساء مصالح المؤن لا يتعرفون خير تعرف على دقائق التصنيف التربوى؛ ولم يكن ليخطر ببالهم ابدا أن للاحداث الجانحين علاقة بالتربية. لقد كان الوقع المثير لهذا التعبير: «الأحداث الجانحون» موحيا بشكل كاف وكانوا قلما يتخذون هيئة قاسية ليقولوا لنا:

ـ ماذا جئتم تطلبون من هنا؟ اذهبوا إلى دائرتكم التربوية.

وكان يحدث لهم في كثير من الأحيان أن يقولوا بعد لحظات من التأمل:

ـ من يمونكم؟ هل ادارة السجون؟

ـ لا... انها لا تموننا لأن هؤلاء اولاد على كل حال.

ـ ولكن من يمونكم إذن؟

ـ حتى الوقت الحاضر لم ينجل هذا الأمر كما ترى...

ـ كيف «لم ينجل الأمر»؟ ان هذا لعجيب!

وكان الرئيس يسجل شيئا ما على دفتره ويطلب أن نعود بعد أسبوع.

– فى هذه الحال سلمونا عشرين بودا وننتظر الباقى.
– عشرين بودا... لا... خذ منها خمسة الآن وسأوضح الأمر فيما بعد.

خمسة بودات هذا شئ قليل؛ وكان مجرى الحديث لا يلم بمناهجنا التى لم تكن لتتوقع أى ايضاح.

كان الشكل الوحيد المقبول الذى يمكن ان يتخذه الامر بالنسبة لاصلاحية غوركي هو ان يتناول الرئيس وهو ساكت عريضتنا ويخربش فى إحدى الزوايا هذه العبارة: «للتسليم». وحينئذ كنت اعود كالمجنون الى الاصلاحية:

– يا كالينا ايفانوفيتش! إليك بطاقة!.. مئة بود! هيا ابحث حالا عن السواق واستلمها قبل ان تعلم الدائرة بذلك...

وكان ينحنى كالينا ايفانوفيتش فرحا على العريضة قائلا:

– مئة بود؟ يا الله! ومن اين كان هذا؟
– ألا ترى من غوبرودكوم لغوبيوروتديل.

— ومن يعرفهم؟! على ان هذا بالنسبة لنا سيان حتى لو كان الشيطان ماذا يهمنا ما دام سيبيض. هيه — هيه — هيه!

الأكل حاجة اساسية للانسان؛ لهذا ما كانت مسألة الكساء لتثقل علينا وطأتها بقدر وطأة الغذاء. لقد كان اولادنا الأحداث جياعا على الدوام. فكان هذا يعقد تعقيدا كبيرا اعادة تربيتهم الخلقية. ولم يكن اولاد الاصلاحية ليتوصلوا الى اشباع شهيتهم إلا جزئيا وذلك بوسائلهم الخاصة.

كان صيد السمك احد الانواع الرئيسية لتحصيل القوت الخاص الذى يمارسه الأحداث. وكان هذا صعبا جدا فى الشتاء وكانت أيسر طريقة تجرى بتفريغ الشباك الموضوعة من قبل سكان القرى فى مياه النهر المجاور وفى بحيرتنا. كانت غريزة حفظ البقاء والذكاء الاقتصادى الخاص بالانسان تمسكان أولادنا عن سرقة هذه الشباك أيضا. على أنه كان هناك بين نزلاء الاصلاحية واحد أخل بهذه القاعدة الذهبية.

كان هذا هو تارانيتز، له من العمر ستة عشر عاما. وهو من أسرة عريقة باللصوصية. كان طويل القامة قوى البنية ذا وجه مثقب بالجدرى. وكان مرحا خفيف الروح ومنظما عظيما ومدبرا. غير انه ما كان يحسن احترام مصالح الجماعة، فكان يسرق عدة شباك من على النهر ويخبئها فى الاصلاحية، فكان أصحاب الشباك يأتون عقبه. وينتهى الأمر بفضيحة كبيرة. ثم أخذ الفلاحون يحرسون شباكهم فكان صيادونا لا يصلون إلا نادرا إلى الحصول على شيء من الأشياء. ولكن بعد فترة من الزمن أصبح لتارانيتز وفئة من رفاقه شباكهم الخاصة بهم، أعطاهم إياها «أحد معارفهم فى المدينة» وبفضل هذه الأدوات الخاصة تطور الصيد بسرعة؛ فقد كان السمك فى بادئ الأمر يؤكل فى حلقة ضيقة، ولكنه خطر لتارانيتز فى آخر الشتاء دون تدبير للامر ان يدخلنى فى هذه الحلقة.

فقد دخل الى غرفتى بصحن من السمك المقلى وقال لي :

ـ هذا إليك.

ـ ولكنى لا اريده.

ـ لماذا؟

ـ لأن هذا ليس عدلا. يجب توزيع السمك على جميع نزلاء الاصلاحية.

فقال تارانيتز مغتاظا:

ـ بأي حق؟ بأي حق؟ لقد حصلت على الشباك بنفسى واصطدت وتبللت بالنهر ثم ينبغى لى ان اعطى جميع الناس منه؟

ـ اذن خذ سمكك... فانا لم احصل على شباك ولم اتبلل بالنهر.

ـ ولكنه هدية تقدم إليك...

ـ لا. لا اقبلها. ان هذا لا يسرنى. انه ظلم.

ـ ما هو الظلم فى هذا الموضوع؟

ـ إليك هو. انك لم تشتر هذه الشباك، انها هدية.

ـ نعم هدية.

ـ إلى من؟ إليك؟ أم الى جميع الاصلاحية؟

ـ لماذا إلى جميع الاصلاحية؟ إلي انا...

ـ اعتقد أنها الي ايضا وانها الى الجميع. فاوائل القلي... لمن؟ ألك؟ لا... للجميع وزيت دوار الشمس الذى طلبته من الطباخة؛ انه مشترك للمجموع والحطب والفرن والسطول لمن؟ هيا ما لديك لتقول بهذا الشأن؟ أما انا فانتزع منك كل الشباك. فحسبك هذا، والشيء الرئيسى ان سلوكك ليس سلوكا شهما. نعم ان الشباك لك، وماذا ينجم عن ذلك؟ فعليك ان تجهد من اجل الرفاق فالجميع قادرون على الصيد.

قال تارانيتز:

ـ حسنا سيكون هذا كما تشاء ولكن خذ السمك الآن.

وأخذت السمك وأصبح الصيد منذ ذلك اليوم عملا منظما بالمناوبة يسلم انتاجه الى المطبخ.

كانت زيارات سوق المدينة تقدم إلينا وسيلة ثانية للحصول على القوت بشكل فردى. فقد كان كالينا ايفانوفيتش يكدن الجواد «الصبى» (القرغيزى) الى العربة ويذهب للسعى وراء غلال أو ليغير على مكاتب الدوائر.

وكان اثنان أو ثلاثة من اولاد الاصلاحية يتعلقون به اذ كان لديهم سبب ما للذهاب الى المدينة: الى المستشفى، او مدعوين للتحقيق امام اللجنة، او لمساعدة كالينا ايفانوفيتش ومسك لجام الجواد «الصبى». كان هؤلاء المحظوظون يعودون و بطونهم ملاء عادة و يحملون بعض الأشياء الى رفاقهم. ولم يكن ليحدث أبدا الى شخص منهم أن «يقع فى الشرك» فى السوق. كان نتاج هذه الغارات يتخذ شكلا مشروعا: «خالتى أهدتنى إياه». «لقد التقيت باحد معارفى». ولم أكن أحاول ان أجرح شعور المنتفع منهم باظهار شكوك دنيئة. فقد كنت أصدق دائما تفسيراتهم وتبريراتهم. وماذا كان سيفيدنى ارتيابى وحذرى؟ فاولاد الاصلاحية كانوا وسخى الجسم جياع البطن يبحثون دائما عن اسباب معاشهم وكانوا يبدون لى كأنهم تربة تكفر باى وعظ اخلاقى يتناول تفاهات: كسرقة البسكويت من السوق أو زوج من النعال.

كان فى غمرة بؤسنا المثير للجنون ناحية حسنة

تنقصنا دائما فيما بعد؛ فقد كنا نحن المربين باجمعنا
جياعا ايضا، فقراء؛ ففى اثناء ذلك لم يكد يدفع
لنا أى أجر فكنا نقتصر على «المرقة» نفسها وكانت
ثيابنا تكاد تكون ممزقة ايضا لا تختلف عن ثياب الاولاد.
فقد ظل حذائى بدون نعل طيلة الشتاء وكانت قطعة
القماش تخرج منها دائما. وكانت ايكاتيرينا غريغوريفنا
وحدها دائما متأنقة تبرز بفساطينها المغسولة غسلا جيدا
فتزهو بها.

٤. عمليات داخلية

اختفت فى شهر شباط من جارورى رزمة من الأوراق
المالية كانت تعادل راتبى لمدة ستة أشهر تقريبا.

وقد كانت غرفتى فى ذلك الوقت تقوم مقام دائرة
وغرفة للمعلمين والمحاسبة والخزينة اذ اننى كنت أقوم
بكل هذه الأعمال معا. وقد اختفت حزمة هذه الاوراق

المالية الجديدة من جارورى المغلق بالمفتاح دونما أي إشعار بالكسر.

وفى المساء قصصت الأمر على الاولاد وطلبت منهم اعادة المال. ولم يكن فى وسعى ان أبرهن على السرقة فكان فى وسع المرء ان يتهمنى بسهولة بالتبذير وتبديد المال. فأصغوا اليّ بهيئة كئيبة ثم تفرقوا. وبعد الاجتماع بينما كنت ذاهبا الى منزلى عبر الباحة المظلمة، لحق بي اثنان وهما: تارانيتز وغود. وقد كان هذا الولد الأخير صغيرا وخفيفا.

وهمس تارانيتز قائلا:

ــ نحن نعلم من أخذ المال. إلا اننا لا نستطيع ان نقوله على ملأ من الناس؛ ولا نعرف اين خبأه. فاذا وشينا به وذكرنا اسمه فانه سوف يهرب مع الدارهم.

ــ من هو؟

ــ انه احدهم...

ونظر غود الى تارانيتز شزرا ولم يكن على ما يبدو يستحسن كل الاستحسان سياسته، فغمغم قائلا:

ـ يجب ان نوسعه ضربا ويكفي الحديث...

فقال تارانيتز وقد التفت صوبه:

ـ ومن سيوسعه ضربا؟ انت؟ فهو سيأخذك على هذه الشاكلة الى العمل...

واقترحت عليهما قائلا:

ـ قولا لي من هو، وانا سأحدثه.

ـ لا، ليس هكذا.

وأصر تارانيتز على الحفاظ على السر، فأبديت عدم اكتراثي قائلا:

ـ كما تريد.

وذهبت لأنام.

وفي الصباح وجد غود المال في الاصطبل، فقد رمى فيه أحدهم الاوراق المالية فتطايرت في كل جهة؛ فاسرع غود إليّ مضطربا من الفرح ويداه مليئتان بالاوراق المدعوكة بشكل مختلط.

كان يسير في الاصلاحية وهو يرقص فرحا فابتهج الأولاد وسارعوا لرؤيتي في الغرفة.

وكان تارانيتز يتجول وحده معتدا رافع الرأس فاستغنيت عن استجوابه وغوذ ايضا، وذلك عما فعلاه بعد حديثنا.

وبعد يومين كسر احدهم قفل المستودع وسرق منه عدة أرطال من الشحم وهى كل مؤونتنا من الدهن؛ واخذ القفل كذلك. وبعد يوم خلعت نافذة المستودع واختفت منها السكاكر المخصصة لعيد ثورة شباط — فبراير — وعدة علب من شحم العربات وهو نقد ثمين للتبادل.

وكان كالينا ايفانوفيتش قد هزل جسمه من هذا؛ فكان يصوب وجهه الممتقع تجاه كل واحد من اولاد الاصلاحية، وينفخ فى عينيه دخان تبغه الحاد ويوبخه:

— ولكن فكر فقط! كل هذا لكم ايها الكلاب الملاعين؛ ثم تسرقون أنفسكم بأنفسكم. ايها الطفيليون!

وكان تارانيتز يعلم اكثر من غيره عن ذلك؛ وظل مع ذلك يتهرب من التصريح؛ ولسبب ما لم يكن يرغب فى ايضاح هذا الأمر؛ وكان نزلاء الاصلاحية يتحدثون

عن ذلك حديثا كثيرا، ولكنهم كان يهتمون له اهتماما رياضيا صرفا. ولم يكونوا يودون ابدا أن يأخذوا بوجهة النظر هذه وهي انهم هم الذين تسرق اغراضهم.

وصرخت في المهجع صراخ الحانق:

ـ ماذا انتم إذن؟ أانتم اناس أم...

وسمعت من ابعد سرير صوتا يقول:

ـ نحن لصوص.

ـ لصوص محترفون!..

ـ ايها الكذابون! انتم لصوص محترفون! انتم نشالون صغار تسرقون بعضكم بعضا؛ لم يبق امامكم إلا أن تستغنوا عن الشحم؛ والآن: هذا ماذا ... فلم يبق لأجل العيد سكاكر؛ وما من امرئ سيعطينا شيئا. حسبكم أن تموتوا جوعا.

ـ وما الذي يمكن ان نعمله يا انطون سيميونوفيتش؛ نحن لا نعلم من قام بهذا؛ فانت لا تعرفه ونحن كذلك!...

كنت قد ادركت منذ البداية ان كلامي لا جدوى منه. فالسرقة يقترفها احد الكبار والجميع يخافونه.

وذهبت في اليوم التالى بالعربة مع اثنين من الاولاد لنلتمس منحة جديدة من الشحم ومكثنا فى المدينة عدة ايام؛ غير اننا عدنا ومعنا البضاعة. وقد أعطينا حصة من السكاكر ايضا بعد أن أوخذنا على اننا لم نحسن الحفاظ على مالنا. وكنا فى الأمسيات نقص حكايات مفصلة عن ضائقاتنا. واخيرا نقلنا الشحم إلى الاصلاحية ووضعناه فى المستودع. فسرق من أول ليلة.

وقد سررت حتى من هذا الحادث. وكنت انتظر اذ ذاك من المصلحة الجماعية؛ ومن روح الجماعة ان تتكلم اخيرا، وتحمل الجميع على أن يعنوا بمسألة السرقة؛ وحزن فى الواقع جميع الاولاد ولكن ما من أحد منهم قد تحمس لها؛ وحالما كان يمر اول انطباع ويمضى تأثيره؛ كان الاهتمام الرياضى يعود ليستولى على كل واحد من جديد: من ذا الذى يقوم بهذا العمل بمثل هذه المهارة؟

وانقضت عدة ايام؛ فاختفى طوق الحصان من الاصطبل؛ فلم نعد نستطيع حتى ان نذهب الى المدينة؛

فكان علينا أن نستجدي القرية ونقف على كل باب طالبين ان نعار طوقا لمدة قليلة.

وأصبحت السرقات شيئا يوميا. ففي كل صباح كنا نكتشف شيئا ناقصا من هذا المكان او ذاك: فأس؛ أو منشار أو صحن أو شرشف أو قطعة من طقم الحصان أو غلات غذائية... فحاولت ان لا انام الليل فاجوس الباحة بمسدسي فما استطعت، بالطبع، ان اقوم بذلك اكثر من مرتين او ثلاث. وطلبت من اوسيبوف أن يقوم بالحراسة ليلا ولكنه ارتاع جدا فلم أكلمه بهذا ثانية.

وقد كان كثير من الاولاد موضع ارتيابي والشبهة مني؛ وكان من جملتهم غود وتارانيتز؛ ولم يكن لدي أي برهان أو دليل مع ذلك؛ فكنت مضطرا الى الاحتفاظ بشكوكي لنفسي.

وكان زادوروف يقهقه ضاحكا ويمزح قائلا:

— والآن يا أنطون سيميونوفيتش؛ كنت تعتقد ان اصلاحية العمل ليست الا للعمل دون ان يكون فيها

شيء من الفرحة؟ تأن... فلم ينجل كل شيء بعد ولم ير؛ ولكن ماذا ستعمل بمن ستمسك به؟

ـ سأودعه السجن.

ـ هذا ليس بذي شأن أيضا. حسبت أنك ستضربه ضربا مبرحا.

وخرج ذات ليلة الى الباحة مرتديا كامل ثيابه.

ـ سأبقى معك قليلا.

ـ خذ حذرك؛ ففي وسع اللصوص أن ينقضوا عليك.

ـ لا. انهم يعرفون انك تقوم بالحراسة هذا المساء، ومن المؤكد أنهم لن يأتوا هذه الليلة؛ فما هو الشيء المريع إذن ؟

ـ اعترف مع ذلك يا زادوروف أتخاف منهم؟

ـ ممن ؟ من اللصوص؟ طبعا أخاف منهم؛ ولكنا لسنا بصدد هذا. أتقبل يا انطون سيميونوفيتش إن الإخبار عنهم مع ذلك ليس أمرا مستحسنا.

ـ ومع ذلك فان السرقة تحيق بكم..

ـ انا؟ وما دخلى هنا؟ فانا لا املك شيئا هنا.

ـ ومع ذلك فانت تعيش هنا.

ـ هذه حياة يا انطون سيميونوفيتش! أهذه حياة؟ انك لن تصل إلى جدوى بهذه الاصلاحية. انك تتعب نفسك بلا طائل. لسوف ترى. سوف يسرقون كل شئ ثم يلوذون بالفرار؛ فمن المستحسن أن تعين حارسين شجاعين وأن تعطيهما بارودتين.

ـ لا. لن أعين حراسا ولن أوزع بواريد.

فقال زادوروف مندهشا:

ـ ولماذا؟

ـ تجب مكافأة هؤلاء الأشخاص على حين نحن فقراء جدا ولعل الأكثر أهمية: انه ينبغى لكم أن تكونوا الرؤساء.

كان كثير من نزلاء الاصلاحية يعبرون عن رأيهم بأنه يجب أن يقوم حراس بالحراسة. وكان هذا موضوعا لكل المناقشة فى المهجع.

أما انطون براتشنكو وهو أفضل ممثل لمجموعتنا الثانية من النزلاء فقد كان يبرهن قائلا :

ـ اذا قام حارس فما من امرئ سيأتي للسرقة ؛ حتى ولو جاء فمن الممكن ان ينال نصيبه فيوضع في اليته كمية من الملح ؛ فعندما تظل اليته تحرقه طيلة شهر، فلن يخاطر بنفسه ابدا.

وكان يعارضه كوستيا فيتكوفسكى ؛ وهو ولد جميل اختص «بحرية» بتفتيش البيوت بوساطة الاوامر المزورة ؛ ففى مثل هذه الأعمال كان ينفرد بالادوار الثانوية تاركا الأدوار الرئيسية للكبار. لم يكن كوستيا نفسه يسرق شيئا ابدا ـ وقد أثبت التحقيق هذا ـ ولكنه كان مولعا فقط بالناحية الجمالية لهذه العمليات. وكان يبدى احتقارا للسارقين دائما. وقد لاحظت منذ امد بعيد طبيعته الدقيقة المعقدة. كنت أُدهش لا سيما من رؤيته يتفاهم بسهولة مع أشرس رفاقه، ومن النفوذ الذى كان له على الجميع فى القضايا السياسية. وقد كان كوستيا يبرهن قائلا :

— انطون سيميونوفيتش على حق؛ ولا حاجة للحراس هنا. اننا ما زلنا لا نفهم هذا الآن؛ ولكننا لن نلبث طويلا حتى نفهم جميعا انه لا ينبغي ان تكون السرقة في الاصلاحية. ومع ذلك فهناك كثير قد فهموا هذا. لسوف نقوم بالحراسة بأنفسنا عما قريب. واتجه فجأة الى بورون قائلا: أليس هذا حقا يا بورون؟

فقال بورون:

— إذا كان يجب ان نقوم بالحراسة فنكون حراسا فليكن هذا...

وتركت وكيلة الخرج عملها في الاصلاحية بعد ما تبلغت نقلها الى احد المستشفيات. وفي ذات يوم من ايام الأحد قدم الجواد «الصبي» الى اسفل درجها وأخذ جميع اصدقائها وضيوفها على الشاي ينقلون الى العربة الزلاقة اكياس سفرها الكثيرة جدا. ثم ركبت تلك العجوز الصغيرة الطيبة فوق متاعها وأخذت تتمايل بهدوء فوقه وهي في طريقها الى حياتها الجديدة تسير بالسرعة المعتادة: كيلومتران في الساعة.

وعاد «الصبي» متأخرا ولكنه كان جالبا معه الجدة التي دخلت علي بهجمة وهي معولة منتحبة: لقد سلب متاعها كله. ولم يكن اصدقاؤها ومعاونوها لينقلوا كل صناديقها الصغيرة وحقائبها واكياسها الى العربة؛ بل نقلوها الى مكان آخر. انه لسلب رذيل فايقظت على الفور كالينا ايفانوفيتش وزادوزوف وتارانيتز وقمنا بتفتيش عام في جميع ارجاء الاصلاحية. لقد سرقت منها اشياء كثيرة جدا حتى انه لم يكن لدى اللصوص وقت ليخفوا كل شيء بشكل مناسب. واكتشفت جميع كنوز الوكيلة واستعيدت من الأدغال وسقوف السقائف وتحت الدرج أو تحت الأسرة ووراء الخزانات: لقد كانت العجوز غنية حقا: فقد عثرنا على حوالي اثني عشر غطاء جديداً من اغطية المائدة؛ وكمية من الشراشف والمناشف والملاعق الفضية وآنية صغيرة وسوار وأقراط وكثير من الأشياء الأخرى.

كانت تبكي في غرفتي التي كانت تمتلىء، شيئا فشيئا بالموقوفين الذين كانوا اصدقاءها وأصحابها القدماء.

وطفق الأولاد ينكرون ولكنهم كان يتملكهم الذعر من صراخي، ثم انكشف الأمر وانجلي الغبار وبانت الحقيقة: فاصدقاء العجوز الصغيرة لم يكونوا هم المذنبون الرئيسيون فقد اكتفوا ببعض التذكارات كسرقة منشفة أو إناء للسكر. وظهر أن المدبر الاكبر لهذا العمل كان بورون وقد كان اكتشافه مثيرا لدهشة الكثيرين ولي ايضا. كان بورون يبدو لي منذ اليوم الاول رزينا اكثر من غيره؛ لطيفا متحفظا فى الوقت ذاته واكثر الجميع اجتهادا فى المدرسة. وقد ادهشتنى جدا سعة عملياته وثباتها فكان قد أخفى حزما كاملة من اغراض العجوز ولم يكن ليثير اى شك بان جميع السرقات التى سبق أن ارتكبت فى الاصلاحية كانت من صنع يده.

لقد توصلت اخيرا إلى جذر الشر الحقيقي ودعوت بورون ليمثل امام المحكمة الشعبية وهي اول محاكمة فى تاريخ اصلاحيتنا.

وأخذ القضاة اماكنهم على الأسرة وطاولات المهجع وهم سود من الوساخة وبأسمال بالية. وكان مصباح

الكاز الصغير يضيئ الوجوه المضطربة لنزلاء الاصلاحية وكذلك الوجه الممتقع لبورون الثقيل والغليظ ذي العنق السمينة والذى كان يشبه رئيس الولايات المتحدة الامريكية، ماك كينلى.

وقد وجدت نبرات حانقة شديدة لتعريف الجريمة إلى الاولاد: ان سلب امرأة عجوز سعادتها كلها تقوم على هذه الثياب العتيقة، ان سلبها هذا من قبل اناس لم يحبهم احد اكثر منها؛ ناهيك عن انها كانت تخف لمساعدتكم؛ انه لعمل غير انسانى فى حد ذاته وان مرتكبه بدا أحط من الثعبان واكثر دناءة من الدودة. ينبغى للمرء ان يحترم نفسه بنفسه وان يبدو قويا معتزا بذاته وان لا ينتزع من العجائز المسكينات آخر أسمالهن البالية.

وسواء ان فصاحتى اثرت تأثيرا بليغا فيهم أو انهم كانوا متأثرين من واقع الأمر فقد انقضوا على بورون بقضهم وقضيضهم وهم محتدون. أما براتشنكو الصغير ذو الشعر المشعث فقد مد يديه صوب بورون قائلا:

ـ والآن ما لديك من جواب؟ يجب أن تزج فى السجن. انت الذى موتنا من الجوع وانت الذى اخذ مال أنطون سيميونوفيتش.

وشرع بورون فجأة يحتج:

ـ أنا الذى أخذ مال انطون سيميونوفيتش؟ هات دليلا على ذلك!

ـ سأقدم الدليل إليك.

ـ هات!

ـ انت تقول انك لست الذى اخذ المال؟ ليس أنت، أليس كذلك؟

ـ ولم يكون هذا أنا؟

ـ انه أنت والله.

ـ أأنا أخذت مال انطون سيميونوفيتش؟ ومن يقدم الدليل على ذلك؟

وارتفع صوت تارانيتز من ورائه قائلا:

ـ لنا لدي الدليل.

وانبهت بورون وصعق ثم التفت صوب تارانيتز وكان يود ان يقول شيئا ثم قام بحركة بيده.

ـ حسنا اذا كان هذا انا، ولنفرض انا؛ أولم أعده؟

ورد عليه الاولاد بانفجار من الضحك غير منتظر فقد تمتعوا كثيرا بهذه المحادثة الجميلة وكان تارانيتز يبدو بمظهر البطل وتقدم الى الامام:

ـ ولكن لا يجب ان يطرد؛ فمن منا بلا خطيئة؟ إلا انه لا بد من لطمه على وجهه لطمة قوية.

وسكت الجميع. واتجه بورون بنظره صوب وجه تارانيتز المجدور:

ـ ان وجهي لن تطوله يدك؛ وما الذي اثار فيك الحمية؟ لن تصبح بهذا مديرا للاصلاحية. في وسع انطون ان يضربني اذا كان هذا ضروريا؛ ولكن انت... أهذا يعنيك؟

ونط فيتكوفسكي من مكانه:

ــ كيف اذا «كان هذا يعنينا» قولوا ايها الاولاد: أهذا يعنينا أم لا؟

وصرخ الجميع:

ــ هذا يعنينا، وسوف نؤدبك أحسن قليلا من انطون.

وانقض احدهم على بورون. واخذ براتشنكو يلوح بيده في وجه بورون وهو يجأر صارخا:

ــ يجب ان تجلد... اجل... يجب ان تجلد!

وهمس زادوروف في اذني قائلا:

ــ خذه والا فسوف يعدمونه بالضرب.

وسحبت براتشنكو بعيدا عن بورون ودفع زادوروف الى الوراء اثنين او ثلاثة من المهاجمين واوقفنا هذا الصخب بشق النفس.

وصرخ براتشنكو:

ــ فليتكلم بورون! يجب ان يتكلم!

فخفض بورون رأسه قائلا:

ــ ليس لدي ما اقوله. انكم جميعا على حق. فاتركوني مع انطون سيميونوفيتش ليعاقبني كيف يشاء.

وساد الصمت. وذهبت الى الباب مخافة ان يطغى الحنق الذى يغلى فى صدري غليانا عنيفا؛ وابتعد الاولاد الى الوراء ليسمحوا لي ولبورون ان نمر معاً.

واجتزنا بصمت الباحة المظلمة عبر خنادق من الثلج؛ كنت امامه وهو فى الخلف.

كان اشمئزاز رهيب يملأ نفسي. وكان بورون يبدو لي أوسخ ما يمكن ان تعطيه قاذورات البشرية. ولم اكن أعرف ماذا أصنع به. وقع فى الاصلاحية بصفته عضو عصابة للصوص أعدم بالرصاص عدد كبير من اعضائها الكبار وقد كان له من العمر سبعة عشر عاما.

ووقف بورون قرب الباب دون أن ينبس ببنت شفة؛ وجلست الى مكتبى وكنت اجد مشقة فى تمالك نفسى عن أن أرميه بشئ ثقيل لكى اختم الحديث على هذه الشاكلة.

واخيرا رفع بورون رأسه وحدق فى عيني وقال ببطء وهو يشد على كل كلمة ويضبط النشيج بصعوبة:

— لن... أ...سرق أ...بدأ... بعد... اليوم.

ــ انت تكذب! فقد سبق لك ان قطعت على نفسك هذا العهد أمام اللجنة.

ــ كان ذلك للجنة. ولكنه الآن لك. عاقبني كما تريد... ولكن لا تطردني من الاصلاحية.

ــ وما الذى يعجبك هنا؟

ــ انا مغتبط هنا. فهنا يدرس المرء. اريد أن أدرس؛ لقد سرقت لأننى كنت دائما جائعا.

ــ حسنا ستبقى ثلاثة ايام سجينا طعامك الخبز وشرابك الماء. وحذار ان تلمس تارانيتز.

ــ حسنا.

وظل بورون ثلاثة ايام بكاملها مسجونا فى حجرة صغيرة مجاورة للمهجع، وهى حجرة المراقبين فى الاصلاحية القديمة. ولم أقفلها لأنه كان قد اعطانى عهد شرف بأن لا يخرج بدون إذنى. وقد قدمت إليه فى اليوم الأول خبزا وماء ولكننى أشفقت عليه فى اليوم الثانى؛ فسمحت بأن يقدم إليه طعامه. ورفض بورون تناوله بإباء غير أنني صرخت فيه:

ـ أيها المراوغ تريد كذلك أن تتصنع وتتآنف!
فابتسم ولوى كتفيه ثم تناول ملعقته...
لقد وفى بورون بعهده فلم يعد يسرق شيئا ابدا لا في الاصلاحية ولا في أي مكان آخر.

٥. اعمال في حقل صالح الدولة

في الوقت الذى كان فيه نزلاؤنا لا يشعرون بغير عدم الاكتراث تجاه املاك اصلاحيتنا؛ وجدت قوى خارجية اهتمت بها أعظم اهتمام.
كانت القوى الرئيسية هذه تقوم على الطريق الرئيسى إلى خاركوف. وكانت لا تمر ليلة دون أن يسلب احد الاشخاص على هذه الطريق؛ وكانت قافلة من عربات القرويين باكملها توقف بطلقة نارية من بارودة وبدون ان يضيع الوقت بالكلام كان اللصوص يدسون ايديهم المجردة من السلاح في صدور النساء الجالسات

فى العربات بينما أزواجهن المتحيرون جدا يضربون بعصا السوط ساق جزماتهم وقد تملكتهم الدهشة:

— كيف ارتابوا بذلك؟ لقد خبئ المال فى حرز أمين فى صدور زوجاتنا؛ ولكن أتصدقون هذا؟ انهم هم ايضا اخذوا يبحثون عنه هناك.

ان أعمال السلب الجماعية هذه — إن صح التعبير — ما كانت تصل الى سفك الدماء الا نادرا جدا. وبعد ان يستعيد الفلاحون صوابهم ويبقوا فى اماكنهم طيلة الفترة التى يحددها لهم اللصوص كانوا يأتون الى الاصلاحية ليقوموا بوصف حي للحوادث. كنت اجمع كتائب جنودى مسلحين بالأوتاد وآخذ مسدسى وننطلق الى الطريق ونطوف فى الغابة زمنا طويلا؛ على أن النجاح لم يكن ليكلل مساعينا فى البحث والتفتيش عن اللصوص إلا مرة واحدة: فعلى بعد خمسمئة متر من الطريق عثرنا على جماعة من الافراد كانت تختبئ فى ثلوج الغابة؛ فأجابوا على صراخ أولادنا بعيار ناري وتشتتوا ايدى سبأ مولين اذيالهم للفرار. على اننا نجحنا مع ذلك بالامساك

باحدهم فسقناه الى الاصلاحية لكننا لم نجد معه بارودة ولا شيئا مسروقا وكان ينكر كل شيء انكارا مطلقا. وحالما سلمناه الى قلم المباحث فى المقاطعة تعرفوا على هويته بانه قاطع طريق معروف، واوقفت على اثر ذلك العصابة كلها. وقد خصت اللجنة التنفيذية فى بولتافا اصلاحية غوركي بشهادة عرفان الجميل.

على ان الهجمات على الطريق الرئيسى لم تنقطع. وفى آخر الشتاء اخذ أولادنا يعثرون على آثار القتل. وفى ذات مرة وجدنا يدا تبدو من خلال الثلج بين اشجار الصنوبر، فنقبنا عنها فرأينا امرأة مقتولة برصاصة فى وجهها؛ وفى مكان آخر بين الادغال قريب كل القرب من الطريق وجدنا رجلا بلباس سائق عربة صدعت جمجمته. وذات صباح عندما استيقظنا يا هول ما رأينا! رجلين مشنوقين ينظران الينا من حافة الغابة. ففى طيلة اليومين اللذين انصرما حتى وصول قاضي التحقيق، ظلا معلقين يتأملان حياة الاصلاحية بعينيهما المحملقتين.

كان نزلاء الاصلاحية يتتبعون كل هذه الأحداث دونما أي خوف أو وجل؛ ولكن باهتمام حقيقى. وفى الربيع عندما ذاب الثلج اخذوا يبحثون عن الجماجم التى نهشتها الثعالب فيضعونها بروؤس عصيهم ويحملونها ليرعبوا ليديا بيتروفنا. ولم يكن المربون بعيدين بعض البعد عن غمرة الذعر؛ فقد كانوا يمضون لياليهم مضطربين وهم ينتظرون بأوهامهم من لحظة الى أخرى رؤية عصابة مجرمة تقتحم الاصلاحية وتبدأ بذبحهم. وكان اكثرهم فزعا أسرة اوسيبوف اذ انه كما يشاع كان يوجد عندهما ما يستحق السلب...

وفى أواخر شباط — فبراير — بينما كانت عربتنا عائدة من المدينة تمشي مشي السلحفاة أوقفها اللصوص ذات مساء في آخر منعطف قبل الاصلاحية؛ وكانت محملة بالبرغل والسكر الناعم؛ وهى غلات لا أدرى لماذا لا تهم اللصوص. وكان كالينا ايفانوفيتش لا يحمل شيئا ذا قيمة ما عدا غليونه؛ وقد أثار هذا الأمر بحق حفيظة اللصوص، كيف لا يحمل شيئا ثمينا معه؛

فضربوه على رأسه فتدحرج على الثلوج حيث ظل راقداً حتى تواروا عن الانظار؛ اما غود وهو موكل إليه على الدوام العناية بالجواد «الصبى»؛ فقد شهد الحادث ببساطة؛ فحينما عادا إلى الاصلاحية تدفق كلاهما بحكايات طويلة؛ فقام كالينا ايفانوفيتش بوصفه للناحية الدراماتيكية أما غود فقام بوصفه للناحية الهزلية المضحكة. ثم اتخذ القرار التالى بالاجماع، وهو انه يجب ارسال كتيبة من نزلاء الاصلاحية لاستقبال العربة دائما.

فسلكنا هذا السبيل عامين؛ وكانت هذه الحملات تدعى عندنا بعبارات عسكرية:

«احتلال الطريق».

كنا نضع فى ساحة المعركة فرقة مؤلفة تقريبا من عشرة اشخاص؛ وكنت اشترك بعض الاحيان فى الحملات بسبب مسدسى. اذ لم يكن فى مستطاعى أن أسلمه لكل ولد منهم؛ وكانت فرقتنا ضعيفة بدون هذا السلاح؛ فلم يكن هناك غير زادوروف الذى كنت

أسلمه إياه بعض الأحيان فكان يعلقه بفخار فوق أطماره البالية.

ان عمل الحراسة على الطريق الرئيسي كان من امتع الاعمال. فقد كنا نأخذ أهبة الاستعداد على طول الطريق بمسافة كيلومتر ونصف ابتداء من جسر النهر حتى المنعطف الى الاصلاحية. وقد كان اولادنا يتجمدون من شدة البرد؛ فيقفزون على الثلج وهم يتنادون لكيلا ينقطع الاتصال فيما بينهم وكانت هيئتهم تنبئ بموت أكيد في خاطر المسافر المتأخر عن الركب. وكان الفلاحون العائدون من المدينة يضربون بملء ذراعهم خيولهم وينطلقون تعدو خيولهم عدوا سريعا دون أن يلقوا كلمة، هاربين من هذه الأشباح التي كانت تتعاقب تعاقبا منتظما؛ فتمثل مشهدا من اكثر المشاهد اجراما. وكان المشرفون على شؤون السوفخوزات وممثلو السلطات يمرون منطلقين في عرباتهم وهم مصوبون فوهات بواريدهم الى اولاد الاصلاحية. أما الساعون على اقدامهم فكانوا يقفون قرب الجسر ينتظرون رفاقا جددا يصطحبونهم...

ولم يقترف أولاد الاصلاحية أي عمل مسيء حينما اكون هناك، بيد أنهم ما كانوا ليحرموا انفسهم من بعض المعايثات أثناء غيابى حتى أن زادوروف أبى اخذ المسدس بعد حين وطلب منى ان أجيء الزاميا وأقف معهم على الطريق. وبهذا أصبحت اخرج مع الكتيبة حينما تمضى الى الطريق، ولكننى لم أقلل من تسليم المسدس الى زادوروف كيلا أحرمه من هذه المتعة التى استحقها.

وعندما كان يظهر جوادنا «الصبى» كنا نستقبله بالصراخ:

ــ قف! ارفع يديك!

ولكن كالينا ايفانوفيتش كان يكتفى بالابتسام ويأخذ باشعال غليونه بتحمس خاص. كانت هذه العملية تشغله حتى وصوله إلى الاصلاحية اذ ان هذه كانت حالة استعمال الصيغة الأوكرانية المعروفة جيدا:

ــ سرت سبع فراسخ وانا اقدح الزناد وأنا لا أعرف متى بدأ هذا.

وكانت كتيبتنا تركب بالتدريج متناوبة وراء الجواد «الصبي» ويسلك هذا الجيش الطريق إلى الاصلاحية بفرح ومرح وهم يستفهمون من كالينا ايفانوفيتش عن مختلف أنباء المؤونة الجديدة.

وقد انتقلنا في هذا الشتاء نفسه الى عمليات أخرى متجاوزين في هذه المرة نطاق الاصلاحية ومقدمين خدمات لصالح الدولة العام. فقد جاءنا حارس للغابات يطلب منا السهر على الغابة ومراقبتها: فقد كان الناس يقطعون كثيرا وما كان ليكفي للعمل مع رجاله.

لقد رفعت حراسة الغابة العائدة للدولة شأننا في اعيننا انفسنا وقدمت إلينا عملاً ممتعاً جداً، واكتسبتنا أخيراً امتيازات عظيمة.

وفي ذات ليلة كان الفجر قريب الظهور، ولكن الكون ما يزال يخيم عليه الظلام. واذا بنافذتي تنقر نقرة وتوقظني ونظرت... فرأيت وراء الزجاج أنفاً افطس وشعرا مشعثا يرتسم عبر تخاريم الصقيع.

ــ ماذا يوجد؟

ـ يا أنطون سيميونوفيتش يجرى قطع فى الغابة!
وأشعلت السراج وارتديت ثيابى على عجل وأخذت مسدسى وجفتا وخرجت؛ فكان ينتظرنى عند الدرج اثنان من اكبر هواة الجولات الليلية؛ بورون وشيلابوتين؛ وهو مخلوق صغير كل الصغر برىء ساذج.
واخذ بورون مني الجفت ودخلنا الغابة.
ـ اين؟
ـ ولكن اصغ السمع...
فوقفنا؛ ولم أسمع فى أول الأمر شيئا ثم أخذت أميز وقع فأس حطاب يحتطب، هذا الوقع الذى لا يكاد يدرك بين اصوات الغابات ونسائم تنفسنا. فتقدمنا ونحن منحنو القامة، فكانت اغصان شجيرات الصنوبر تخدش وجوهنا وتنتزع نظارتى من على أنفي؛ وترشنا بالثلج. وكانت ضربات الفأس تقف فجأة بعض الاحيان؛ فنضل الطريق وننتظر متريثين ثم تعاود اقوى وأقرب.
كان من الواجب علينا أن نبلغ السارق دون أن يلاحظ شيئا كيلا نحمله على ان يولي الادبار. فمشى بورون

مشية خفيفة متأرجحة كمشية الدب أما شيلابوتين الصغير فكان يجدل شريط سيره وراءه ملفوفا بأطماره. وأما انا فقد كنت اسير في المؤخرة.

ها نحن قد بلغنا الغاية وكمنا وراء جذع شجرة الصنوبر لنرى: كانت شجرة جميلة فارعة ترتعد؛ وكان يرى في اسفلها شبحاً مشدود الحقو؛ كان الرجل يضرب بعض الضربات الوجلة غير المركزة؛ وينتصب ليلقى نظرة الى ما حوله ثم ينكب على عمله. وعلى بعد خمس خطوات منه كان بورون يده على الجفت وفوهته في الهواء ينظر إليّ وقد حبس انفاسه. أما شيلابوتين فكان مختبئا معي يهمس وهو مائل على كتفي:

ــ هيا؟ يمكن؟

فاشرت برأسي؛ وجر شيلابوتين بورون من كمه.

فانفجرت الطلقة كأنها انفجار رهيب ودوت في ارجاء الغابة. فتهاوى الرجل ذو الفأس جالسا بتأثير الفعل المنعكس. وساد الصمت فاقتربنا منه. كان

شيلابوتين يعرف ما يجب عليه ان يصنع. فالفأس فى يده. وألقى بورون التحية بمرح:

– أه... أه... موسي كاربوفيتش... صباح الخير.

وأخذ يربت على كتفه ولكن موسي كاربوفيتش لم يكن في وسعه ان يرد على التحية. كان يضطرب مرتجفا ارتجافات صغيرة وينفض بشكل آلي الثلج من على كمه الأيسر.

وسألت:

– هل الجواد بعيد؟

نظر موسي كاربوفيتش ساكتا لا يحير جوابا ولكن بورون اجاب عنه:

– ها هو الجواد! هيه... من هناك؟ التفت من هنا!

فرأيت بين تشابك اشجار الصنوبر رأس جواد وقوس جراري عربة.

وأمسك بورون بذراع موسي كاربوفيتش، قائلا:

– يا موسي كاربوفيتش كلف نفسك العناء للصعود فالعربة قد وصلت.

واخذ المخاطب أخيراً يبدى علائم الحياة؛ فرفع قبعته ومرر يده في شعره وهمس وهو لا ينظر إلى أحد:

— اوه... يا ربى... يا إلهي!

واتجهنا صوب العربة الزلاقة.

كان السير بطيئا وكان ركبنا يتبع أثرا لا يكاديرى فى الثلج العميق المتراكم؛ وكان ولد فى الرابعة عشرة من عمره على رأسه قبعة كبيرة وبرجليه جزمة يحث الجواد الصغير بطقطقات شفتيه وهو يهز هزا حزينا عنان الجواد وكان مقطبا لا تنفرج أساريره. وكنا جميعا سكوتا.

ووصلنا الى مخرج الغابة فأخذ بورون بيديه عنان الجواد.

— ليس هذا هو الطريق، اذا رجعت بحمولة فالطريق من هنا ولكن اذا رجعت بوالدك فمن هناك...

وسأل الولد:

الى الاصلاحية؟ — غير ان بورون لم يرجع له العنان ولفت الجواد إلى طريقنا.

وبدأ النور يبزغ.

وأوقف موسي كاربوفيتش فجأة الجواد من فوق ذراع بورون ورفع بيده الأخرى قبعته.

ــ اسمح لي يا أنطون سيميونوفيتش أن أذهب. هذه اول مرة.. وليس لدينا حطب... اسمح لي!

كان بورون منزعجا فهز له يده ليرخي العنان ولكن دون ان يدفع الجواد. كان ينتظر ما سأقوله:

فقلت:

ــ لا.. يا موسي كاربوفيتش، لا سبيل الى ذلك، فلا بد من اجراء ضبط بالحادث فهذا عمل يخص الدولة وانت تعرفه جيدا.

ــ ليست هذه أول مرة ابدا. ــ وارتفع صوت شيلا بوتين صوب مطلع الفجر. ــ ليست هذه الأولى وانما الثالثة؛ وقد عثرنا على صاحبك فاسيلي اول الأمر وبعدئذ...

وقطع بورون بصوته المبحوح ذلك النغم الصافي:

ــ أنبقى هنا؟ وانت يا اندريه إذهب الى بيتك فليس لديك أمر ذو شأن لتقوم به هناك.

اذهب لتقول لأملك إن زوجها أمسك به فلتحضر له الزاد.

وقفز اندريه من الغربة مذعورا وطار إلى القرية، وتابعنا طريقنا، فاستقبلنا فريق من الاولاد عند مدخل الاصلاحية قائلين:

ــ أوه... كنا نظن انكم هلكتم؛ فكنا نفكر بالذهاب لنجدتكم.

فضحك بو رون قائلا:

ــ ان العملية قد تمت بنجاح عجيب.

وتجمع جمهور في غرفتي وجلس موسي كاربوفيتش منهارا على كرسي قبالتى وكان بورون على النافذة مع بندقيته. أما شيلابوتين فكان يهمس إلى رفاقه بالقصة المرعبة لهذه الليلة. وجلس ولدان على سريرى وجلس الآخرون على المقاعد يراقبون باهتمام اجراءات ضبط الحادث.

كان ضبطا مفصلا تفصيلا رهيبا لظروف الحادث.

ـ انت تملك قطعة من الأرض مساحتها ١٢ هكتارا وثلاثة احصنة؟

فقال موسى كاربوفيتش وهو يئن:

ـ كيف أملك خيولا؟ ليس لدي غير مهر صغير عمره سنتان.

فاشار بورون وهو يربت بلطف على كتف الفلاح:

ـ ثلاثة... ثلاثة.

فاستمررت بالكتابة:

ـ «... وعرض الجذع ٢٧ سنتيمترا...»

فبسط موسى كاربوفيتش ذراعه قائلا:

ـ ماذا تقول؟ الله يسامحك.. يا انطون سيميونوفيتش. الشجرة التي كنت أقطعها عرضها ٢٧ سنتيمترا؟ لا يوجد هناك حتى من ذات ١٨ سنتيمترا.

وقطع شيلابوتين فجأة تمتمته الهامسة ليشير بيديه الى ما يعادل نصف متر. وضحك بصفاقة في وجه موسى كاربوفيتش.

ـ بمثل هذا القدر؟ بمثل هذا القدر؟ أليس حقا؟ أليس حقا؟

والتفت الآخر كيلا يرى هذه الضحكة؛ وتتبع مذعنا حركات ريشتي.

أنجز الضبط؛ فاستأذن موسى كاربوفيتش بهيئة متكدرة وهو يمد يده الي والى بورون كذلك باعتباره أكبر الفرقة سنا.

ــ انكم مخطئون، ايها الاولاد. يجب ان يعيش جميع الناس.

وانحنى بورون له احتراما قائلا:

ــ لا.. لا شيء يستحق الذكر فنحن دائما فى خدمتك. وتذكر فجأة: ــ وفى الواقع يا انطون سيميونوفيتش، والشجرة؟

وفكرنو. ان الشجرة تكاد تكون فعلا مقطوعة؛ فغدا سيجهز عليها حتماً وتسرق. ولم ينتظر بورون نهاية تأملاتنا فاتجه صوب الباب وبينما هو يمر قال لموسي كاربوفيتش الواجم:

ــ سنعيد لك الحصان لا تقلق. ايها الاولادا

من يأتى معي؟ يكفي ستة. هل يوجد يا موسي كاربوفيتش حبل فى العربة الزلاقة؟

ــ انه مثبت بالوتد.

وتفرق الجميع. وبعد ساعة جلب جذع صنوبرة عظيمة: هذه أول مكافأة لنا. زد على ذلك انه بحسب تقليد قديم بقيت لنا الفأس. ومرت احداث كثيرة بعد ذلك ولكن ظل المرء يسمع زمنا طويلا الاولاد وهم يصفون حسابهم المنزلي ويقولون فيما بينهم:

ــ كان هناك ثلاث فؤوس، وقد أعطيتك الثلاث، وها هما اثنتان منها! فأين الثالثة؟

ــ اى ثالثة؟

ــ ايها؟ فأس موسي كاربوفيتش التي أخذناها منه فى ذلك الحين.

لم يكن فى هذا كثير من الاقتناع الخلقى والغضب؛ ماعدا هذا النضال المليء بالمصلحة والنظام العملى الصرف الذى ولد البذور الأولى للروح الجماعية. كنا فى خلال أمسياتنا نتجادل ونتضاحك وكانت مخيلتنا تطلق العنان

فى الحديث عن مغامراتنا؛ وكانت الاحداث المؤثرة تهزنا إلى التجمع فنذوب فى كلٍ واحدٍ اسمه: اصلاحية غوركي.

٦. الظفر بمرجل حديدى

أخذت اصلاحيتنا فى غضون ذلك تتطور تطورا ماديا. فالبؤس الذى بلغ أشده؛ والقمل وأرجلنا المتجمدة - كل هذا لم يمنعنا من أن نحلم بمستقبل أفضل. فعلى الرغم من أن الجواد «الصبي» فى الثلاثين عاما من عمره؛ وآلة البذار العتيقة كانا لا يعطيان أملا بتطوير الزراعة عندنا، فقد اتجهت أحلامنا بانطلاقها صوبها بالضبط. ولكن ذلك لم يكن الا أحلاما. فالجواد «الصبى» الكهل كان يمثل محركا متلائما تلاؤما قليلا جدا مع أعمال الحقول حتى ان الخيال وحده هو الذى يستطيع رسم هذه اللوحة: صورة حصاننا «الصبى» مربوط إلى المحراث. زد على ذلك أنه اذا كان نزلاء الاصلاحية جياعا فكذلك

كان الحصان «الصبى»، فقد كنا نحصل له على التبن وفى بعض الأحيان على العلف ولكن بشق النفس. ففى الشتاء كله كان الخروج معه لا يكاد يكون سفرا ولكنه عذاب وهلاك. كان ذراع كالينا ايفانوفيتش يؤلمه دائما من فرط تلويحه بالسوط الذى كان مضطرا لتهديده به تهديدا متواصلا؛ والا فان الجواد «الصبى» كان يقف بكل بساطة.

وأخيرا فان أرض الاصلاحية ليست صالحة للزراعة: فقد كانت ذات تربة رملية تحولها أقل ريح كثبانا.

وأنا الآن ما زلت لا أفهم ابدا كيف سندفع فى مثل هذه الشروط فى لجة مغامرة مكشوفة تجعلنا مع ذلك نستوي على أرجلنا.

لقد بدأ هذا بقصة مضحكة.

فقد ابتسم لنا الحظ فجأة اذ استلمنا بطاقة لأجل حطب البلوط. فكان يجب أخذه مباشرة من المقطع. وكان هذا المقطع يقع فى حدود مجلس سوفييتنا الريفى،

ولكننا لم تكن لدينا الفرصة حتى ذلك الحين للذهاب إلى تلك الجهة.

فبعد الاتفاق مع اثنين من جيراننا في القرية قصدنا مع خيولهما إلى تلك البقعة المجهولة. وبينما كان السائقون يهيمون في المقطع ويملأون عرباتهم الزلاقة بقطع كبيرة من أحطاب البلوط ويتجادلون فيما اذا كانت هذه الحطبة ستنقلب وتتدحرج من العربة عبر الطريق أم لا، في أثناء ذلك لفت نظرنا أنا وكالينا ايفانوفيتش صف من اشجار الحور كان ينتصب وراء قصب النهر المتجمد.

واجتزنا الجليد وتسلقنا تلاً عبر درب ضيق فوجدنا انفسنا في عالم واسع ساكن : ما يقرب من عشرة بيوت كبيرة و صغيرة، وسقائف واكواخ وأبنية أخرى مهدمة، كان كل شيء بحالة خراب: اكوام من القرميد والتراب يعلوها الثلج كانت مطروحة في مطارح المدافئ، وأرضيات البيوت والأبواب والنوافذ والأدراج زالت بأجمعها. وكان عدد كبير من الجدران والسقوف قد تهدم أيضا، وفي

أماكن عديدة شرع بهدم جدران القرميد والأساسات. ولم يكن ليبقى من الاصطبل الواسع سوى الجدارين الطويلين وفوقهما كان لا يزال معلقا في السماء مرجل حديدي؛ كان دهانه جديدا زاهيا؛ ولكن شكله كان مثارا للأسى: لقد كان وحده في هذه المنطقة كلها يثير الشعور بشيء حي؛ وكل ما عداه كان كأنه جثة هامدة لا حياة فيها.

ولكنها كانت جثة غنية. سرح الطرف فيها تجد أنه كان ينهض في طرف منها بيت بطابقين جديد بدون طلاء؛ له مظهر الجمال؛ أما غرفه العالية الواسعة فكانت ما تزال تحتفظ بسقوفها ذات التزيينات وحواف من المرمر؛ وفي الطرف الآخر من الباحة أصطبل جديد كل الجدة ايضا، من البيتون المجوف، فاذا تفحص المرء عن كثب حتى الأبنية الخربة فإنها تؤثر فيه بصلابة بنائها وهياكلها القوية من خشب البلوط ومتانة الصلات بين اجزائها وبدقة خطوطها العمودية. لقد كان هذا الكيان الاقتصادي القوي غير ميت من عبء الشيخوخة

والمرض وانما اخترم في ريعان ازدهار صحته وعنفوان قوته.

وما كان كالينا ايفانوفيتش ليتوقف عن اللغو وهو يسرح الطرف في كل هذه الثروات:

ـ ولكن انظر معي كل هذا: نهر وبستان وأي مروج!

كان الجدول يحيط المنطقة من جهاتها الثلاث مطوقاً ربوة، وهذا شيء غير مألوف في سهولنا. وكان البستان ينحدر نحو النهر بأسطحة ثلاثة: كان السطح الأعلى مغروسا بأشجار الكرز والسطح التالي بأشجار التفاح والدراق والسطح الاسفل كان بساتين لشجيرات عنب الثعلب.

وكان في الباحة الثانية طاحون كبير ذو خمسة طوابق يعمل. وقد علمنا من الطحانين أن هذه المزرعة كانت ملكا للأخوة تريبكي فكانوا قد ذهبوا مع جيش دينكين تاركين بيوتهم تطفح بالثروة. وكانت هذه الثروة قد اتجهت منذ زمن طويل الى غونتشاروفكا، القرية

المجاورة، والى القرى المحيطة... والآن اخذت الأبنية ترحل بدورها.

والقى كالينا ايفانوفيتش حديثا طويلا:

– يا لكم من وحوش – أتسمعنى – يا لكم من خبثاء! يا لكم من حمقى! مثل هذه الثروة لكم! غرف... أصطبلات! لم يكن عليك إلا أن تعيش فيها – يا ابن الحرام – أقم فيها لتدبر بيتك وتغلى قهوتك. وكيف تكسر إطارا كهذا بالفأس. الهدم والخراب... ولماذا؟ إنك بحاجة الى طهي طعامك ولا تريد الذهاب لقطع الأحطاب الآن. فليخنقك اذن طبيخك أيها الأحمق الأرعن. لسوف يفطس هكذا حيوانا كما ولد... أتسمعنى؟ ما من ثورة ستحسن إليه بهذا الحد... آه أيها الأنذال، آه ايها الأوغاد... هيا ماذا ترد عليّ؟ واتجه كالينا ايفانوفيتش بالحديث الى احد الطحانين قائلا: – ولكن قل لى من فضلك أيها الرفيق وبمن يناط هذا للحصول على هذا المرجل الذى يقوم فوق الاصطبل؛ والاضاع دون اية فائدة.

– هذا المرجل؟ ماذا يعرف عنه؟ إن مجلس السوفييت الريفى يوجه الامور هنا...

– آها! حسنا جدا.

قال هذا كالينا ايفانوفيتش وذهبنا الى البيت.

كنا نمشى صوب البيت وراء عربة جيراننا على الطريق الذى مهدته الايام التى تسبق الربيع، وكان كالينا ايفانوفيتش طوال الطريق يحلم بهذا الحلم الجميل: ما أجمل أن نعطى هذا المرجل وان ننقله الى الاصلاحية وان نضعه فى رواق المغاسل لتحويل هذه القاعة الى حمام.

وفى الصباح بينما كنا ذاهبين الى المقطع طلب مني كالينا ايفانوفيتش:

– اعمل لى ورقة يا ابنى... لهؤلاء الناس فى مجلس السوفييت الريفى؛ انهم ليسوا بحاجة الى مرجل اكثر من حاجة الاصلع الى مشط.

ولكى اجلب لقلبه المسرة كتبت له ورقته. وفى المساء عاد كالينا ايفانوفيتش حانقا غاضبا:

ـ هذه العصبة من الطفيليين! انهم لا يرون غير الجانب النظرى ولا يرون الجانب العملى، انهم يقولون ان هذا الخزان ملك للدولة. أرأيت فى حياتك حمقى كهؤلاء؟ اكتب سأذهب الى اللجنة التنفيذية للناحية.

ـ اين هذه؟ انها على بعد عشرين فرسخا. بأى وسيلة ستذهب؟

ـ يوجد رجل ذاهب الى هناك فانه يأخذنى معه.

ان فكرة مشروع بناء حمام التى اعلنها كالينا ايفانوفيتش قد أعجبت الاولاد ولكنه ما من احد كان يعتقد ان سيمكن الحصول على الخزان.

ـ لنتدبر الأمر بدونه؛ ففى وسعنا أن نصنع واحدا من الخشب!

ـ انك لا تفهم شيئا! اذا كان الناس يصنعون خزانات حديدية فان ذلك يعني انهم يعرفون لماذا. وأنا سأنتزع من اولئك الطفيليين خزانهم،

ـ وبأى شيء ستنقله؟ هل سوف يجره الجواد «الصبى»؟

ـ سننقله ولن نعدم حيلة! فكما يقول المثل: من كان لديه المعلف فسوف تكون لديه الماشية.

وعاد كالينا ايفانوفيتش من اللجنة التنفيذية وقد نسي كل لغة تعلمها غير لغة السباب والشتائم. ومر اسبوع بين ضحك أهل الاصلاحية كلها وهو يلاحقني طالبا:

ـ اكتب لى كلمة لأجل اللجنة التنفيذية فى القضاء.

ـ أتركنى هادئا يا كالينا ايفانوفيتش، هناك أعمال اكثر أهمية من خزانك.

ـ اكتب اذن ماذا يكلفك هذا؟ أانت تتأسف على الورق أو على أي شئ؟ اكتب... وسوف ترى سأجلب الخزان.

وأعطيته ايضا هذه الورقة، فدسها فى جيبه كالينا ايفانوفيتش وهو يبتسم اخيرا.

ـ لا يمكن ان يكون قانون يقول بترك الأشياء تفقد لعدم وجود من يرعاها. نحن لم نعد أبدا فى عهد القياصرة.

وعاد كالينا ايفانوفيتش في ساعة متأخرة من الليل بدون أن يمر علي ولا على المهجع. وانما جاء في الصباح الى غرفتي متخذا ببرودة شامخة شكلا ارستقراطيا متصنعا؛ وهو يسرح الطرف عبر النافذة في المدى البعيد...

قال بجفاف وهو يمد يده بالورقة:

– لا سبيل إلى ذلك.

ففي عرض عريضتنا المفصلة بالحيثيات، كتب بالحبر الأحمر بايجاز حاد جارح للشعور:

«مرفوض».

ظل كالينا ايفانوفيتش يتألم من ذلك زمنا طويلا من أعماق قلبه؛ وتلاشت حيويته اللطيفة، حيوية الشيخ مدة خمسة عشر يوما.

وفي يوم الاحد التالي بينما كان آذار (مارس) يعابث بشدة الثلوج المتأخرة، دعوت بعض الاولاد لنقوم بنزهة في ضواحينا المجاورة؛ فاستحصلوا على بعض الثياب الدافئة وانطلقنا الى مزرعة تريبكي.

ـ ولماذا لا نقيم اصلاحيتنا هنا؟ قلت هذه الفكرة بصوت مرتفع.

ـ أين هنا؟

ـ هناك في تلك البيوت.

ـ كيف هذا؟.. انها ليست صالحة للسكن.

ـ سنجري لها ترميمات.

وانفجر زادوروف ضاحكا وانطلق يدور في الباحة.

ـ عندنا ثلاث بنايات لا تزال غير مرممة؛ لم نستطع ان نقيم فيها طيلة الشتاء.

ـ هذا حق. ولكن اذا قمنا بالترميمات مع ذلك؟..

ـ أوه!.. اذ ذاك تصبح اصلاحية عظيمة! النهر. والبستان. والطاحون.

كنا نحلم ونحن نطوف بين الانقاض: هنا المهاجع، وهنا المطعم، وهذا ما سيكون ناديا مدهشا. وهذا مدرسة.

ورجعنا متعبين ولكن نفوسنا مليئة بالعزم؛ وبدأ النقاش في المهجع بشكل صاخب حول أدق تفاصيل

اقامة اصلاحيتنا المقبلة. وقبل الافتراق قالت لهم ايكاتيرينا غريغوريفنا:

— ولكن ألا تعلمون ايها الأولاد ان هذا ليس حسنا؛ ان حشو الرأس بأحلام لا سبيل الى تحقيقها يتنافى مع البلشفية.

وساد المهجع صمت مزعج... يضيق النفس.

فحدقت في وجه ايكاتيرينا غريغوريفنا وقلت لها وأنا أضرب بقبضتي على الطاولة:

— وأنا أقول لك انه بعد شهر ستكون تلك المزرعة لنا! أيكون هذا بلشفيا؟

وأخذ الاولاد يتضاحكون ويطلقون الهتافات «هورا!» فضحكت أنا أيضا وضحكت كذلك ايكاتيرينا غريغوريفنا.

وامضيت طيلة الليل في كتابة تقرير الى اللجنة التنفيذية في المقاطعة.

وبعد أسبوع استدعاني مدير التعليم العام:

— ان فكرتك حسنة؛ لنسافر وسنرى.

ومر أسبوع آخر، وبحث مشروعنا في اللجنة التنفيذية

للمقاطعة؛ فوجد أن مصير هذه المزرعة كان يشغل بال السلطات منذ أمد بعيد؛ ووجدت مناسبة لأعرض عليهم البؤس وفقدان الأمل والأهمال الذى كانت فيه الاصلاحية التى كانت تنشأ فيها جماعة حية وتدب فى كيانها الحياة.

قال رئيس اللجنة:

ـ لا بد لهذه الاملاك من رب يشرف عليها؛ ولدينا هنا أرباب كثيرون ليس لديهم ما يقومون بعمله. فليآخذوها...

وها انا امسك بيدي الأمر الذى يضع فى حوزتنا مزرعة تريبكي السابقة مع قطعة أرض تعادل ٦٠ هكتارا صالحة للزراعة وتصميم الترميمات ونفقاته الذى صدق عليه. اقف في وسط المهجع وأنا اكاد لا اكون مقتنعا بان هذا ليس حلما... وحولي جمهور الاولاد المتحمسين وايديهم الممدودة.

ـ ارنا اياه!

ودخلت ايكاتيرينا غريغوريفنا فانقضوا عليها بحمية فائضة، وصوت شيلابوتين يرن حادا:

ــ أهذا بولشفي... ام لا؟ قولي الآن!

ــ ماذا يوجد؟ ماذا حدث؟

ــ أهذا بولشفي؟ انظري، انظري!

كان كالينا ايفانوفيتش أسعد الناس فقال:

ــ انك رجل... لقد صنعت كما يقول الكهان: أطلبوا تجدوا!.. اقرعوا الباب يفتح ويقدم إليكم العطاء...

قال زادوروف:

ــ بالعصا...

ــ كيف هذا «بالعصا»؟ ــ والتفت كالينا ايفانوفيتش صوبه: هذه هي الورقة.

ــ أنت عندما «قرعت» لتحصل على الخزان أعطيت ضربة عصا. بيد ان الامر في هذه الحالة يهم الدولة، وليس لأننا التمسنا.

ــ انك ما زلت صغيرا لتفهم ما جاء في الكتاب المقدس؛ قال هذا كالينا ايفانوفيتش وهو يمازحه؛ لأنه ما كان يريد في هذه اللحظة ان يتكدر مزاجه.

وفي يوم الاحد التالي قصدت انا وهو والأولاد متجمهرين لتفتيش ممتلكاتنا الجديدة. كان غليونه يتصاعد منه الدخان بنشوة الظافر صوب كل قطعة من القرميد تكون بقايا مزرعة آل تريبكي. ومر بمهابة أمام الخزان.

وسأله بورون برصانة:

ـ متى سينقل الخزان يا كالينا ايفانوفيتش؟

ـ ولماذا نغير مكانه؟ ان مكانه مناسب. يجب أن تفهم ان هذا اصطبل حسب آخر ما أنجزه التكنيك الحديث.

٧. «كل شيء مفيد لنا»

لم يكن في وسعنا ان نستغل استغلالا عمليا عاجلا لتركة آل تريبكي التي ظفرنا بها فلأسباب شتى تأخر تسليم الاموال واستلام الاوائل. وكانت العقبة الرئيسية يكونها كولوماك، فهو نهر صغير ولكنه مضر. هذا المسيل

من الماء الذى كان يفصل الاصلاحية عن مزرعة آل تريبكي كان يتخذ شكل كارثة فى نيسان (ابريل)، فيبدأ بالفيضان ببطء واصرار ثم يعود ببطء اكثر الى مجراه المتواضع مخلفا وراءه مصيبة أخرى: ذلك هو الطين الذى لا سبيل الى عبوره على الاقدام ولا بالعربة.

لهذا السبب ظل «تريبكي» ـ وهكذا كنا ندعو ممتلكاتنا الجديدة ـ انقاضا فترة طويلة من الزمن. فى هذا الفصل كان الاولاد يتمتعون بسحر الربيع وبهجته؛ ففى الصباح بعد طعام الافطار كانوا يجلسون بانتظار اشارة العمل، فى صف على طول المستودع ليستدفئوا بحرارة الشمس فيعرضون بطونهم للأشعة ويتركون أطمارهم باهمال فى أرجاء الباحة كلها. كان فى مستطاعهم ان يبقوا هكذا ساعات وهم يستعيضون عن اشهر الشتاء التى كان من الصعب فيها ان يصلوا الى الدفء حتى فى المهاجع.

كان جرس العمل يحملهم على النهوض والذهاب دونما اندفاع الى مراكز أعمالهم ولكنهم كانوا اثناء العمل يجدون حججا وامكانيات تكنيكية لينعطفوا مرة او اثنين ويتمرغوا فى الشمس.

فى مطلع نيسان (ابريل) هرب فاسكا بوليشوك. ولم يكن ولدا يؤسف عليه؛ وفى شهر كانون الأول (ديسمبر) كنت قد توصلت فى دائرة التعليم العام لرؤية المشهد التالى: فقد شاهدت قرب احدى الطاولات، جمهورا من الناس يحيط صبيا وسخا بأسمال بالية. وقد وجده قسم النقائص مصابا بمرض عقلى. وكان يستعد القسم لإرساله الى احدى المؤسسات الخاصة. وكان هذا الصعلوك الصغير يحتج ويبكي ويصرخ بأنه ليس مجنونا مطلقا؛ وانه حمل الى المدينة بالخديعة والحيلة، وانه ينبغى ان يؤخذ الى كراسنودار حيث وعد بان يوضع فى مدرسة.

فسألته:

— لماذا تصرخ؟

ــ أرأيت؟ انهم جعلوني مجنونا.

ــ فهمت. حسبك صراخا. سنذهب معا.

ــ وباى شئ؟

ــ سيراً على الاقدام. هيا حرك رجليك.

ــ هِى ــ هِى ــ هِى!..

لم يكن له فعلا هيئة شخص مثقف ذكي؛ ولكنه كانت تبدو فيه طاقة عظيمة فكنت افكر: «كل شئ مفيد لنا».

لقد تخلص قسم النقائص بفرح من هذا الزبون وذهبنا معا بخطا خفيفة الى الاصلاحية. وفى اثناء الطريق قص عليّ القصة المألوفة التى تبدأ بموت الأبوين والشحاذة... كان يدعى فاسكا بوليشوك. وقد كان جريحا من الحرب على ما يحكي، وساهم فى فتح بيريكوب.

ومنذ اليوم التالى لوصوله الى الاصلاحية لم يعد يفتح فاه؛ وما من احد لا المربين ولا رفاقه توصل الى

حمله على الكلام. فلعله بمثل هذه الحالات حمل العلماء على اعتباره مجنونا.

لقد اهتم الاولاد لسكوته وطلبوا مني ان آذن لهم باستعمال بعض الطرائق الخاصة معه: كان من الضروري ان يسبب له ذعر شديد؛ واذ ذاك سيتكلم على الفور. فمنعت هذا منعا باتا. وقد كنت أتأسف كثيرا على انني جلبت الينا هذا الناسك الذي نذر نفسه للسكوت والصمت.

وفجأة شرع بوليشوك يتكلم. ويتكلم بدون ادنى سبب. كان الطقس جميلا في يوم من ايام الربيع الدافئة؛ وروائح الأرض التي تجف تملأ الفضاء؛ والشمس تملأ الكون. كان يتكلم بشكل قوي صارخ مرفقا كلامه بالضحك والقفز والنط. ولم يتركني اياما بأكملها فشغلني باطراء سحر الحياة في الجيش الأحمر والقائد زوبات.

— لقد كان رجلاً ايما رجل... له عينان زرقاوان، وسوداوان كثيرا حتى انهما ليقصمان الظهر اذا

نظرتا اليك؛ حتى أصحابنا فى بيريكوب كانوا يخافون منه.

وسأله الاولاد:

ـ لماذا تتحدث دائما عن زوبات؟ أتعرف عنوانه؟

ـ اى عنوان؟

ـ أتعرف اين تمكن الكتابة له؟

ـ لا. لا أعرف. ولكن لماذا الكتابة له؟ سأذهب الى نيكولاييف، وهناك سأجد...

ـ انه سيطردك طردا عنيفا على وجه التأكيد.

ـ هو.. لا؛ ان الذى طردني هو شخص آخر غيره. فقد قال: لا يمكن إصلاح هذا الأبله الصغير. أأنا أبله؟

كان بوليشوك يتحدث من الصباح حتى المساء عن زوبات الذى كان جميلا جدا لا يخاف من شئ ولا يستعمل كلمات بذيئة ابداً.

وسأله الاولاد بصراحة قائلين:

ـ أتريد أن تهرب؟

وكان بوليشوك ينظر الي ويتأمل. وتأمل طويلا ثم عندما لم يعد احد يفكر فيه وعندما وجد رفاقه موضوعا آخر للاهتمام، سأل فجأة من طرح عليه السؤال:

ـ هل سيغضب أنطون؟

ـ من اى شئ؟

ـ اذا هربت؟

ـ وماذا تعتقد اذن؟ هل كان يستحق جهد الاهتمام بك!

وعاد فاسكا يتأمل ثانية...

وذات يوم جاء شيلابوتين بعد الافطار ليلقانى وهو يعدو:

ـ لقد غادر فاسكا الاصلاحية. من غير ان يفطر. لقد ذهب ليلحق زوبات.

واحاط بي الاولاد فى الباحة فقد كان يهمهم أن يعرفوا أى أثر يحدث فى نفسي اختفاء بوليشوك.

ـ لقد فر بوليشوك مع ذلك.

ـ فى هذا رائحة الربيع...

ـ لقد ذهب الى القرم...

ـ لا، ليس إلى القرم بل الى نيكولاييف.

ـ يمكن الامساك به في المحطة.

كان فاسكا ولدا مرغوبا به قليلا؛ ولكن غيابه مع ذلك قد أثر في نفسي تأثيرا عنيفا؛ لقد كان مما يجرح النفس ويؤلمها ان نجد هذا الولد لم يرد ان يقبل تضحيتنا المتواضعة فذهب يسعى باحثا عن أفضل. كنت أعلم في الوقت ذاته ان فاقة اصلاحيتنا لا يمكن ان تمسك أحدا وتبقيه فيها.

وقلت للأولاد:

ـ فليذهب انى يشاء: لقد سافر، مع السلامة. لدينا أشياء أهم من ذلك.

وفي شهر نيسان (ابريل) شرع كالينا ايفانوفيتش بحراثة الأرض. وقد وقع علينا هذا الحادث وقوعا غير منتظر تماما: فقد اوقفت لجنة الأحداث الجانحين سارقا صغيرا للخيل وقد أرسل الجانح إلى أحد الأمكنة، ولكن لم يتوصل أحد إلى العثور على صاحب الحيوان.

وأمضت اللجنة أسبوعا حتى نفد صبرها بشكل قوي؛ اذ ازعجها وجود مثل هذا الدليل المقلق. وقد اتى كالينا ايفانوفيتش الى اللجنة ورأى حياة العذاب والوضع المؤلم لهذا الحصان البريء وهو مثبت في وسط الباحة المعبدة فأخذ رسنه وجره الى الاصلاحية بدون أن يقول شيئا. أما أعضاء اللجنة فقد ارفقوا ذهابه بتنهدات عميقة من الراحة منه.

واستقبل كالينا ايفانوفيتش في الاصلاحية بصياح الحماسة والدهشة. وتلقى غود بيديه المرتجفتين الرسن من يدى العجوز وتلقى في الوقت ذاته الفكرة التالية:

ـ انظر معى جيدا. لم تسلم هذا الجواد ليعامل كما تصنعون فيما بينكم: انه حيوان أعجم لا يتكلم، ولا يستطيع ان يقول شيئا؛ ولا يمكنه ان يبث الشكوى. هذا معروف. فاذا سببت له آلاما فرفسك فلا تكلف نفسك العناء لتقابل أنطون سيميونوفيتش؛ انك لن تستفيد سواء بكيت أو لم تبك... ومع ذلك فليس لك شأن معى، سوف اقتلع رأسك من بين كتفيك.

وكونا حلقة حول هذا الفريق الظافر وما من واحد منا كان يحتج على الأخطار التى تتهدد رأس غود. لقد كان كالينا ايفانوفيتش مبتهجا يبتسم من وراء غليونه وهو يلقى حديثه المرعب. لقد كان الحصان حصانا كميتا لم يهرم بعد ولم يزل بصحة جيدة.

وامضى كالينا ايفانوفيتش عدة ايام فى السقيفة وهو يشتغل مع الاولاد فبواسطة المطارق والمفكات وبعض قطع الحديد وأخيرا بفضل مدد من احاديثه التوبيخية توصل الى صناعة شيء يشبه المحراث من البقايا المتروكة فى الاصلاحية القديمة من كل نوع.

وكان فى وسع المرء ان يرى هذا المشهد الجميل: بورون وزادوروف يحرثان. وكان كالينا ايفانوفيتش يمشى ازاءهما ويقول:

ــ آه أيها الطفيليان اللذان لا يعرفان حتى الحراثة؛ هذا اعوجاج، وذلك اعوجاج، وذلك اعوجاج...

وكان الولدان يعاندان بدماثة:

ـ هلا أريتنا يا كالينا ايفا نوفيتش كيف يجب ان نعمل. قد تكون انت ايضا لم تحرث قط.

واخرج كالينا ايفانوفيتش غليونه من فمه وحاول ان يتخذ هيئة عابسة:

ـ ماذا؟ ألم احرث قط... كأنما لا بد من الحراثة؟ يجب الفهم. انني ادرك انك قد اخطأت، اما انت فلا...

كان غود وبراتشنكو يمشيان بجانبهم؛ فكان غود يترصد الحراثين مخافة ان يسيئا معاملة الجواد بينما براتشنكو لم يكن هنا إلا لينظر الى الجواد «الكميت» نظرة حب واعجاب. كان قد لحق غود بصفته مساعد سائس متطوعا.

وفي السقيفة كان بعض الاولاد الكبار يشتغلون بآلة البذار العتيقة وصاح فيهم سوفرون غولوفان عاليا وأثر في نفوسهم بسعة معرفته في مادة صناعة الأقفال والحدادة.

كان سوفرون غولوفان يمتاز امتيازا واضحا عن سائر الخلق ببعض الملامح البارزة. لقد كان طويل القامة

نشيطا يضوع منه الفرح بالحياة؛ فهو يشرب ولكنه ليس بسكير، له رأيه الخاص حول كل شئ؛ وهو موسوم بسمة جهالة عجيبة. وقد كان فيه تركيب مشوه من شخصية الكولاكي وشخصية الحداد. كان مالكا لبيتين وثلاثة خيول وبقرتين ومعمل للحدادة. وعلى الرغم من صفته ككولاكي فقد كان حدادا ماهرا؛ وكانت يداه أنبغ من رأسه بشكل لا سبيل الى المقارنة بينهما. كان معمل حدادته يقع على طريق خاركوف تماما الى جانب الفندق؛ وفي هذا الموقع الجغرافي كان يكمن سر غنى أسرة غولوفان.

كان سوفرون قد جاء إلى الاصلاحية بناء على دعوة وجهها إليه كالينا ايفانوفيتش. كانت سقائفنا تحتوى بعض ادوات الحدادة وكان المعمل نصف مخرب ولكن سوفرون اقترح ان ينقل الينا سندانه وكوره وبعض الادوات الأخرى وأن يشتغل عندنا معلما: كان يأخذ عليه ترميم بناء المعمل؛ فتساءلت عن سبب هذا الميل والعطف علينا.

إلا ان كالينا ايفانوفيتش قد بدد حيرتي في «تقرير المساء». فقد قال لى وهو يدس طرف ورقة في زجاجة مصباحي ليشعل غليونه:

– ان سوفرون هذا الطفيلي ما جاء إلينا ساعيا عبثا. فالفلاحون الفقراء أذاقوه حياة قاسية فهو يخشى أن ينتزع منه معمله: اما عندنا فسوف يكون – كما يقال – في خدمة السوفييت.

وسألت كالينا ايفانوفيتش:

– كيف سنعمل معه؟

– كيف سنعمل؟ ومن غيره سيأتى إلينا؟ ومن اين سنحصل على سندان؟ والادوات؟ ليس لدينا مسكن لنقدمه ايضا، حتى اننا نستحضر النجارين لنصلح كوخا قميئا؛ وقال كالينا ايفانوفيتش وهو يقطب حاجبيه: ثم أتعرف ماذا يمكن هذا ان يعمل لنا؟ ان المرأة بالمال لا تكون ابدا شريرة. انه من رجال الكولاك وبعدئذ؟ سيعمل كسائر الناس.

كان كالينا ايفانوفيتش ينفث بتأمل نفحات من

الدخان صوب السقف المنخفض، ثم افتر وجهه فجأة عن بسمة:

ـ على كل حال أولئك الطفيليون الموجيك سيأخذون معمله. ومن سيفيد هذا؟ انهم لن يصنعوا به شيئا؛ فاذن من المستحسن ان يكون عندنا: ومع ذلك فان سوفرون لا سبيل امامه، فعلينا الانتظار حينا من الزمن ثم نصرفه؛ فنقول له: نحن منظمة سوفييتية؛ فاخرج من هنا ايها الطائر الوسخ الذى كان كولاكيا وحشيا امتص دماء الشعب، هيه هيه هيه!

وكنا قد نلنا قسطا من المال مخصصا لاصلاح المزرعة ولكن هذا القسم كان قليلا الى حد يطلب منا آيات البراعة والمهارة. فقد كان ينبغى لنا ان نصنع كل شيء بايدينا؛ وكان يلزمنا معمل للحدادة ومعمل للنجارة. وقد كانت لدينا طاولات عمل من الممكن أن يجرى عمل عليها بشكل من الأشكال. فاشترينا الادوات؛ وسرعان ما ظهر فى الاصلاحية معلم للنجارة وطفق الاولاد تحت اشرافه ينشرون ألواح الخشب المنقولة من المدينة

ويصنعون نوافذ وابوابا للاصلاحية الجديدة. ومع الأسف كانت المعارف الحرفية لنجارينا ضئيلة كل الضآلة حتى ان تطور اعداد هذه العناصر لحياتنا المقبلة كان في أول الأمر شاقا كل المشقة. فاعمال معمل الحدادة — وكانت كثيرة — لم تكن ترضينا كذلك في اول الامر: فقد كان سوفرون لا يبدي حماسة كبيرة لتعجيل أجل فترة اعادة البناء في الدولة السوفييتية. كانت اجرته كمعلم ضئيلة القدر: ففي ايام القبض كان يرسل كل المبلغ مع أحد الأولاد الى بائعة الساموغون * مع هذا الامر:

— ثلاث قناني من الصنف العالي.

ومرت فترة طويلة حتى علمت كل شيء لأنني في ذلك الوقت كانت قد استهوتني قائمة التجهيزات: تعاليق، مفصلات، صفائح حديد للأبواب، مزاليج... وكان الجميع مثلي قد سيطر عليهم ازدهار العمل بشكل مفاجيء وانطلاقه. فقد تكوّن حدادون ونجارون من بين الأولاد وأخذت ترن في جيوبنا بعض النقود.

---

* الساموغون — الخمر المقطر في البيت. المعرب.

إن النشاط الذى اثاره معمل الحدادة قد سحرنا مجرد سحر. ففى الساعة الثامنة كان رنين السندان الجميل يدوى فى ارجاء الاصلاحية ولم تكن الضحكات لتنقطع فى المعمل؛ وعلى الأبواب المفتوحة على مصراعيها كان يقف دائما قرويان أو ثلاثة يتحدثون عن أعمالهم وعن ضريبة المحاصيل الزراعية وعن رئيس لجنة الفلاحين الفقراء فيرخولا، وعن العلف وآلة البذار. وقد كنا نضع نعالا حديدية لخيول الفلاحين؛ ونصنع لفائف؛ ونصلح المحاريث. وكنا نمنح الفقراء نصف تعريفة وكان هذا الحادث نقطة انطلاق إلى مناقشات لا آخر لها حول العدالة والظلم الاجتماعيين.

واقترح علينا سوفرون أن يصنع لنا عربة فيها مقاعد. وقد عثرنا فى سقائفنا المليئة بسقط المتاع على هيكل عربة؛ فجلب كالينا ايفانوفيتش من المدينة زوجاً من المحاور. وانهال عليهما الحدادون يومين بمطارقهم. واخيراً أعلن سوفرون ان العربة أصبحت جاهزة؛ وأنه يلزمها نوابض واطارات دواليب ولم يكن عندنا شىء من ذلك.

فسارعت إلى المدينة ابحث فيها طويلا عن نوابض عتيقة وانطلق كالينا ايفانوفيتش في جولة طويلة في الأرياف؛ وبعد أسبوع كامل عاد من جولته ومعه اربعة اطارات جديدة كل الجدة وفي نفسه ركام من الانطباعات المتنوعة كان أهمها هذا:

ـ ما أجهل هؤلاء الموجيك من أناس!

وسوفرون جلب لنا «كوزير» من القرية. لقد كان هذا الأخير رجلا في الاربعين من عمره وكان يرسم على صدره علامة الصليب في كل مناسبة وكان وديعا مهذبا نشيطا دائما باسما. خرج منذ امد قريب من مستشفى المجانين، وكان يعتريه اضطراب شديد عندما يذكر زوجته المسؤولة عن تشخيص المرض الخاطئ من قبل الأطباء النفسيين في المقاطعة. كان كوزير صانعا للدواليب وقد فرح فرحا لا حد له عندما طلبنا منه ان يصنع لنا أربعة دواليب. كانت خصائص حياته الزوجية وميوله المشرقة إلى الاجتهاد تسوقه إلى ان يقترح علينا بشكل عملي:

8—1102

— اسمعوا أيها الرفاق: ان الله — جلت قدرته — سيعينكم. اذ انكم احضرتمونى وانا رجل مسكين عجوز هذا شأنى؛ أتعرفون ما سأقوله لكم؟ سأبقى لأعيش هنا.

— ولكن لا يوجد امكنة عندنا.

— هذا لا قيمة له، هذا لاقيمة له. لا تزعجوا انفسكم، سأبحث عن ركن آوي اليه فالله الرحيم يعيننى. فالصيف قد حل الآن؛ وإلى ان يأتى الشتاء سآخذ الأهبة لذلك. سأدبر أمرى فى هذه السقيفة الصغيرة وأرتب شئونى فيها.

— حسنا أقم فيها.

ورسم كوزير اشارة الصليب على صدره ووسّع على الفور الجانب العملى من المسألة.

— اما الاطارات فسوف نحصل عليها. فهذا أمر لا يعرفه كالينا ايفانوفيتش. ولكننى أعرف كل شيء. وسوف يحملونها بأنفسهم — أصحابنا الموجيك أنفسهم وسترون ان الله لن يتخلى عنا ويتركنا فى ضائقة.

— ولكن لم تعد لنا حاجة إليها ايها العم.

ـ كيف «لم تعد لكم حاجة إليها»؟ اعانكم الله. ربما يكون هذا ليس بالنسبة إليكم؛ ولكن الفلاح بحاجة اليه: ماذا يمكنه ان يصنع بدون دواليب. ستربحون المال من بيعها وهذا يفيد الأولاد.

وأخذ كالينا ايفانوفيتش يضحك ويؤيد طلب كوزير والتماسه.

ـ دعه للشيطان. انك تعرف: كل شيء في الطبيعة مرتب أحسن الترتيب حتى ان الانسان ليفيد دائما في امر من الامور.

وقد حبب كوزير جميع اولاد الاصلاحية به؛ فكانوا يعتبرون تقواه نوعا من الجنون؛ وقد كان شاقا جدا بالنسبة لما يعانيه ولكنه لم يكن خطرا اقل خطر على من حوله. زد على ذلك ان كوزير لعب دورا ايجابيا ليطبع في خواطرهم الاشمئزاز من الدين.

وأقام في حجرة صغيرة مجاورة للمهاجع. وفي هذا المكان كان في مأمن من الأعمال العدوانية التي تقوم بها زوجته المتميزة بطبيعة جنونية حقا. وأخذ الأولاد

يجدون متعة مسرة في حمايته من بقايا ماضيه. فقد كانت زوجة كوزير تأتي دائما الى الاصلاحية بصراخها ولعناتها. وتطلب عودة زوجها الى المنزل؛ وتتهمني أنا وأولاد الاصلاحية والنظام السوفييتي وهذا «الصعلوك» سوفرون باننا قوضنا دعائم سعادتها الزوجية. وكان الاولاد يجتهدون ليبرهنوا لها بتهكم غير مخفي ان كوزير ليس هو الزوج الذى يلائمها وان صناعة الدواليب كانت عملاً أهم بكثير من السعادة الزوجية. وفى هذه الفترة فان صاحب العلاقة يقبع فى حجرته الصغيرة حيث كان ينتظر بصبر أن يصد الهجوم صدا نهائيا. وكان كوزير يظهر على المسرح عندما لا يأتي صوت الزوجة المهانة إلا من الطرف الآخر للبحيرة؛ فيأتينا رشاش من لعناتها وشتائمها: «..اولاد.. وسخون.. قصف الله عمرهم...»

فيقول كوزير بعد أن يطمئن من ذهابها:

— ايها المسيح الوديع يا صغارى الطيبين... ما أشرس هذه المرأة...

وعلى الرغم من هذه الحاشية المعادية كان معملنا لصنع الدواليب قد أخذ يدر علينا الأرباح. كان كوزير ببركة إشارة واحدة حول صدره بالصليب يحسن تحقيق أعمال تجارية هامة؛ فتأتينا الاطارات دون ان نزعج اى مخلوق؛ ودون أن يطلب منا مال. لقد كان فعلا صانعا ماهرا للدواليب؛ وكان عمله مشهورا فيما وراء حدود منطقتنا.

أصبحت حياتنا أكثر تعقيدا وأكثر مرحا. فقد نجح كالينا ايفانوفيتش مع ذلك ببذر قطعة من الأرض بالشوفان؛ وكان الجواد الكميت زينة الاصطبل، وكان قد أصبح عندنافى الباحة عربة ذات مقاعد؛ كان عيبها الوحيد هو ارتفاعها الكبير حتى بلغ المترين - على الأقل - فوق سطح الأرض. وكان يبدو دائما للراكب الجالس فى صندوقها ان الجواد الذى يجر العربة - وهو فى الواقع امامه - كأنه فى منخفض عميق.

وتطور نشاطنا تطورا شديدا حتى اننا أخذنا نشعر بنقص فى اليد العاملة فكان لا بد من اصلاح مهجع

آخر على وجه السرعة، وسرعان ما جاءنا الاولاد الجدد فقد كانوا هؤلاء مجندين من نوع جديد كل الجدة.

كنا قد شرعنا في هذا الوقت بتصفية عدد كبير من زعماء العصابات اللصوصية وهكذا أرسل إلى الاصلاحية جميع انصارهم القاصرين الذين كان دورهم من الناحية العسكرية - بصفتهم قطاع الطرق - لم يتجاوز أعمال خدمة الخيول والمطابخ؛ وبفضل هذا الحدث التاريخي ظهر عندنا اسماء: كارابانوف، وبريخودكو؛ وغولوس؛ وسوروكا؛ وفيرشنيف، وميتياغين وغيرهم.

٨. شخصية وثقافة

ان مجيء اشخاص جدد الى الاصلاحية زعزع زعزعة عنيفة مجتمعنا الذى لم يتماسك بعد؛ وعاد بنا ثانية الى الحال الماضية يوم كانت الاصلاحية «مرتعا للفوضى».

كان احداثنا الاوائل منظمين لامسّ الحاجات وحدها. اما الأولاد الذين شبوا على الفوضى فكانوا أقل

ميلاً للانصياع الى اى نظام، ومع ذلك فيجب القول انه لم تعد ترى أبدا في الاصلاحية مقاومة مكشوفة، كما لم تعد تظهر تصرفات دنيئة تجاه هيئة المربين. وانه ليمكن للمرء ان يفكر بأن زادوروف وبورون وتارانيتز وغيرهم قد أطلعوا الأشخاص الجدد على التاريخ الموجز للايام الأولى من حياة اصلاحية غوركي. وقد أبدى هؤلاء الأخيرون، كالقدماء، اعتقادا بان المربين ما كانوا، قوة معادية لهم. وكان السبب الرئيسى فى هذا الوضع يكمن بشكل أكيد في عمل مربينا فما من شك بأنه كان شاقا جدا يقوم به المربون بتفانٍ يستدعي بطبيعة الحال الاحترام. لهذا السبب كان أولاد الاصلاحية دائما — ما عدا حالات نادرة جدا — على علاقة طيبة معنا؛ كانوا يعترفون بضرورة العمل والتعلم فى الصف؛ وكانوا يتفهمون الى حد كاف أن كل هذا ناتج عن مصالحنا المشتركة. وقد كان الكسل واباء تحمل الحرمان يبدوان عندنا باشكال حيوانية صرفة؛ دون ان يأخذا شكل الاحتجاج.

كنا نقدر أن هذا المظهر الطيب الذى ليس إلا مظهرا خارجيا صرفا للنظام؛ ما كان ليخفى وراءه حتى ابسط شكل للثقافة.

ان مسألة المعرفة: لماذا كان الأولاد يستمرون فى المعيشة فى ظروفنا البائسة ذات الجهد المضنى؛ ولماذا لم يطلقوا ساقهم للريح؛ إن هذه المسألة لم تكن بطبيعة الحال من المسائل التى تجد الجواب عليها فى الخطة التربوية وحدها. ففى عام ١٩٢١ ما كانت المعيشة فى الشارع أمرا مرغوبا فيه، وعلى الرغم من أن مقاطعتنا لم تكن من جملة المقاطعات التى كانت تسود فيها المجاعة، فالحياة في المدينة كانت قاسية جداً ويمكن القول ان الناس كانوا جياعا. زد على ذلك أنه فى السنوات الأولى لم نتلق أولادا مهجورين حقا قد اعتادوا على التشرد فى الشارع؛ فان غالبية أولادنا كان لهم أسر لم يقطعوا صلاتهم بها إلا منذ وقت قريب.

كان أولادنا يظهرون بوجه عام تركيبا لملامح شخصية متميزة تميزا قويا بأضيق أفق ثقافي. انهم تماما نوع

التلاميذ الداخليين الذين كان يبحث عنهم لأجل اصلاحيتنا المختصة بمواضيع التربية الصعبة. لقد كانت الغالبية العظمى منهم تكاد تكون أمية او أمية مطلقا؛ فلا المام لها بالقراءة والكتابة. ويكاد يكون جميعهم قد اعتاد على الوساخة والقمل؛ أما فى علاقاتهم مع الناس الآخرين فقد تكون عند جميعهم مظهر الدفاع والتهديد الخاص بالبطولة البدائية.

وقد كان هناك بعض الأفراد ذوي مستوى فكرى أكثر ارتفاعا فبرزوا فى كتلتهم امثال: زادوروف وبورون وفيتكوفسكي وبراتشينكو ومن بين الجدد: كارابانوف وميتياغين؛ أما الباقون فلم يشرعوا بتحصيل الثقافة إلا تدريجيا وببطء متزايد؛ لما كنا نعاني من فقر وجوع.

إن ما وجدناه في السنة الأولى أكثر ارهاقا، كانت نزعتهم الدائمة الى الشجار والضعف الشديد للروابط الجماعية التى تتقطع فى كل لحظة لأتفه الأسباب، أقول: كان هذا لا ينجم في اغلبه عن حقدهم، ولكن كان ينجم دائما عن هذا المظهر البطولى الذى لم تصلحه أية غريزة

سياسية. وعلى الرغم من ان عددا كبيرا منهم كان في معسكرات طبقية متعادية فلم يكن لديهم اى شعور بالارتباط بهذه الطبقة أو تلك. لم يكن بينهم تقريبا ابناء العمال؛ فالبروليتاريا كانت بالنسبة اليهم شيئا بعيدا عنهم مجهولا من قبلهم. وقد كان اغلبهم يعتبر عمل الحقول شيئا يستحق منهم الاحتقار العميق؛ وما كانوا يوجهون هذا الاحتقار الى العمل بقدر ما كانوا يوجهونه الى المعيشة المتأخرة للفلاحين والى نفسيتهم. لذلك ظل ميدان واسع مفتوحا لكل نوع من عدم الخضوع للنظام و ظواهر الشخصية المتوحشة المدفوعة إلى آخر حد في العزلة والانفراد.

كان الشكل بمجموعه شاقا، ومع ذلك فقد ظهرت بوادر الروح الجماعية خلال أول شتاء؛ وازدهرت في جماعتنا؛ وقد كانت هذه البوادر تقتضي انقاذها بأي ثمن؛ فكان يجب ان لا نترك الأولاد الجدد يخنقون هذه الروح التي ظهرت. واني اعتبر فضلي الرئيسي هو انني لاحظت في ذلك الحين ذلك الحادث وقدرته حق

قدره. كانت حماية هذه البوادر النامية تبدو بعدئذ عملا مضنيا وطويلا شاقا لا حد له؛ حتى انني اذا كنت عرفته مسبقا فربما كنت مرتاعا اكاد اكف عن كل نضال. ولحسن الحظ كنت أشعر دائما انني أوشك على النصر؛ وكان لا بد من أجل هذا ان أكون متفائلا لاسبيل إلى تغييري.

كان كل يوم من حياتي إذ ذاك يمزج في كيانه الايمان والفرح واليأس مزجاً لا مناص منه.

يبدو الآن ان كل شيء يجرى على ما يرام. فبعد ان يقوم المربون بعملهم طيلة النهار يقرأون شيئا من الأشياء للاولاد أو يمضون الوقت في الحديث أو اللعب معهم ثم يودعونهم ويعود كل منهم الى غرفته؛ فيتركون الاولاد هادئين على أهبة النوم. ويسكن آخر نبض للعمل اليومي في حجرتي ويتوقف؛ أما كالينا ايفانوفيتش فما يزال هناك جالسا على كرسي يسرد — حسب عادته — بعض الملاحظات العامة ويتأخر احد الأولاد بحكم الفضول، بينما يقف على الباب براتشنكو وغود يستعدان

للهجوم الجديد الذى سيشنانه على كالينا ايفانوفيتش حول مسألة العلف. وفجأة يدخل ولد صغير مقتحما وهو يصرخ:

ـ الاولاد يتقاتلون فى المهجع!

وأقفز خارج الغرفة؛ فاسمع فى المهجع ضجيجا شديدا وصراخا عاليا وفي زاوية تقف جماعتان وقد ابدتا نواجذ الشر. حركات ووثبات مهددة تتناوب مع سيل من السباب البذيء. ويضرب أحدهم آخر على أذنه؛ وينزع بورون السكين الحاد من احد هؤلاء الأبطال؛ فيُصرخ له من بعيد:

ـ لماذا تتدخل..؟ أتريد أن انقش اسمي على وجهك؟

وعلى أحد الأسرة المحاط بجمهور من المؤيدين جلس جريح يضمد بطرف من الشرشف يده التي طعنت بالسكين.

ووراء ظهري كالينا ايفانوفيتش يهمس مرتاعا:

ـ عجل... أسرع يا صديقي والا فسيقتلون بعضهم بعضا... هؤلاء الطفيليون.

ولكنني لبثت عند الباب دون ان أفوه بكلمة، وأنا أراقب. ولاحظ الاولاد شيئا فشيئا وجودي فسكتوا... فسرعان ما ساد الصمت وهدأ الثائرون؛ واختفت السكاكين وانخفضت الايدي وانقطع سيل الشتائم البذيئة. ولكنني ظللت ساكتا. فقد كان الحنق والحقد على هذا العالم الوحشي يغليان في صدري. كان حقد العجز؛ اذ انني أعرف خير معرفة: فليس اليوم آخر مرة.

وأخيراً سيطر على المهجع صمت رهيب ثقيل وهدأت انفاس الزفير المتوتر وسكنت.

وحينئذ انفجرت أنا بدوري فجأة وانتابتني نوبة من الغضب الشديد واقتنعت كل الاقتناع في الوقت ذاته بانه لا بد من ذلك وهكذا امرت:

ـ السكاكين على الطاولات ضعوها! اسرعوا!

ووضعوا أسلحتهم: سكاكين للصوص؛ وسكاكين المطبخ سرقت عمدا لتصفية الحساب؛ وأمواس؛ وخناجر

صنعوها بأنفسهم فى معمل الحدادة. واستمر الصمت مخيما على المهجع. ووقف زادوروف قرب الطاولة وابتسم. هذا الولد المحبوب الطيب زادوروف كان يبدو لى فى هذه اللحظة وحده هو الصديق العزيز علي. وأمرت أيضا بايجاز:

– الدبابيس!..

فقال زادوروف: معى واحد أخذته منهم!

وكان الجميع وقوفا مطرقي الرؤوس.

– هيا إلى السرير!

ولم اغادر الحجرة ما دام الجميع لم يناموا.

وفى صباح اليوم التالى تجنب الأولاد ذكر فضيحة البارحة؛ ولم أتفوه أنا بكلمة أيضا.

ومر شهر أو شهران. كان الحقد ما يزال تحت الرماد وعندما كانت نار هذا الحقد تنذر بالاندلاع كانت الجماعة تسارع إلى خنقها واطفائها. إلا ان قنبلة أخرى قد انفجرت فجأة وعاد الاولاد مرة أخرى، ففقدوا كل شكل انسانى وانقضوا على بعضهم بعضا بالسكاكين.

وفي إحدى هذه الامسيات وجدت أنه لا بد ـ كما يقال ـ من شد البرغي. فبعد احدى هذه المعارك أمرت تشوبوت وهو اكثر أبطالنا ذوي الخناجر حماسة؛ ليأتي الى غرفتي، فجاء اليها طوعا. وحالما دخل قلت له:

ـ يجب ان تغادر الاصلاحية.

ـ لأذهب الى أين؟

ـ أنصحك ان تذهب إلى حيث المقاتلة بالسكاكين مسموحة... فاليوم وخزت أحد رفاقك لأنه لم يشأ أن يترك لك مكانا على الطاولة. فاذهب اذن وابحث عن مكان تصفى فيه الخلافات بالسكاكين.

ـ متى يجب ان اغادر الاصلاحية..؟

ـ غدا صباحا.

وخرج عابس الوجه . وفي صباح اليوم التالي رجاني عند الفطور جميع الاولاد بان يبقى تشوبوت وكفلوه جميعا.

ـ باي شيء تكفلونه؟

فلم يفهموا شيئا.

ـ بأى شئ تكفلونه؟ واذا عاد مرة ثانية الى استعمال السكين فماذا ستعملون اذ ذاك؟

ـ اذ ذاك سنطرده خارجا.

ـ هذا يعنى انكم لا تكفلونه. لا. سوف يذهب من الاصلاحية.

وبعد الفطور اقترب منى تشوبوت قائلا:

ـ وداعا يا انطون سيميونوفيتش وشكراً للدرس.

ـ إلى اللقاء. بدون حقد. اذا وجدت الحياة قاسية فعد ولكن ليس قبل أسبوعين.

وبعد شهر عاد هزيلا شاحبا:

ـ ها انذا عدت كما قلت لى.

ـ ألم تجد المكان الذى يلزمك؟

فابتسم:

ـ ولم إذن؟ اننى لم أعدم مثل هذه الأمكنة. سأبقى فى الاصلاحية ولن ألمس سكينا ابدا.

واستقبلنا الاولاد استقبالا وديا فى المهجع قائلين:

ـ لقد عفوت عنه مع ذلك وقد قلنا هذا!

٩. «لا يزال في اوكرانيا فرسان»

ذات يوم من ايام الأحد سكر أوسادتشي. فجيء به إليّ لانه كان يعربد في المهجع. فجلس في غرفتي ولكنه ماكان ليتوقف عن ترداد كلام لا معنى له يصدر عن سكير مهان. وقد كان من غير المجدي الكلام معه فاحتفظت به وأمرته أن ينام. ففعل ذلك منصاعا.

إلا انني دخلت الى المهجع فشممت رائحة كحول. كان عدد كبير من الاولاد يتحاشى تحاشيا ظاهرا ان يتصل بي ويتكلم. فلم أرد أن أثير مشكلة بالبحث عن المذنبين الآثمين فاكتفيت بالقول:

— لم يكن أوسادتشي هو الوحيد الذي سكر. هناك أشخاص غيره قد شربوا.

وبعد عدة ايام ظهرت حالات جديدة من السكر في الاصلاحية. وكان بعضهم يتجنب مقابلتي وكان قسم آخر على العكس في حالة من حالات ندم السكيرين فجاءوا إليّ يلقون أحاديث باكية مصحوبة بالاعترافات اليّ بالحب.

ولم يخفوا أنهم كانوا فى زيارة للقرية المجاورة.

وجرى حديث فى المهجع مساء حول مضار السكر؛ فوعد الأحداث الجانحون بأن لا يعودوا يشربون أبدا؛ فتظاهرت بأننى رضيت كل الرضى من هذا الحل، ولم أجاز احدا. فقد كانت لدى تجربتى الصغيرة. كنت أعرف خير معرفة أنه لأجل مقاومة السكر ومحاربته ليس الأولاد هم الذين يجب أن يؤاخذوا على ذلك؛ وانما غيرهم يجب ان يؤاخذ ويلام. ولم يكن هذا «الغير» بعيدا.

كنا محاطين ببحر من الساموغون وقد كنا كثيراً ما نجد فى الاصلاحية موظفين وفلاحين فى حالة السكر. وعلمت فى ذلك الوقت ان غولوفان كان يرسل الأولاد ليجلبوا له الساموغون.

ولم يدافع غولوفان عن ذلك وينكره. فقال:

ــ ما هو السيء فى ذلك؟

أما كالينا ايفانوفيتش الذى لم يكن يشرب الخمرة ابدا فقد انهال عليه بصراخه العالى:

ـ أتفهم ايها الطفيلي ماذا تعني السلطة السوفييتية؟ أتعتقد ان السلطة السوفييتية قائمة لتحتسي ساموغونا؟

وتململ غولوفان على كرسيه المزعزع الذى يصر صريرا حادا وحاول ان يتبرأ قائلا:

ـ نعم. وماذا يوجد فى هذا؟ منذا الذى لا يشرب؟ اسأل... لكل واحد جهازه، كل واحد يشرب بقدر ما يشاء. يجب قبل كل شيء ان لا تشرب السلطة السوفييتية...

ـ من السلطة السوفييتية؟

ـ كل واحد... أقول لك. فالشرب يجرى فى المدينة وفى القرية أيضا...

وسألت سوفرون:

ـ أتعرف هؤلاء الذين يبيعون الساموغون؟

ـ من يستطيع أن يعرفه؟ لم اشتر ابداً منه. فعندما احتاج إليه أرسل له أحدهم... وما شأنك به؟ أسوف تصادر جهازه؟

ـ وماذا تعتقد إذن؟ حتما سأصادره.

ــ آه... يا هذا... ان كل تدابير رجال الشرطة ومصادراتهم لم تحلّ شيئاً...

وذهبت في اليوم التالى الى المدينة واخذت مذكرة انتداب تخولنا حق شن حملة ضارية ضد تقطير الكحول في جميع منطقة مجلس سوفييتنا الريفى. وعقدنا فى المساء مجلسا أنا وكالينا ايفانوفيتش. كان صاحبى يخامره الشك. فقال لي:

ــ لا تزج بنفسك فى هذا العمل القذر. سأقول لك شيئا، ان هؤلاء جميعا لهم نفس العصابة: إن رئيس مجلس السوفييت الريفى غريتشانى هو من جملة أصحابهم أفهمت؟ وأينما ذهبت فى القرى وجدت اهل غريتشانى كثيرين. ان الناس هنا ــ كما تعلم ــ لا يحرثون بالخيول وانما بالثيران... يجب أن تحسب حساباً لغونتشاروفكا فهى فى حوزتهم! وابدى كالينا ايفانوفيتش قبضته مشدودة: إن هؤلاء الطفيليين يسيطرون عليها. ولن تصل إلى شيء.

ـ لم أفهم يا كالينا ايفانوفيتش، ولكن ما علاقة ذلك بتقطير الخمور؟

ـ يا لك من سخيف رغم ثقافتك! ان السلطة فى ايديهم ولعلك تحسن صنعاً إذا لم تلمسهم وإلا فسوف يبتلعونك نيئاً أفهمت؟

وفى المهجع خطبت الأولاد بهذا الحديث:

ـ أيها الاولاد، اقول لكم بصراحة واضحة: لن اسمح لأحد ان يشرب، وفى القرى المجاورة سأشتت هذه العصابة التى تقطر الخمرة. من يساعدنى منكم؟

واتخذت الغالبية وضعا مضطربا، بيد ان بعضهم قد وثب لاقتراحي بحماسة وحمية. وأطلق كارابانوف نظرات براقة من عينيه السوداوين الواسعتين كأنهما عينا حصان:

ـ هذا حسن جدا... حسن جدا. وهؤلاء الانذال، يجب... يجب سحق صدرهم قليلا...

ودعوت للمساعدة ثلاثة منهم: زادوروف وفولوخوف وتارانيتز. وفى وقت متأخر من ليلة السبت وضعنا التدابير اللازمة. وبينما كنا عاكفين حول سراجى ندرس مخطط

القرية الذى وضعته أنا، كان تارانيتز ويداه مغروستان فى خصل شعره الأشقر يتفحص الورقة بوجه منقط بنقاط صفر. وكان يقول:

ـ عندما ننقض على كوخ من الأكواخ، فسوف تخبأ الانابيق فى الأكواخ الاخرى. ان قيام ثلاثة اشخاص بهذا العمل قليل.

ـ هل يوجد إذن بيوت كثيرة تقطر فيها الساموغون؟

ـ فى جميع البيوت تقريبا. فى بيت موسى غريتشانى. وفى بيت اندرى كاربوفيتش وفى بيت الرئيس نفسه: سيرجى غريتشانى. وان آل فيرخولا ايضا يصنعون منها جميعا. والنساء يبعن الساموغون فى المدينة. يجب أن يكون عدد الاولاد أكثر والا ـ كما تعلم ـ فسوف يضربوننا. هذا كل شئ.

كان فولوخوف لا يزال جالسا فى أحد الاركان ساكتا وهو يتثاءب.

ـ سيضربوننا؟ اريد أن أرى هذا! خذوا كارابانوف فقط وهذا يكفينا وما من احد سيرفع يده علينا.

انني أعرف هؤلاء الْغرَكْ (١١) الانذال. فهم يخشوننا.

وكان فولوخوف يتأهب بدون تحمس للعملية، وفي ذلك الوقت كان لا يزال يبدى تباعدا عني: فهو ما كان ليحب النظام. ولكنه لما كان مخلصا جدا لزادوروف كان يتبعه دون ان يتحقق من أي وضع مبدئي.

أما زادوروف فكان - على عادته - يبسم هادئا مطمئنا. كان يعرف أن يصنع كل شيء دون ان يفقد شخصيته ودون ان يبدد ذرة من ذاتيته. وكنت - كعادتي - لا أثق بأمريء كما أثق بزادوروف؛ لأن زادوروف بنفس الطريقة دون أن يضيع شخصيته، يمكنه أن يمشي إلى اى مأثرة اذا كانت الحياة تدعوه إليها.

وفي هذه اللحظة كان يتكلم مع تارانيتز:

- لا تتهرب يا فيودور، قل لنا حالا بأي بيت نبدأ وباى نستمر؟ وغدا سينجلي الأمر. يجب أن نأخذ كارابانوف. هذا صحيح، فهو يعرف مخاطبة الفلاحين لأنه منهم ايضا. والآن هيا إلى النوم إذ انه يجب غدا

أن نخرج مبكرين قبل أن يسكروا فى القرى. كيف وجدت الأمر يا غريتسكو؟

فاطلق فولوخوف صوت فرح مشرق النفس:

ـ نعم.

وافترقنا؛ وكانت ليديا بيتروفنا وايكاتيرينا غريغوريفنا تتنزهان فى الباحة فقالت الاولى:

ـ ان الاولاد يحكون أنكم ستذهبون لتحطيم الانابيق. ماذا سيفيدكم هذا فى نهاية الأمر؟ أهذا عمل تربوى؟ ماذا يشبه هذا؟

ـ ان هذا لعمل تربوى تماما. هل ستأتين غدا معنا؟

ـ لعلك تظن اننى أخاف؟ نعم سأذهب. ولكن هذا ليس عملا تربويا.

ـ اذن ستأتين؟

ـ سآتي.

ودعتنى ايكاتيرينا غريغوريفنا على انفراد:

ـ لماذا ستأخذون هذه الطفلة معكم؟

فصاحت ليديا:

ـ هذا لا قيمة له... هذا لا قيمة له... سأذهب مع ذلك.

وهكذا تألفت لجنة بيننا من خمسة أعضاء.

وحوالي الساعة السابعة صباحا قرعنا باب اندرى كاربوفيتش غريتشانى؛ وهو أقرب جار لنا. فاخذت جوقة الكلاب بمقدمة موسيقية معقدة دامت خمس دقائق.

ولم يبدأ العمل إلا بعد هذه المقدمة كالعادة العامة فى مسارح الاوبرا.

وافتتح العمل بدخول الجد اندرى غريتشانى الى المسرح وهو رجل عجوز قميء ذو رأس أجرد، ولكنه كان محتفظا بلحية صغيرة مقصوصة بعناية. واستقبلنا الجد اندري بدون بشاشة:

ـ ماذا جئتم تطلبون هنا؟

فقلت:

ـ عندك أنبيق، جئنا لتخريبه. وهذا تفويض من الشرطة.

فقال العجوز مضطربا:

– أنبيق؟ وأخذ يجيل الطرف في وجوهنا وفي الثياب الطريفة للأولاد.

إلا ان جوقة الكلاب قد انطلقت بحدة زائدة، وقد أطلقها كارابانوف الذى نجح من وراء ظهر الجد العجوز ان يتقدم الى خلفية المسرح وان يضرب برافعة خشبية كلباً أشقر أصهب وبهذا التدخل رد الحيوان بنباح منفرد عال جداً يصم الآذان.

اندفعنا إلى الهجوم ونحن نشتت الكلاب. أما فولوخوف فقد اخذ يصرخ بها بصوته الجهير الحاد فأخذت الكلاب تهرب من جهة إلى أخرى في الباحة وكان نباحها المؤثر يرافق تتابع الأحداث بموسيقى قليلة التعبير. وكان كارابانوف قد دخل الكوخ، وعندما دخلناه مع الرجل العجوز أرانا بمظهر الظافر الشيء الذى نبحث عنه: جهازا للتقطير.

– ها هو ذا!

وكان الرجل العجوز اندرى يضرب برجله الارض زاهيا كما فى الأوبرا برداء جديد كل الجدة.

– هل قطرتم البارحة؟ سأله هذا السؤال زادوروف.

فاجابه الآخر: – نعم البارحة. وهو يدغدغ لحيته مرتبكا وينظر الى ترانيتز وهو يسحب من تحت مقعد فى احدى الزوايا القريبة من الباب قنينة ضخمة مليئة بشراب أحمر بنفسجى.

وغضب العجوز فجأة وانقض على تارانيتز؛ مقدرا بحساب صحيح عمليا بأنه سيمسك به بشكل أسهل فى هذه الزاوية الضيقة المليئة بالمقاعد والايقونات وطاولة. فامسك بتارانيتز ولكن زادوروف استلم القنينة بهدوء من فوق رأس الرجل الذى ابتسم له تارانيتز ابتسامة سافرة ساحرة:

– ولكن ماذا يوجد ايها الجد العجوز؟

واخذ يصرخ اندرى صراخا مؤثرا:

– ألا تخجلون؟ ألا تعرفون انكم تدخلون البيوت لتسرقوا! ثم تجلبون معكم فتاة! متى سيكون فى مستطاع

الناس ان يعيشوا آمنين هادئين؟ ومتى ستحل الايام السود بكم؟

فقال كارابانوف:

ـ آه أيها الجد العجوز انك شاعر. وكان يسخر منه ويعتمد على رافعته. وتجمد أمام العجوز بوضع تصويري دقيق.

وصرخ العجوز اندرى:

ـ أخرجوا من بيتى! وامسك بمحراك طويل من قرب المدفأة وضرب به ضربة غير محكمة على كتف فولوخوف.

فطفق يضحك فولوخوف، واعاد المحراك الى محله، وهو يلفت نظر العجوز الى طور جديد من الاحداث:

ـ يحسن بك ان تنظر هناك.

فنظر العجوز ورأى تارانيتز ينزل من على المدفأة وهو ممسك بزجاجة ضخمة أخرى من الخمرة؛ وهو يبتسم دائما ابتسامة مشرقة ساحرة.

فجلس الجد اندرى على مقعد وأطرق الرأس ولوح بيده يائساً.

وجاءت ليديا وجلست الى جانبه وتكلمت معه بلطف :

ـ يا اندرى كاربوفيتش! انك تعرف أحسن المعرفة : ان صنع الفودكا بنفسك يحرمه القانون. انك تتلف الحب بهذا بينما المجاعة تفتك بمن حولك .

ـ المجاعة هذا شئ للكسالى المتوانين وليس للذين يعملون.

ـ وأنت أيها الجد أتشتغل انت؟ ـ قال هذا تارانيتز بصوت مرح له رنين وهو جالس على المدفأة. ـ أليس ستيبان نيتشيبورينكو الذى يعمل لأجلك؟

ـ ستيبان؟

ـ أجل ستيبان. وقد طردته دون ان تدفع له أجرا او تعطيه ثيابا وحينئذ طلب ان يدخل الاصلاحية.

وطق تارانيتز بلسانه فرحا باتجاه العجوز ثم وثب من على المدفأة الى الأرض.

وسأل زادوروف:

ـ أين يجب ان نأخذ هذا كله؟

ـ حطموه كله في الباحة.

ـ والانبيق؟

ـ والانبيق ايضا.

ولم يخرج العجوز إلى مكان الاعدام بل ظل فى كوخه يصيخ السمع الى الملاحظات المختلفة التى تتعلق بالناحية الاقتصادية والنفسية الاجتماعية والتى كانت ليديا بيتروفنا تبسط شرحها بمثل هذا النجاح أمامه. كانت مصالح البيت ممثلة فى الباحة من قبل الكلاب الجالسة فى اركانها وهى ممتلئة حنقا وغيظا. وعندما خرجنا الى الشارع عبر بعضها عن احتجاج متأخر بنباحه دون أن يكون له تأثير او جدوى.

دعا زادوروف المتبصر بالأمور ليديا خارج الكوخ قائلا:

ـ تعالي معنا وإلا فان الجد سيقطعك إربا إربا.

فهربت ليديا تعدو مأخوذة من حديثها مع العجوز اندري :

ـ ولكن أتعلمون أنه فهم كل شيء! فقد وافق على ان صنع الفودكا فى الخفاء إنما هو جريمة.

فرد عليها الأولاد بانفجار من الضحك؛ وغمز كارابانوف بعينه :

ـ هل وافق؟ شيء مدهش عجيب! ولو بقيت مدة أطول فى محادثته لحطم بنفسه الانبيق؟ أليس كذلك؟

وقال تارانيتز : ـ احمدي الله على ان زوجته لم تكن فى البيت؛ فقد كانت ذاهبة إلى الكنيسة فى غونتشاروفكا ولكن لا بد لك من حديث مع زوجة فيرخولا.

كان لوكا سيميونوفيتش فيرخولا يأتى غالباً الى الاصلاحية لجميع انواع الأعمال؛ وكنا نحن نقصده أحيانا فى حالة الضرورة لأخذ طوق جواد أو عربة أو برميل. انه ديبلوماسى محنك؛ ومحدث؛ ومحسن. يراه المرء فى كل مكان. وكان رجلا حسن الهيئة يعتنى كثيرا بلحيته المجعدة الشقراء. ومن ابنائه الثلاثة، كان ابنه

الأكبر ايفان يتمتع بنجاح لا ينازع فيه في نطاق ناحية قطرها عشرون كيلومترات اذ انه كان يعزف بالأوكورديون ويحمل قبعات خضراء رائعة.

وقد استقبلنا لوكا سيميونوفيتش ألطف استقبال:

ــ آه، يا جيراننا الأعزاء! تفضلوا بالدخول، أرجوكم! أعرف. فقد سمعت انكم تبحثون عن الانابيق. حسنا جدا، إن هذا الأمر طيب. وخذوا اماكنكم، أيها الشاب اجلس إذن على هذا المقعد. وكيف تجري الآن أعمالكم؟ هل وجدتم بنائين لأجل ممتلكات آل تريبكي؟ اذا لم يكن ذلك فسأذهب غدا الى بريغاديروفكا وسأجلب لكم منهم ما تبغون. انكم تعلمون انهم بناءون ماهرون، ايها الشاب لماذا لا تجلس؟ أنا ليس لدى جهاز للتقطير في بيتي ولا أهتم بهذه الأشياء. لا شئ لدي. ماذا... وكيف استطيع ذلك؟ منذ اللحظة التي قالت فيها السلطة السوفييتية يجب ان لا يكون هذا فهمت أنا، فكيف اذن... هيا أيتها المرأة تحركي قليلا أكرمي ضيوفنا الأعزاء.

وبدا على الطاولة صحن ملىء حتى حافتيه بالقشطة، يصحبه ركام من الفطائر الصغيرة. ألح لوكا سيميونوفيتش لنتناول الطعام بأنفسنا دون كلفة أو تقيد... كان يلغو بصوته اللطيف الطيب مع مجاملات كريمة. ولاحظت انه عند دخول الطعام ارتجفت قلوب الاولاد: أما فولوخوف وتارانيتز فكانا لا يستطيعان ان يحولا انظارهما عن الطعام الشهي. وأما زادوروف فكان واقفا عند الباب يبتسم وهو خجل، وهو شاعر بأنه أصبح فى وضع لا مخرج منه. وأما كارابانوف الذى كان جالسا بقربى؛ فقد اغتنم الفرصة المناسبة ليهمس لى:

— أوه! يا للوغد! وماذا يمكن العمل؟ يجب أن نأكل لعنه الله! و أعدم الصبر ايها الكلب... و أعدم الصبر...

وجلب لوكا سيميونوفيتش كرسيا لزادوروف:

— كلوا إذن يا جيراننا الأعزاء... كلوا! كان فى الامكان ايضا جلب شيء من الفودكا ولكنكم الآن تسعون وراء ضبطها...

وجلس زادوروف قبالتي، وخفض بصره وابتلع نصف فطيرة وهو يغرق ذقنه بالقشطة. أما تارانيتز فقد أصبح له شاربان حتى اذنيه من القشطة. وكان فولوخوف يلتهم الفطيرة تلو الفطيرة دون ان يظهر أقل دلالة على انفعال ما.

وأمر لوكا سيميونوفيتش زوجته قائلا:

ـ هاتي لنا فطائر ايضا؛ يا إيفان أعزف لنا لحنا.

ولكن المرأة قالت:

ـ قد حانت ساعة الصلاة في الكنيسة!

أجابها زوجها:

ـ لا بأس... يمكنك أن تقوم بهذا لأجل ضيوفنا الاعزاء.

وأخذ ايفان الساكت ـ وهو ولد جميل حليق ـ يعزف لنا اغنية: «القمر يلمع». وكاد كارابانوف يسقط متدحرجا تحت المقعد من فرط الضحك:

ـ يا لها من زيارة عارضة!

وبعد ما شبعنا واستعدنا نشاطنا أخذنا نتحادث.

وكان لوكا سيميونوفيتش يؤيد بحماسة كبيرة خططنا التي تخص مزرعة آل تريبكي وكان على استعداد للمجئ لمساعدتنا بكل وسائله الاقتصادية.

ـ انكم لا تستطيعون البقاء هنا في الغابة؛ يجب أن تقيموا هناك باسرع وقت ممكن لأنه لا عين هناك ترعى وتشرف على الممتلكات. وينبغي لكم ان تأخذوا الطاحون. يجب أخذه... ان الكومبينات هذا لا يعرف كيف يدبر شئونه. فالفلاحون يشتكون. انهم يشتكون كثيرا. انهم بحاجة الى الطحين الناعم لصنع الحلويات والفطائر بمناسبة عيد الفصح فكيف يصنعها الفلاح ما دام العنصر الأساسي ينقصه وهو الطحين الناعم!

قلت له:

ـ بالنسبة للطاحون ليس لدينا جلد عليها.

ـ كيف «ليس لديكم جلد عليها..»؟ سوف نساعدكم. انك تعرف كم يقدركم الناس! ان الناس جميعا يقولون بصراحة: هذا رجل صالح.

وفى هذه اللحظة الشعرية برز تارانيتز عند الباب، وارتفع صراخ من الذعر من قبل ربة البيت فملأ الأسماع. كان الولد يمسك بيديه نصف انبيق رائع وهو القسم الاساسى؛ الحلزونى. وما كنا قد لاحظنا ان تارانيتز كان قد ترك صحبتنا.

قال تارانيتز:

ـ لقد وجدته فى السقيفة؛ ويوجد هناك أيضا فى الاعلى فودكا ما تزال ساخنة.

وأمسك لوكا سيميونوفيتش بلحيته وتجهم لحظة قصيرة. ثم استعاد رونقه فى الحال ودنا من تارانيتز ووقف أمامه مبتسما. وبعدئذ حك خلف أذنه وغمزنى بعينه:

ـ ان هذا الشاب سيكون نافعاً... ما دام الأمر كذلك فليس لدى ما أقوله. ولن انزعج؛ فهذا أمر القانون... انه القانون. أتريدون تحطيمه... كما أرى؟ هيا يا ايفان ساعدهم...

على ان زوجة فيرخولا ما كانت لتشاطر زوجها العاقل هذا الولاء للسلطة. فانتزعت الانبوب الحلزونى من تارانيتز وشرعت تصرخ:

– من سمح لكم بتحطيمه؟! من؟ انكم لم تصنعوه ليكون لكم الحق بتحطيمه! أيها الأولاد اللعينون، اغربوا من وجهى وإلا حطمت رؤوسكم!

ولم ينقطع صراخ زوجة فيرخولا ابدا. أما ليديا التى ظلت حتى تلك اللحظة رصينة عاقلة فقد حاولت ان تفتح مناقشة هادئة حول مضار الكحول غير المشروع ولكن ربة البيت كانت طويلة النفس لا ينتهى لها صراخ. كانت زجاجات الفودكا قد حطمت؛ وكان كارابانوف قد انجز بوساطة قضيب حديدى تحطيم الجهاز وسط الباحة؛ واستأذننا لوكا سيميونوفيتش بلطف ورجانا بان نمر لزيارته وهو يؤكد لنا بأنه ليس مغتاظا او منزعجا مما حدث؛ وصافح زادوروف يد ايفان فعزف هذا لحناً على أكورديونه المبحوح، ولكن زوجة فيرخولا لم تقف عن الصراخ والبكاء فكانت تتابع شتم سلوكنا

بالفاظ مختلفة؛ وتتنبأ لنا بمستقبل محزن ينتظرنا. وفي الباحات المجاورة ظلت النساء واقفات لا يتحركن، والكلاب تعوي وتنبح وتقفز وترمي بنفسها وهي مربوطة بأرسانها على طول الاسلاك الممدودة في الباحات، والناس المنهمكون بتنظيف الاصطبلات كان يلتفتون برؤوسهم.

ولم نقم بغير وثبة الى الشارع فسقط كارابانوف على اقرب سياج.

ــ أوه لقد خارت قواي وأيم الحق. لقد خارت قواي لأجل الاستقبال هذا استقبال... كيف قالت؟ ليكن ما أكلتموه من قشطة سما في بطونكم واحشائكم يقتلكم! كيف حال بطنك يا فولوخوف؟

لقد أتلفنا في ذلك اليوم ستة أجهزة للتقطير. وما من خسارة ألمت بجانبنا. وعندما خرجنا من آخر كوخ عثرنا على رئيس مجلس السوفييت الريفي سيرجي بيتروفيتش غريتشاني. كان الرئيس يشبه ماماي القوزاقي الشهير: رأس أسود وشاربان دقيقان معقوفان. وعلى الرغم من

حداثته فقد كان أفضل مزارع في المنطقة وكان يعتبر رجلا ذكيا. وصرخ بنا عن بعد:

ـ هيه... هناك قفوا!

فأطعنا .

ـ السلام عليكم؛ وطاب يومكم... واسمحوا لى ان اسألكم من قبيل الفضول كيف وعلى أي أمر استندتم في تدخلكم الكيفى لتحطيم أجهزة الناس؟ وهذا شيء لا يحق لكم أن تقوموا به.

ورفع شاربيه وتفحص بهيئة الباحث المدقق وجوهنا غير المشروعة.

وقدمت له بصمت أمر التفويض «للتدخل الكيفى».

فقلبه طويلا بين أصابعه وأعاده اليّ ممتعضا.

ـ هذا اجازة لكم وتفويض. حقا ولكن الناس انزعجوا. اذا استطاعت اى اصلاحية أن تصنع صنيعكم فلن يكون في المستطاع إذ ذاك القول عن السلطة السوفييتية انها يمكنها ان تنتهى الى نهاية خيرة. فانا بنفسى أحارب صانعي السامو غون.

فقال تارانيتز بلطف:

ـ ولكن انت ايضا لديك جهاز في البيت...

قال هذا بعدما كانت عيناه تريان كل شيء؛ فانطلقتا تتفحصان وجه الرئيس بدون رسميات.

والتفت الرئيس بضراوة صوب هذا الصعلوك:

ـ أنت... هذا ليس من شأنك. ومن أنت؟ ولد من الاصلاحية؟ سنرفع هذا الأمر الى المراجع العليا، وسوف نرى اذ ذاك هل يسمح لحفنة من الجانحين ان يهينوا بحرية رئيس السلطة المحلية.

وعاد كل واحد منا من حيث أتى.

لقد كانت لحملتنا نتائج باهرة. ففي اليوم التالي قال زادوروف لزبائننا قرب معمل الحدادة:

ـ في يوم الأحد القادم سنصنع غير ذاك الصنيع. سوف تذهب الاصلاحية كلها، خمسون رجلا.

وكان القرويون يوافقوننا بهز لحاهم وباصواتهم:

ـ انكم صنعتم حسنا؛ فالحبوب قد فقدت ثم ان هذا شئ ممنوع؛ فاذن ان هذا لشئ صحيح.

وتوقف السكر في الاصلاحية وانقطع ؛ ولكن كارثة جديدة ظهرت وذر قرنها : انها القمار. فقد اخذنا نلاحظ أن هذا الولد أو ذاك كان يأخذ طعامه في المطعم بدون خبز ، وان العمل في الغرفة أو اى عمل غير مستحب كان لا يقوم به من عين له.

— لماذا تكنس انت اليوم وليس ايفانوف؟

— لقد طلب مني ذلك.

وأصبح التناوب بناء على الطلب شيئا مألوفا ، وتكونت جماعة معينة من هذا النوع من «الطالبين» ؛ وأخذ يزداد عدد الاولاد الذين كانوا يستغنون عن الطعام ويتركون حصتهم الى رفاقهم.

وفي اصلاحية للاولاد لا شيء أشد خطرا من لعب الورق. فان الورق يبعدهم عن محيط الاستهلاك العام ، ويحملهم على السعي وراء موارد اضافية. والوسيلة الوحيدة التي يمكنهم الحصول بها على ذلك انما هي السرقة. فسارعت لشن حملة على هذا العدو الجديد.

كان أوفتشارنكو قد هرب من الاصلاحية ؛ وهو ولد

نشيط مرح كان قد تعود على الحياة فى الاصلاحية. وان التحقيق الذى اجريته حول اسباب هربه لم تؤد الى شيء. وبعد يومين وجدته فى السوق فى المدينة. وقد حاولت بدون جدوى أن أعظه، فأبى أن يعود، وكان، وهو يكلمنى، فى حالة اضطراب شديد.

لقد كانت ديون القمار تعتبر فى مجتمع اولادنا الاحداث ديون شرف وان رفض تسديدها ما كان يمكن ان يؤدى الى الضرب فقط وغيره من وسائل العنف، ولكنه كان يؤدى ايضا الى الاحتقار العام.

وحالما عدت الى الاصلاحية مساء، استنطقت الاولاد باصرار:

ـ لماذا ذهب اوفتشارنكو؟

ـ وما يدرينا؟

ـ انكم تعرفون...

فخيم الصمت والسكون.

وفى اثناء الليل تلقيت مساعدة كالينا ايفانوفيتش واجريت تفتيشاً عاما. وقد اثارت دهشتى واستغرابى

النتائج: فقد اكتشفت تحت الوسائد وفى الصناديق وفى العلب وفى جيوب بعض الاولاد مستودعات كاملة للسكر. كان بورون اغناهم. ففى الصندوق الذى صنعه بنفسه باذنى قد استخرج منه ثلاثين رطلا من تلك الغلة. ولكن أطرف شئ كان عند ميتياغين. فقد كان يخبئ تحت وسادته فى قبعة عتيقة من فرو الخروف حوالي خمسين روبلا من النقود النحاسية والفضية.

واعترف بورون بصدق وبهيئة مرهقة ارهاقا شديدا:

– لقد ربحت هذا بالقمار.

– من أولاد الاصلاحية؟

– نعم!

واجاب ميتياغين:

– لن أقول شيئا.

كانت المستودعات الاساسية للسكر والأشياء التى هى من مصدر غير معروف، كالبلوزات، والمناديل، وحقائب اليد للسيدات هى الغرفة التى كانت فتياتنا الثلاث: أوليا؛ ورايسا وماروسيا يعشن فيها. وقد رفضن

أن يصرحن لمن هذه الأشياء. كانت اوليا وماروسيا تبكيان. اما رايسا فكانت تلتزم الصمت.

كن قد ارسلن ثلاثتهن الينا من قبل اللجنة لارتكابهن سرقات منزلية. ولعل اوليا فورونوفا قد حشرت بسائق الصدفة في حادث سيء كما يحدث احيانا للخادمات القواصر. اما ماروسيا ليفتشنكو ورايسا سوكولوفا فكانتا وقحتين جدا وباخلاق منحطة، زد على ذلك انهما قليلتا الادب في الكلام يشتركن في جلسات سكر الاولاد كما في جلسات القمار التي تجرى في غرفتهما في أغلب الأحيان. وكانت ماروسيا تتميز بطبيعة هسترية لا تحتمل فكانت كثيرا ما تهين رفيقاتها وتضربهن أيضاً، وكانت على الدوام في حالة شجار مع الاولاد أيضا لأتفه الأسباب؛ فكانت تعتبر نفسها مخلوقا «ساقطا» وكانت تجيب على كل ملاحظة ونصيحة اجابة واحدة:

– لا تزعج نفسك، فأنا فتاة ساقطة.

أما رايسا فكانت ضخمة جدا قذرة كسولة ضحوكة، ولكنها ليست بلهاء وهي مثقفة ثقافة نسبية. فقد سبق لها

ان كانت فى المدرسة الثانوية وكانت مربياتنا يحثثنها على الاعداد لكلية العمال. كان ابوها اسكافيا في مدينتنا ثم قتل منذ عامين اثناء شجار مع السكارى وكانت أمها تشرب الخمرة وتتمرغ فى حمأة البؤس. كانت رايسا تؤكد انهما ليسا بوالديها وانها لقيطة فى اسرة سوكولوف، إلا ان الاولاد كانوا يؤكدون ان رايسا كانت تكذب في كلامها:

ـ ستحكى عما قريب ان والدها كان أميرا.

كانت رايسا وماروسيا تسلكان سلوكاً مستقلاً تجاه الاولاد وكانتا تتمتعان ببعض تقديرهم باعتبارهما «لصتين» قديمتين ومجربتين، ولذلك كانتا على اطلاع على سر التفاصيل الهامة لعمليات ميتياغين المريبة واحتيالاته.

وبوصول هذا الأخير تعزز عنصر «اللصوصية» فى الاصلاحية كماً وكيفاً.

كان ميتياغين لصا من طبقة رفيعة؛ وكان ماهرا ذكيا وجريئا موفقا. وكان يبدو بكل هذا لطيفا كل اللطف

بشكل عجيب. لقد كان عمره سبعة عشر عاما؛ ولعله كان أكثر بقليل.

كان وجهه يحمل «سمة خاصة» فريدة في نوعها: حاجبان ناصعا البياض مكونان من الشعر الابيض كأنه الثلج. وعلى ما كان يقول كانت هذه العلامة تضره أحيانا في نجاح مشاريعه. ومع ذلك فلم يكن ليخطر بباله أنه في وسعه ان يتخذ نوعا آخر من العمل. ففي مساء يوم وصوله الى الاصلاحية، حدثني بحرية كثيرة بشكل ودي جدا:

— ان الأولاد يتحدثون عنك حديثا طيبا يا أنطون سيميونوفيتش.

— حسنا. وبعد؟

— هذا شيء جميل. فاذا ابدوا لك المودة فهذا أيسر شيء عليهم.

— ما دام الأمر كذلك ينبغي لك ان تحبني انت ايضا.

— أنا... هذا شيء آخر... فلن امكث طويلا في الاصلاحية.

ـــ ولماذا؟

ـــ وما الفائدة؟ على كل حال سأتابع السرقة.

ـــ هذه عادة يمكن التخلص منها.

ـــ هذا ممكن. ولكن أعتقد أنه لا داعى الى ذلك.

ـــ هذا مجرد ادعاء منك يا ميتياغين.

ـــ لا ابدا. ان السرقة لشيءٌ ممتع مسل؛ ويجب فقط ان يعرف المرء كيف يمارسها، ثم ينبغى له ان لا يهاجم اى امرىء كان: فهناك ركام من الافراد القذرين الذين خلقوا وجاءوا الدنيا لهذا الغرض. اما غيرهم فالسرقة جريمة محرمة عليهم.

قلت لميتياغين:

ـــ انت على حق بهذه النطقة. ولكن السرقة لا تضر الشخص المسروق بقدر ما تضر الشخص السارق.

ـــ واى ضرر اذن؟

ـــ اليك ما هو ذا: انت تعتاد السرقة وتفقد عادة العمل، فتنساق معها هادئا وتأخذ تشرب الخمرة، واذ

ذاك تكون رجلا قد انتهى امرك. وبعدئذ يكون السجن وما يتبعه وينجم عنه...

ـ فى السجن دائما خلق ايضا. وهناك كثير من الناس يرتعون بحرية يعيشون عيشة أسوأ مما فى السجن. ان معرفة هذا لأمر عسير.

ـ أسمعت شيئا عن ثورة اكتوبر؟

ـ وكيف لا! فقد حاربت مع الحرس الأحمر.

ـ هذا حسن! ان الناس الآن لن يعودوا يعيشون كما لو كانوا فى سجن.

وفكر ميتياغين ثم قال:

ـ ان هذا فى ضمير الغيب. اما الاراذل فسوف يبقى الكثير منهم دائما. انهم سيعيدون ما يخصهم بصورة او باخرى. انظر: اى اناس يحيطون بالاصلاحية ما أكثرهم..!

وعندما اتيت على لعب القمار وصفيت أمره بعدما استفحل عندنا، رفض ميتياغين ان يبين مصدر المال المخبأ فى قبعته.

ـــ هل سرقته؟

ـــ اتمزح يا انطون سيميونوفيتش؟ مؤكد انني لم اشتره فلم يزل كثير من الناس الحمقى على وجه الارض، فهذا المال جمعه الاغبياء ثم سلموه بتكريم الى عصابة من الاوغاد الجشعين. فلماذا اذن ازعج نفسي؟ ألا يحسن بي ان اكون انا الذي يأخذه. وقد أخذته ولكن لا يمكن اخفاؤه في اصلاحيتكم ولم يكن ليخطر ببالي انك ستقوم بتفتيش...

ـــ حسنا سآخذ المال لأجل الاصلاحية. سنقوم في الحال بإجراء ضبط بذلك؛ ونسجله في سجل الموارد... والآن لم يعد لي من حديث عنك.

وتحدثت عن السرقات الى الاولاد:

ـــ سامنع منعا باتا لعب الورق. فلن تعودوا لتلعبوا وتقامروا ابدا. انه سرقة لرفاقكم...

ـــ عليهم ألا يلعبوا بالقمار.

ـــ انهم يقومون به بفعل الحماقة والغباء. هناك كثير منكم يجوعون ويحرمون انفسهم من السكر والخبز. فبسبب

لعب القمار غادر اوفتشارنكو الاصلاحية، وها هو ذا في الشارع يبكي. وهو في سبيله الى الضياع في السوق.

وقال ميتياغين:

ـ نعم انها بالنسبة لاوفتشارنكو لحادثة قذرة.

وتابعت:

ـ ان الامر يعنى انه لا يوجد بينكم احد يدافع عن رفيق ضعيف؛ فانا اذن الذى سادافع عنهم. ولن يسعنى ان اقبل ان يجوع الاولاد وينهكوا صحتهم لان هؤلاء الاغبياء يتعاطون لعب الورق. فلن اقبل به ابدا والآن عليكم ان تختاروا. اننى ما كنت احب ان افتش مهاجعكم، ولكن بعد ما التقيت باوفتشارنكو في المدينة وهو يبكى؛ وبعد ما لقيته ضائعا ضالا؛ قررت ان لا ألتزم جانب المجاملة معكم. ولكن اذا أردتم فلنتفق فيما بيننا على انه لن يعود احد الى لعب القمار. فهل تستطيعون ان تعاهدونى عهد شرف على ذلك؟ ولكننى اخشى فقط... حول هذا الموضوع ألا يكون كلامكم وعهدكم عهد ثقة

وشرف؛ فهذا ما يبدو لى: اعطى بورون عهدا...

فهجم بورون الى الامام:

ـ هذا خطأ يا انطون سيميونوفيتش؛ انه لمن المعيب عليك ان تقول اشياء لا صلة لها بالحقيقة؛ فاذا بدأت تختلق الاكاذيب والاباطيل فانا لم اعط عهدا بالنسبة للقمار.

ـ وانا معك... اعتذر؛ هذا حق؛ وانا مخطئ اذ اننى لم افكر بان اطلب العهد منك بصدد ذلك وكذلك بصدد الفودكا...

ـ انا لا اشرب منها شيئا.

ـ حسنا... فلنضرب صفحا عن ذلك والآن ماذا تصنع؟

وتقدم كارابانوف ببطء الى الصف الاول، وهو مشرق الوجه لطيف قوي مع شيء من الوجاهة كعادته دائما. كانت تبدو عليه قوة الثور الذي نشأ فى السهوب؛ وكان يظهر انه محافظ عليها بارادته.

ـ هذا جلي واضح، ايها الاولاد. ان تنظيف الرفاق لاعبى القمار، ينبغى ان لا يتم. ولعلكم ستسخطون منى ولكننى سأكون ضد لعب القمار واريد ان اقول لكم: اننى لن اتجسس على احد، ولكن بالنسبة الى القمار لن أحجم عن هذا فسوف أتدخل بنفسي وآخذ بتلابيبكم. فعندما شاهدت اوفتشارنكو يذهب؛ فكرت فى الامر مليا: ورأيت كأنما هو ذاهب الى المقبرة... انه ـ كما تعلمون ذلك ـ ليست له مواهب اللص. ان بورون ورايسا هما اللذان اخذا ماله برمته فى القمار. فينبغى لهما ـ برأيي ـ ان يذهبا يبحثان عنه وان لا يعودا قبل ان يعثرا عليه.

فوافق بورون بحماسة قائلا:

ـ ولكن لا لزوم الى رايسا... سابحث عنه وأجده وحدى.

واخذ الاولاد يتكلمون جميعا. ان الاتفاق الذى توصلنا اليه سرهم كلهم. وصادر بورون بيديه

جميع ورق اللعب ووضعها في سطل، وصادر كالينا ايفانوفيتش السكر فرحا قائلا:

– شكرا ايها الاولاد! لقد وفرتم لنا كثيرا من السكر.

ورافقنى ميتياغين الى خارج المهجع وسألنى:

– هل يجب ان اغادر الاصلاحية..؟

فأجبته بحزن:

– لا... لماذا؟ فى وسعك ان تبقى ايضا.

– هذا سيان... سأتابع السرقة...

– ولكن: اسرق اذن.... فلست انا الذى سيتألم... وانما انت...

وتركنى اذهب مرتاعا.

وفى اليوم التالى سلك بورون الطريق الى المدينة بحثاً عن اوفتشارنكو. ودفع الاولاد رايسا على اثره... وكان كارابانوف يصرخ حتى أثار اصداء الاصلاحية كلها وهو يضرب على كتفي بورون قائلا:

– آه ... لم يزل فى اوكرانيا فرسان!

كان زادوروف ينظر من عتبة معمل الحدادة ويضحك من كل قلبه؛ فوجه الي الكلام بشكل ودي كعادته دائما:

ــ انها لعصابة رذيلة ... ولكن في وسع المرء ان يعيش معها مع ذلك.

وسأله كارابانوف ساخطا:

ــ وانت... ماذا تكون انت؟

فقدم نفسه متهيئاً:

ــ انا؟ أنا... سارق أباً عن جد، وانا الآن الكسندر زادوروف حداد في اصلاحية غوركي العملية.

فقال كارابانوف: ــ استرح! ــ وهو يلثغ بكلامه؛ متبخترا كالطاووس وطاف حول معمل الحدادة...

وفي المساء، عاد بورون وقد جلب معه اوفتشارنكو وهو سعيد وجائع.

١٠. «ابطال التربية الاجتماعية»

كانوا خمسة ومن بينهم انا. وكنا ندعى فى ذلك الوقت «ابطال التربية الاجتماعية». اما نحن فلم نكن لندعو انفسنا هكذا؛ بل لم يكن يخطر ببالنا اننا نقوم بعمل بطولى. لم نكن لنفكر بذلك ابدا؛ لا فى اول عهد الاصلاحية ولا فى عيدها الثامن.

ففى مجال الحديث عن البطولة ما كانوا يعنون القائمين على شؤون اصلاحية غوركى وحدهم فلذلك كنا فى قرارة انفسنا نجد فى هذه الصيغة مأثرة للتطبيل بها؛ كما يقتضى ذلك لرفع معنويات العاملين فى حقل بيوت الاطفال وغيرها من المؤسسات التى من نوعنا.

كانت هناك بطولات كثيرة فى ذلك الوقت، فى الحياة السوفييتية والنضال الثورى؛ اما عملنا فقد كان متواضعا جدا فى ظواهره ونجاحاته.

كنا اناسا شأننا شأن الآخرين تماما؛ فينا عيوب ونقائص كثيرة. ثم اننا كنا لا نعرف عملنا معرفة حقا؛

فقد كان نهار عملنا مليئا بالاخطاء والاعمال غير المحكمة ، واضطراب الا فكار. وقد كنا لا نميز خطوط حياتنا التربوية المقبلة الا مجزأة من خلال ضباب كثيف لا آخر له.

وكان في وسع المرء ان يقول عن كل خطوة من خطواتنا ما يحلو له ويريده؛ اذ اننا كنا نمشي على غير هدى. فلم يكن في عملنا غيرما يثير الجدل والنزاع. وعندما كنا نشرع بالجدل والمناقشة كان هذا ادهى وامض... فلم يكن ليصدر عن مناقشاتنا اى ضوء للحقيقة ينير السبيل.

ولم يكن عندنا غير نقطتين لا تثيران الريب والشك وهما: عزيمتنا الراسخة على ان لا نترك مهمتنا؛ وان نقوم بها حتى النهاية؛ حتى ولو كانت تدعو الى الحزن والرثاء؛ وكانت هناك ايضا الحياة نفسها... حياتنا في الاصلاحية وحياة الناس الذين كانوا يحيطون بنا.

وعندما وصل آل اوسيبوف لم يقربوا اولاد الاصلاحية لقذارتهم. كانت أنظمتنا تقتضي ان يتناول المربي المناوب طعامه مع الاولاد. ولكن ايفان ايفانوفيتش

وزوجته صرحا لى تصريحا قاطعا انهما لن يأكلا على طاولة الاولاد نفسها؛ لانهما لا يستطيعان ان يسيطرا على تقزز نفسيهما.

فقلت لهما:

– سوف نرى فيما بعد.

فى خلال مناوبة ايفان ايفانوفيتش فى المهجع ليلا، ما كان ليجلس ابدا على سرير احد الاولاد ولم يكن هناك من شيء غيرها؛ فكان يمضى وقت حراسته كله، وهو منتصب على قدميه. وكان هو وزوجته يقولان لى:

– كيف تستطيع ان تجلس على هذا السرير، انه مليء بالقمل.

فكنت اقول لهما:

– هذا ليس بذى شأن. لسوف تخف حدته؛ ولسوف نأتى على القمل كله؛ او سنتدبر الامر بشكل من الاشكال.

وبعد ثلاثة اشهر ما كان ايفان ايفانوفيتش ليأكل

متحمسا على طاولة الاولاد فقط، بل فقد عادته ايضا بحمل ملعقته الخاصة معه. كان يأخذ احدى الملاعق الخشبية العادية من الكومة التي كانت على الطاولة؛ وكان يكتفي بوضعها بين اصابعه من اجل الطمأنينة.

وعند المساء، في المهجع كان ايفان ايفانوفيتش يجلس على سرير وسط حلقة صاخبة ليلعب لعبة «السارق والجاسوس». كانت اللعبة تقوم على توزيع بطاقات بين المشتركين، كتب عليها العبارات التالية: «سارق» «جاسوس» «قاضي التحقيق» «القاضي» «الجلاد»، الخ..، وكان الجاسوس يصرح بالدور الذي طلع له بالحظ. فكان يأخذ بيده مقرعة، ويبحث من كان السارق.. وكان الجميع يمدون اكفهم صوبه وكان ينبغي له ان يعين اليد الآثمة بضربها ضربة واحدة. فكانت تقع الضربة عادة على القاضي او المحقق وهؤلاء المواطنون الشرفاء الذين يجرحهم بشكوكه وشبهاته كانوا يضربون على يده الممدودة عددا من الضربات المعينة جزاء لهذه الاهانة. فاذا حزر

الجاسوس في المرة التالية وكان مصيبا؛ فان قصاصه ينتهي؛ ويبدأ قصاص السارق؛ ويصدر القاضي حكمه: خمس ضربات قاسية او ستا ... او خمس ضربات ليست قاسية كل القسوة، الخ. ويتناول الجلاد المقرعة ويقوم بمهمته.

ولما كانت الادوار تتغير باستمرار فيتحول السارق في الدور القادم الى قاض او جلاد، كان سحر هذه اللعبة ومتعتها يكمنان بشكل رئيسي في تناوب القصاص والانتقام. فالقاضي القاسي او الجلاد الصارم يصبحان جاسوسا او سارقا فيجدان انفسهما يثابان اضعاف مضاعفة من قبل القاضي او الجلاد اللذين يقومان بهذا العمل؛ فيذكران اذ ذاك كيف يعاملان الآخرين.

كانت ايكاتيرينا غريغوريفنا وليديا بيتروفنا تلعبان ايضا في هذه اللعبة ولكن الاولاد كانوا يبدون تجاههما سلوكا مليئا بالمروءة والشهامة؛ فاذا ضبطت احداهما وكانت سارقة فقد كانوا يصدرون اخف العقوبات، ويتخذ الجلاد الذي يطبق العقوبة ألطف وضع؛

ويقتصر على مسح المقرعة على سطح اليد الناعمة المؤنثة.

وعندما كانوا يلعبون معى كانوا يحرصون على تقدير مدى احتمالى وجلدى فلم يكن امامى اذ ذاك الا ان اشمخ واتجالد. وعندما اكون قاضيا كنت اصدر على السارقين عقوبات شديدة جدا حتى ان الجلادين انفسهم كانوا يرتاعون منها؛ وحينما يقع على عاتقى امر تنفيذ الاحكام كنت اقوم بتنفيذها بشكل يحمل الشخص المجازى وقد تخلى عن كل اعتبار، على ان يصيح:

ـ يا انطون سيميونوفيتش هذا ليس لعبا ابدا!

على اننى بالمقابل كنت انال منها بالنسبة لمقامى: فاعود دائما الى بيتى ويدى اليسرى منتفخة من الضرب: فقد كان تبديل اليد ينافي الرجولة؛ وكنت محتاجا الى اليد اليمنى لاجل الكتابة.

وكان ايفان ايفانوفيتش قد تبنى خطة النساء بجبن وفزع ، فكان الاولاد فى اول الامر يعاملونه معاملة

لطيفة؛ فوجهت اليه كلمة بشأن ذلك وقلت له: ان هذه ليست خطة حسنة ـ فالاولاد ينبغي لهم ان يكونوا جلودين جريئين. ويجب ان لا يخشوا الخطر وكذلك العذاب الجسماني. فلم يكن على وفاق معي حول هذه النقطة.

وفي ذات مساء كنت في نفس حلقة اللعب معه؛ واصبحت قاضيا؛ فاصدرت حكما عليه باثنتي عشرة ضربة قاسية؛ واصبحت في الدور التالي جلادا فضربته ضربا عنيفا على يده، فتملكه الغضب وانتقم مني بعد ذلك. وكان بعض من «اصحابي الطيبين» لا يريدون تركه بدون معاقبته على هذا السلوك تجاهي؛ فكانوا يرغمونه على مد يده الثانية.

وفي المساء التالي حاول ايفان ايفانوفيتش ان يتهرب من «هذه اللعبة الوحشية» ولكنه تملكه الخجل بدافع من سخرية الاولاد العامة. وعلى اثر ذلك تحمل بشرف هذا النوع من الاختبار دون ان يقبل تضرعا والتماسا عندما يصبح قاضيا؛ ودون ان يتضرع في دور الجاسوس او السارق.

كان آل اوسيبوف يشتكيان كثيراً من نقل القمل الى مسكنهما.

فكنت اقول لهم:

ــ ان محاربة القمل ومناضلته لا تكون عندكما في البيت بل يجب ان تكون في المهجع....

وناضلنا؛ وحصلنا بجهود كبيرة على طقمين من الشراشف وبدلتين لكل نزيل. كانت هذه البدلات مصنوعة من قطع وفضلات ولكنها عرضت على اداة التعقيم والتطهير فلم يبق فيها الا اقل ما يمكن من الحشرات. كان القضاء عليها قضاءً كاملا امرا لم يتم بسرعة بسبب اقبال اشخاص جدد بشكل دائم وعلاقاتنا مع الفلاحين ولاسباب اخرى ايضا.

وقد كان شغل المربين يتألف بشكل رسمى من مناوبة عامة؛ وخدمة الاعمال وخدمة الليل. زد على ذلك التدريس في المدرسة صباحا.

ان المناوبة العامة كانت عملا شاقا كل المشقة؛ فهى تبدأ منذ الساعة الخامسة صباحا حتى نفير النوم...

فالذى كانت تقع على عاتقه هذه المهمة كان لا بد له من ادارة كل نشاط النهار وان يراقب تسليم الاغذية وتنفيذ الاعمال ويحكم فى الخلافات والمنازعات ويصالح المتشاجرين ويقنع المحتجين ويناقشهم ويحصى الغلال والموارد ويتحقق من الاشياء المخزونة عند كالينا ايفانوفيتش ويسهر على تبديل الشراشف والثياب. كانت شواغله عديدة جدا حتى انه منذ مطلع السنة الثانية قُبل فى مساعدته اكبر اولاد الاصلاحية الذين يحملون شارات حمراء على سواعدهم.

فكان المربى المناوب على الأعمال يساهم فى اى قسم منها؛ ومن العادة ان يساهم فى العمل الذى كان يضم اكبر عدد من الاولاد او الاحداث الجدد. وقد كان يساهم فيها مساهمة واقعية. وبدون ذلك يكون الامر مستحيلا فى ظروفنا — فكان يشتغل فى المعامل وفى جولات الغابات لجلب مؤونة الحطب؛ وفى الحقول والبستان وفى الترميمات.

وبعد حين قليل تحولت خدمة الليل الى عمل شكلى

تقريبا: ففى المساء كان كل المربين يحضرون الى المهجع سواء كانوا مناوبين ام لا؛ ولم يكن فى ذلك اية مأثرة: فلم يكن لدينا من مجال نذهب اليه، فالاقامة فى مساكننا الفارغة لم تكن ممتعة ابدا بل انها مخيفة قليلا فى ساعات الظلمة على ضوء اسرجتنا بينما كانت نظرات الاولاد الحادة ذوى الوجوه المرحة فى المهاجع بعد تناول الشاى مساء تترقب بصبر فارغ دخولنا ومعنا ركام من الحكايات الحقيقية او الخيالية وعدد من المسائل التى تنتظر البحث فى مواضيع الأحداث الجارية؛ او فى مواضيع سياسية وفلسفية وادبية وجميع انواع الالعاب والبدء بلعبة «الهر والفأر» والانتهاء الى لعبة «السارق والجاسوس». وفى هذا المحفل كانت تناقش ايضا احداث حياتنا المختلفة كتلك الاحداث التى سبق ذكرها؛ ونغتاب جيراننا فلاحى القرية؛ ونناقش تفاصيل تجهيز الاصلاحية الجديدة والحياة السعيدة التى تنتظرنا هناك.

وكان ميتياغين فى بعض الاحيان يقص حكايات؛ فكان يبدى فيها موهبة عجيبة اذ كان يعرف سرد القصة

بالعناصر المسرحية وحركاتها الكثيرة. كان ميتياغين يحب الصغار وكان هؤلاء يستمتعون خصوصاً بحكاياته. وقد كان الشئ العجيب فيها غائبا تقريبا: كانت هذه الحكايات تعرض مشاهد للموجيك؛ بعضهم غبى وبعضهم ذكى؛ وللاغبياء النبلاء، وللحرفيين ذوى الروح الدقيقة وللصوص الجريئين الموفقين، ولرجال الشرطة المخدوعين وللجنود البواسل المظفرين دائما وللرهبان المتبخترين الحمقى.

وكنا ننظم احيانا عند المساء مطالعات مشتركة. وقد بدأت مكتبتنا تتكون منذ اليوم الاول وذلك بكتب اشتريتها او طلبتها من لدن الأفراد. وقد كان لدينا فى اواخر الشتاء جميع المؤلفات الكلاسيكية تقريبا؛ وكذلك عدد من المؤلفات السياسية و الزراعية. وقد اسعدنا الحظ باخذ نصيب كبير من الكراسات العلمية المبسطة من مستودعات مصلحة التعليم العام فى المقاطعة.

كان عدد كثير من اولادنا يهوى المطالعة؛ وقد كان بعيداً كل البعد ان يكون فى وسع الجميع استيعاب كتاب باكمله. وهذا ما دعانا لان نقوم بهذه المطالعات بصوت

مرتفع كان جميعهم يشتركون فيها بشكل عام. كان الذى يقرأ هو انا او زادوروف الذى كانت له لهجة القاء موفقة. وفى خلال الشتاء الاول قرأنا كثيرا لبوشكين، وكورولنكو، ومامين سيبيرياك، وفيريسايف، وبشكل خاص لغوركى.

كانت مؤلفات غوركى تحدث تأثيراً كبيراً فى نفوس جمهورنا ولكنه تأثير ذو وجهين. وقد كان كارابانوف وتارانيتز وفولوخوف وغيرهم يتأثرون من رومانتيكية غوركى بيد انهم ما كانوا ليريدوا ان يفهموا تحليله ويستمتعوا به. وقد كانت عيونهم تلتهب للاستماع الى «ماكار تشودرا» وكان ايغنات بطل القصة «فوما غوردييف» يدفعهم الى اطلاق آهات العجب والمفاجأة؛ والى هز قبضات الايدى. ولكن مأساة «الجد ارخيب وليونكا» كانت تتعبهم وتضجرهم. وقد كان المشهد الذى يحضر فيه العجوز غوردييف هدم سفينة «بوياريتا» التى تخصه بفعل الجليد المنهار، اقول كان هذا المشهد يسر كارابانوف بوجه

خاص، فكان يصرخ بحماسة وقد تجهم وجهه وسادت صوته نبرة حزينة:

ــ هذا رجل! آه! ليت جميع الناس كانوا مثله!

وكان يستمع بنفس الاعجاب الى موت ايليا فى قصة «الثلاثة» قائلا:

ــ انه لرجل حازم صارم! ان هذا على الاقل هو الموت الحق: وهو ان يضرب المرء رأسه على الصخر!

كانت حماسة اولادنا الرومانتيكيين تثير ضحكات ميتياغين وزادوروف وبورون وسخرياتهم بشكل واضح نفاذ:

ــ انكم لا تفهمون شيئا مما يقال لكم ايتها الرؤوس الفارغة.

ــ انا لا افهم شيئا؟

ــ وكيف؟ ما هو الشيء الحسن فى كسر الرأس على صخرة من الصخور؟ ان ايليا لثور أحمق أرعن. فمنذ ان ترمقه امرأة ما بعينها تدمع عيناه. لو كنت انا مكانه

لكسرت عنق تاجر آخر؛ إن هؤلاء يجب قطع اعناقهم جميعا؛ وصاحبك غورديف معهم.

وكان الفريقان لا يتفقان في اصدار حكمهما الا على لوكا في مسرحية «الوهاد». اما كارابانوف فكان يخرج عن طوره قائلا:

ــ هؤلاء الشيوخ... انهم اشخاص مضرون؛ انه يضجر الدنيا من فرط ثرثرته ثم يذهب فجأة ولا يبقى له اثر.. هؤلاء الشيوخ اعرفهم انا ايضا.

وقال ميتياغين:

ــ ان لوكا لرجل مزيف ولكنه ذكي. انه يحتال على كل خبيث، ويفهم كل شئ فهو تارة يحتال وتارة يسرق وتارة يتظاهر تقيا طيب القلب. وهكذا يعيش.

اما كتابا «طفولتي» و«في الناس»، فكانا يؤثران فيهم الى ابعد حد. فكانوا يستمعون الى قراءتهما وانفاسهم معلقة؛ ويرجون متابعة القراءة «حتى الى منتصف الليل». كانوا في اول الامر لا يصدقونني وذلك عندما كنت اقص

القصة الحقيقية لحياة مكسيم غوركى لانها كانت تثير دهشتهم، وفجأة اصبحت هذه المسألة موضع هواهم وحبهم:

ـ هذا يعنى فى آخر الامر ان غوركى شأنه كشأننا؟ هذا شيء عجيب حقاً!

كانت هذه الفكرة المثيرة تغمر نفوسهم بالفرح.

واصبحت حياة مكسيم غوركى كأنها جزء من حياتنا. كانت حوادثها معينا لا ينضب لمقارناتنا والقابنا؛ وكانت تؤلف مواضيع لمناقشاتنا ومعرضا لتقدير القيم الانسانية.

وحينما قامت على بعد ثلاث كيلومترات منا اصلاحية الاولاد التى تحمل اسم «كورولنكو» (١٢) لم يحسد اولادنا اصلاحيتهم هذه الا مدة قصيرة جداً. فقال زادوروف:

ـ ان هذا يلائم هؤلاء الاولاد الصغار احسن الملاءمة وهو ان يدعوا اولاد «كورولنكو» اما نحن فاولاد غوركى.

وكان كالينا ايفانوفيتش مع هذا الرأى ايضا:

ــ ان كورولنكو هذا قد رأيته حتى لقد تحدثت معه. انه رجل مناسب كل المناسبة ولكن انتم هذا امر غني عن البيان فانكم صعاليك قولا وفعلا.

لقد اخذنا اسم اصلاحية غوركي بدون اى قرار او موافقة رسمية. ففي المدينة اعتاد الناس تدريجيا على ما نسمي به هكذا دون ان يقوم اى اعتراض على اختامنا الجديدة وطوابعنا التى تحمل اسم الكاتب غوركي. ومع الاسف فقد ضاع منا وقت كثير حتى تمكنا من الدخول في التراسل مع مكسيم غوركي، لانه ما من امرئ في مدينتنا كان يعرف عنوانه. ولم يكن ذلك الا في عام ١٩٢٥ حين قرأنا في مجلة اسبوعية مصورة مقالا عن حياة غوركي في ايطاليا؛ وكانت قد نقلت الكتابة الايطالية لاسمه: ماسيموغوركي (Massimo Gorky). واذ ذاك كنا نرسل له رسالة في كل فرصة بهذا العنوان الموجز كل الايجاز: ماسيمو غوركي ــ ايطاليا.

كانت قصص غوركي وقصة حياته تسر الكبار

والصغار حتى هؤلاء الصغار الذين كانوا اميين جميعهم تقريبا.

كان عندنا زهاء اثنى عشر ولدا فى سن العاشرة وما فوقها. وكان هذا العالم الصغير مليئا بالحياة؛ فيه الاحتيال والميل الى السرقة فيما يخص التوافه وعلى الدوام وسخ الى ابعد حدود الوساخة. كانوا يصلون دائما الى الاصلاحية فى حالة تدعو الى الرثاء: وهم هزيلو الجسم؛ أو مرضى بداء الخنازير؛ ومصابون بالجرب وكانت معاونتنا الطبية وممرضتنا الطيبة المتطوعة ايكاتيرينا غريغوريفنا لا تقف عن الاهتمام والاعتناء بهم. كانوا على الدوام معلقين باذيالها على الرغم من رزانتها ووقارها. كانت تعرف كيف تؤنبهم تأنيب الام وتوبيخها، وتعرف جميع ضعفهم ولا تصدق احدا منهم فى كلامه (لم استطع التخلص من هذا العيب) ولا تغضى ابدا على اساءة لهم وكانت بصورة علنية تستشيط غضبا من جميع اعمالهم الدنيئة.

على انها كانت تملك بالمقابل موهبة عظيمة فى

محادثة ولد مع ابسط العواطف انسانية عن أمه وعما سوف يصبح فيما بعد: بحارا اوضابطا في الجيش الاحمر او مهندسا ــ وقد كان في وسعها ان تشعر بالاثم المريع في اوسع مداه، ذلك الاثم الذي ألحقته حياة لعينة خرقاء بهؤلاء الاولاد. وقد كانت تعرف علاوة على ذلك كيف تريشهم وتسمنهم: فتخرق خلسة جميع أنظمة مستودعنا وقوانينه؛ فكانت تنتصر بكلمة حلوة على تعنت كالينا ايفانوفيتش.

اما الاولاد الكبار في الاصلاحية الذين رأوا الرابطة التي تكونت بين ايكاتيرينا غريغوريفنا وجماعة الاطفال الصغار، فلم يكونوا ليقوموا عائقا امامها؛ بل على العكس كانوا يرضون دائما بسماحة طيبة ان يقوموا بالخدمات الصغيرة التي تطلبها منهم: كالاشراف حتى يستحم طفل من الاطفال كما يجب وينظف نفسه تنظيفا مناسبا ومنعه من التدخين وتمزيق ثيابه والخصام مع الآخرين وهكذا دواليك.

وهكذا يعود قسم كبير من الفضل الى ايكاتيرينا

غريغوريفنا فى اصلاحيتنا إذ أصبح الكبار يحبون الصغار دائما ويسلكون معهم سلوك الاخوة الكبار بعطف وحزم ورعاية.

١١. انتصار آلة البذار

لقد بدأ الامر يزداد وضوحا بان استغلال اصلاحيتنا الاولى شيء عسير. فاخذت انظارنا تتجه بازدياد صوب الاصلاحية الجديدة على ضفاف كولوماك ببساتينها المزدهرة ازدهارا رائعاً فى الربيع وبحقولها ذات الاراضى اللامعة والتربة الطيبة السوداء.

غير ان الترميمات كانت تتقدم تقدما بطيئا جدا. فالنجارون الذين عهدنا اليهم بأجرة زهيدة كانوا يعرفون الى حد ما صنع اكواخ للفلاحين ولكن جهودهم كانت تذهب سدى عندما يصبح الامر بصدد سقف معقد نوعا ما. وما كنا لنستطيع الحصول على الواح زجاجية باى ثمن كان. زد على ذلك انه ما كانت عندنا الدراهم

وكانت عمارتان او ثلاث عمارات قد اصبحت فى ذلك الحين مقبولة الشكل فى اواخر الصيف؛ ولكن فقدان الالواح الزجاجية كان يمنعنا من الاقامة فيها. وكنا قد انجزنا اصلاح بعض الاجنحة الصغيرة، ولكنها كانت تستعمل مساكن للنجارين ومصلحى المداخن والحراس. ولم يكن هناك من فائدة فى نقل الاطفال اليها؛ اذ كانوا لا يجدون فيها شيئا يشتغلون به كمعامل وحقول زراعية جاهزة.

كان اولادنا الاحداث يقصدون كل يوم الاصلاحية الثانية حيث كانوا يقومون بتنفيذ قسم كبير من الاعمال. وفى الصيف كان عدد من الاولاد ينصبون خيامهم ويعيشون تحتها ليشتغلوا بالبساتين؛ وكانوا يبعثون الى المنزل الرئيسى بعربات مليئة بالتفاح والكمثرى. وبفضلهم اخذت بساتين الثمار لآل تريبكي مظهرا ان لم يكن كامل الترتيب فانه على الاقل مناسب مقبول.

وكان سكان القرية غونتشاروفكا منزعجين جدا من مجيء ارباب جدد الى خرائب المنطقة؛ ناهيك عن انهم

ارباب جياع عراة مثلماهم موضع الشبهة والارتياب. وكانت بطاقتنا بامتلاك قطعة ارض حجمها ٦٠ هكتاراً باطلة تقريبا وغير متوقعة بالنسبة إلي: وقد كانت اراضي آل تريبكي يستغلها الفلاحون منذ عام ١٩١٧. وكان اضطرابي وقلقي مبعثا لابتسام الناس في المدينة:

ـ ما دمت قد استلمت البطاقة وليس في الامر خطأ فقد اصبحت الارض لكم؛ فاقيموا فيها واعملوا!

ولكن سيرغي بيتروفيش غريتشاني رئيس مجلس السوفييت الريفي كان له رأي آخر.

ـ انكم تفهمون ماذا يعني هذا؟ وذلك بعدما حصل الفلاح الكادح على الارض في حدود شرعية القانون. ان هذا يعني انه سيواصل عمله بحراثتها واذا جاء احد بعد ذلك وحرر بطاقات واوراق اخرى فانه ـ وهذا شئ اكيد وثابت ـ سوف يغمد خنجره في ظهور العاملين هناك. لذا فيحسن بكم الا تركنوا الى بطاقتكم وتبقوا هادئين.

كانت السبل التى تؤدى الى الاصلاحية الثانية تنفذ الى نهر كولوماك الذى يجب قطعه بزورق. فنظمنا نقطة عبورنا على هذا النهر باقامة ولد من الاصلاحية بزورق يكون على المناوبة دائما. ولم يكن فى المستطاع اجتياز النهر بالعربات او الخيول بشكل عام الا بالدوران حتى الوصول الى جسر غونتشاروفكا. وفى هذه القرية كنا نتلقى استقبالا عدائيا. وعند رؤية معداتنا التافهة كان الفلاحون الشبان يسخرون منا قائلين:

– هيه! ايها الصعاليك ذوو الاطمار البالية! متى ستنهون من نثر قملكم على جسرنا؟ انكم تضيعون وقتكم هناك. سنعرف كيف نطردكم من املاك آل تريبكي.

واقمنا فى غونتشاروفكا ليس على اننا جيران مسالمون وادعون، بل على اننا دخلاء وغزاة. ولو كنا فى هذا الوضع الحربى لم نظهر حزما ولم نبد اننا مستعدون للقتال والصراع لكنا اضعنا الارض لا محالة واضعنا معها الاصلاحية. كان الفلاحون يفهمون ان الخلاف لن يسوى فى مكاتب الدوائر، بل فى مواطن الخلاف نفسها؛ فمنذ ثلاث

سنوات خلت كانوا يحرثون اراضى آل تريبكي، فاكتسبوا على هذا النحو اعتبار مرور الزمن الذى كانت احتجاجاتهم تعتمد عليه. وكان الامر يقتضيهم اطالة هذه المدة مهما كلف من ثمن لأن آمالهم جميعها بالنجاح كانت تكمن في هذه السياسة.

وكانت طريقتنا على نفس الشاكلة تماما؛ فكانت فرصتنا الوحيدة تقوم على العمل باسرع ما يمكن لاستغلال الارض المتنازع عليها.

وكان المهندسون قد حضروا خلال الصيف لقياس حصتنا؛ ولكنهم كانوا يخافون من الظهور بهذا المظهر مع ادواتهم فاقتصروا على تعيينها لنا على المخطط بالاشارة الى الحفر ومجارى السيول والادغال التى ينبغى لنا ان نمرر حدود منطقتنا عبرها. فتزودت بمحضر ضبطهم وقصدت قرية غونتشاروفكا وأنا مصطحب معى كبير اولادنا.

كان رئيس مجلس السوفييت الريفى فى ذلك الحين صاحبا قديما لنا؛ وهو لوكا سيميونوفيتش فيرخولا.

ءاستقبلنا استقبالا وديا لطيفا ورجانا ان نجلس ولكنه لم ينظر الى المخطط الذى رسمه المهندسون؛ وابتدرنا قائلاً:

ـ يارفاقى الاعزاء!! ليس فى وسعى ان اصنع شيئا. ان الفلاحين يحرثون هذه الارض منذ امد بعيد وليس فى مستطاعى ان امس الفلاحين بسوء او ضرر. فاطلبوا ارضا اخرى غيرها.

وحينما اقحم القرويون محاريثهم فى ارضنا. نصبت اعلانا يصرح بان الاصلاحية لن تدفع اجرة الحراثة التى تجرى فى ارضنا.

وما كنت لأومن بقيمة امثال هذه التدابير؛ ولا اصدقها لان هذه الفكرة التى كانت تخامر نفسى كانت تشل فكرى وتخيفنى وهي أنه: يجب انتزاع الارض من ايدى الفلاحين... الفلاحين الكادحين وهى ضرورية بالنسبة لهم فى معاشهم كضرورة الهواء فى حياتهم.

الا انه ذات مساء، بعد امد قليل جاءنى زادوروف الى المهجع بقروى شاب لم اكن لاعرفه. وكان زادوروف محتدا:

— ليس لك الا ان تستمع اليه! فاستمع له!

وكان كارابانوف يرقص رقص الحماسة و يصرخ دونما داع فى المهجع كله:

— اوه ليت احدا يسلمنى فيرخولا!

واحاط بنا الاولاد.

كان الزائر الشاب احد اعضاء الشبيبة الشيوعية فى قرية غونتشاروفكا.

— انتم كثيرون هنا اعضاء الشبيبة الشيوعية؟

— نحن ثلاثة فقط.

— لا اكثر؟

— لعلك تعلم اننا لسنا اقوياء هنا؛ وهذه قرية الكولاك: فالكولاك هم الاسياد هنا وقد ارسلنى اولادنا لاقول لكم ان تنتقلوا الى هناك على عجل؛ واذ ذاك سيمضى الامر بسرعة! واقول لكم ان اولادكم اقوياء جريئون. آه! لو كان عندنا ما عندهم.

— اجل... ولكن لدينا متاعب مع الارض.

— لاجل هذا تماما قد جئت انا. خذوها قسرا؛

ولا تقيموا اعتبارا لهذا الكلب الاشقر لوكا. انت تعرف: لمن الارض التى اعطيت لكم هناك؟

ــ لمن؟

ــ قل ذلك! قل ذلك يا سبيريدون.

وأخذ المخاطب يعد وهو يثني أصابع يده:

ــ الى غريتشانى اندرى كاربوفيتش...

ــ الى الجد اندرى؟ ولكنه لديه حقل هنا.

ــ كما تقول... وغريتشاني بيترو وغريتشاني اونوبري وستوموخا الذى يسكن قرب الكنيسة... اه! نعم... اسمه سيريوغا وستوموخا يافاتوخ ايضا واخيرا لوكا سيميونوفيتش نفسه. انهم ستة.

ــ ولكن ماذا تحكى لى؟ كيف أمكن ان يتم هذا الامر؟ ولجنتكم للفلاحين الفقراء اين تتطلع؟

ــ لجنتنا ليست قوية؛ وهكذا جرى الامر: ظلت الارض مع دار تريبكي وكانوا ينوون ان يعملوا بها امراً، ولكن مجلس السوفييت الريفى فى ايديهم فاخذوا الارض وهذا ما حدث...

فصاح كارابانوف:

ـ ولكن الامر الآن يختلف عن ذى قبل... فقاوم يا صاحبى لوكا!

وفى اوائل شهر ايلول ـ سبتمبر ـ كنت عائدا من المدينة وكان ذلك حوالى الساعة الثانية. وكانت عربتنا الاثرية ذات المقاعد تسلك الطريق غير مسرعة فكنت اصغى الى همس خافت لانطون براتشنكو الذى كان يسرد حكاية طويلة حول طبع «الاشقر» وانا افكر فى شؤون مختلفة للاصلاحية.

وفجأة سكت براتشنكو ونظر محدقا بعيدا على الطريق؛ ثم نهض وضرب جواده بالسوط وانطلقنا على الطريق بجلبة رهيبة. كان انطون يضرب حيوانه بالسوط ضربات شديدة؛ وهذا شئ لم يحدث له قط ان فعله، وكان يقول لى صائحا بشئ ما؛ ثم فهمت اخيرا ما كان يعنيه ويقصده.

ـ اولادنا.... اخذوا آلة البذار.

وفى المنعطف عند مدخل الاصلاحية تحاشينا

بدقة واحكام الاصطدام بآلة البذار منطلقة بسرعة زائدة؛ وهي تصدر ضجة غريبة من حدائدها. فقد كان زوجان من الخيل يجرانها باندفاع جنوني وقد جفلا من الصوت الراعد غير المألوف من عربتها. وانحدرت آلة البذار وهي تهدر من الطريق الحجري وتبعث باصوات حادة تصر على الرمل ثم طفقت تضطرب بضوضاء عالية على طريق الاصلاحية فقذف انطون بنفسه بعد ما رمى لي بعنان الخيل واسرع وراء آلة البذار. وكان كارابانوف وبريخودكو قد ظلا متشبثين باعجوبة بهذه الآلة في آخر الاعنة المشدودة. واوقف براتشنكو العربة العجيبة بعناء كبير. وبصوت انتابته بحة الانفعال والتعب قص علينا كارابانوف قصة الاحداث التي وقعت:

—كنا نضع قطعا من القرميد في الباحة؛ ونظرنا: فاذا آلة للبذار قادمة مع خمسة رجال متظرفين كل التظرف. وذهبنا لنراهم قائلين: اخرجوا من هنا... وقد كنا اربعة: نحن الاثنان واثنان آخران: تشوبوت... ومن ايضا؟

فاجاب بريخودكو:

ــ سوروكا ايضا.

ــ تماما سوروكا... فقلت لهم: اخرجوا من هنا؛ فلن تبذروا شيئا؛ لا شغل لكم هنا. وضرب رجل اسود منهم بالسوط لتشوبوت! واذ ذاك ضربه تشوبوت على فمه ثم ماذا رأينا؟ بورون هجم بهراوة غليظة... اما انا فقد امسكت جوادهم من عنانه، ولكن الرئيس انقض علي...

ــ اى رئيس؟

ــ كيف اى رئيس؟ صاحبنا الاشقر لوكا سيميونوفيتش؛ وحينئذ ركله بريخودكو من الخلف واذا به ينبطح على طوله في اخدود من الارض المحروثة. وقلت لبريخودكو: اقفز على آلة البذار وهربنا؛ وجئنا بسرعة الريح الى غونتشاروفكا. وكان اولادهم على الطريق... فمن اين نمر؟ فضربت الجوادين ومرقنا مروق السهم من على الجسر فنفذنا اخيرا الى الطريق... وظل ثلاثة من اولادنا هناك. وقد نالوا نصيبهم من الضرب من الفلاحين.

كان كارابانوف يرتجف كله من نشوة الظفر؛ اما

بريخودكو فكان هادىء الروع مبتسما فاخذ يلف سيكارة.
وتصورت في مخيلتي الفصول التالية لهذه الملحمة العظيمة: لجان، واستنطاقات، وكشف شرعي...

— ان نفسي مليئة بالغيظ منكم! في اى ورطة زججتم بنا!

فالتزم كارابانوف جانب الصمت متأثرا من الانزعاج المرتسم على وجهي.

— ولكنهم هم البادئون... والبادىء بالشر اظلم...

— حسنا تعالوا وسوف نرى الامر.

واستقبلنا بورون عند مدخل الاصلاحية. كانت بقعة زرقاء بادية على جبهته فاحاط به الاولاد وهم يمزحون. وكان تشوبوت وسوروكا يغتسلان قرب برميل مليء بالماء.

وامسك كارابانوف بورون من كتفه قائلا:

— انجحت في النجاة؟ انك لعظيم!

— لقد انطلقوا في بادىء الامر وراء آلة البذار، وعندما وجدوا انه لا سبيل الى اللحاق بها، انقضوا علينا، اوه! ما احسن الهرب!

ـ واين هم؟

ـ لقد عبرنا بقارب في حين انهم ظلوا على الضفة في هياط ومياط يصرخون... ويزعقون...

وسألت:

ـ هل بقى اولاد فى الاصلاحية؟

ـ بقى الصغار توسكا واثنان غيره. وهؤلاء لن يمسوهم.

وبعد ساعة حضر لوكا سيميونوفيتش وقرويان آخران الينا. فاستقبلهم الاولاد استقبالا حسنا، قائلين:

ـ هل جئتم من اجل آلة البذار؟

لقد كان جمهور المتفرجين الفضوليين فى مكتبى عظيما جدا. حتى ان المرء لم يكن فى وسعه ان يلتفت فيه. وقد كان الوضع محرجا.

واتخذ لوكا سيميونوفيتش مقعده قائلا:

ـ استدع الاولاد الذين ضربونى انا واثنين آخرين.

فقلت للوكا سيميونوفيتش:

ـ هيا، اذا ضربكم احد فاذهبوا واشتكوا حيث

تشاؤون. والآن لن استدعى احدا. قل لي ما يلزمكم ايضا ولماذا جئتم؟

ـ اترفض ان تستدعيهم؟

ـ ارفض.

ـ اها! اهذا رفض اذن؟ سنتكلم عن ذلك فى مكان آخر...

ـ حسنا جدا.

ـ ومن سيعيد آلة البذار؟

ـ الى من؟

ـ الى مالكها.

واشار الى رجل ذي وجه غجرى اسود وشعر كثيف منفوش.

ـ الك آلة البذار؟

ـ نعم لى.

ـ اذن سوف ابعث بها الى رجال امن المنطقة؛ على انها محجوزة بسبب عملها بدون اجازة فى حقل الآخرين؛ وارجو ان تعطينى اسمك.

ـ اسمى؟ غريتشانى اونوبرى. ولكن ماذا تقول: حقل الآخرين؟ انه حقلى؛ وقد كان دائما لى...

ـ لن نتكلم عن هذا هنا. سنجرى الان محضر ضبط بالاعتداء على املاك الآخرين وبضربات سددت لاولاد الاصلاحية وهم منهمكون بالعمل فى الحقول.

وتقدم بورون الى الامام قائلا:

ـ هذا هو الذى كاد ان يقتلنى.

ـ فى اى شئ تقحم نفسك انت؟ ان اقتلك؟ لما لك من قيمة!

وعلى هذا النمط استمرت المحادثة طويلا. ونسيت موعد الغداء ثم العشاء وكان نفير النوم قد عزف فى الاصلاحية واستمرت الجلسة. وكان تبادل الحديث بيننا وبين القرويين تارة هادئا وتارة اخرى ثائرا مليئا بالتهديد والوعيد وتارة اخرى هازلا ساخرا...

وصمدت مقاوما ورافضا ان اعيد آلة البذار؛ طالبا تحرير محضر ضبط. ولحسن الحظ ما كان الفلاحون ليحملوا اى اثر من الشجار الذى حدث؛ بينما اولاد

الاصلاحية كانوا يعرضون البقع الزرقاء والخدوش على اجسامهم. وحسم زادوروف الامر، فضرب بكفه على الطاولة والقى هذا الخطاب:

ـ سلموا ايها الاباء! ان الارض لنا ويحسن بكم ان لا تسعوا الى خصامنا. فلن تضعوا رجلكم في حقلنا. فنحن هنا خمسون فردا جريئا.

وفكر لوكا سيميونوفيتش مليا ثم مسح ذقنه وقال:

ـ حسنا، واخيرا لجهنم التي تحرقكم. ولكن ادفعوا على الاقل اجرة الحراثة.

فقلت ببرود:

ـ لا، فقد انذرتكم بذلك.

وساد صمت جديد.

ـ طيب... ـ اتفقنا ... اعيدوا لنا آلة البذار...

ـ وقعوا صك المهندسين المسّاحين...

ـ فليكن... هات لنوقع.

وفي الخريف بذرنا مع ذلك الجودار في الاصلاحية الثانية. وأصبح الجميع مهندسين زراعيين وكان كالينا

ايفانوفيتش يحسن الزراعة قليلا؛ وكان الآخرون اقل منه ايضا ولكنهم جميعا كانوا يجدون متعة فى العمل وراء المحراث وآلة البذار ما عدا براتشنكو فقد كان يجهد ويغار من الآخرين ويلعن الارض والجودار واهواءنا :

ـ ما من قمح يكفى... انهم يريدون الجودارا!

وفى شهر تشرين الاول ـ اوكتوبر ـ تغطت قطعة من الارض بخضرة النبتات النامية. وكان كالينا ايفانوفيتش يشير بفخر بعصاه صوب شرق السماء، قائلا:

ـ من هناك كما ترى ينبغى ان نبذر عدسا. انه لنبات حسن... العدس.

كان الجواد «الاشقر» ومعه الفرس «قاطعة الطريق» يحرثان ارض الربيع، وكان زادوروف يعود مساء وهو متعب مغبر ويقول:

ـ يكفى هذا. ان هذا العمل الفلاحى لمرهق. سأعود الى معمل الحدادة.

وفاجأنا الثلج ونحن فى منتصف العمل وكان هذا ابتداء محتملا.

١٢. براتشنكو ومفوض التموين

لقد جرى تطور مزرعتنا بمعجزات وآلام. فبالمعجزة نجح كالينا ايفانوفيتش — من فرط تعذيبه الناس وازعاجهم — بأخذ بقرة عجوز كانت حسب تعبيره «عقيمة بطبيعتها» وبالمعجزة حصلنا في ادارة اقتصادية متطرفة ليس لها الا صلة بعيدة بنا، على فرس سوداء ليست اصغر سنا من البقرة؛ وهي ذات بطن كبيرة منتفخة كما انها رعناء وكسلى وحصلنا على عربات كبيرة وصغيرة. وبالمعجزة قد تم ظهورها في اوضاعنا. وكان من جملة هذه العربات عربة صنعت ليجرها حصانان فكانت جميلة جدا ومريحة تلائم أذواقنا اذ ذاك؛ الا انه ما من معجزة كانت تستطيع ان تحصل لنا على زوجين من الخيل الملائمة.

كان رئيس المشرفين على خدمة الخيل عندنا، انطون براتشنكو الذي خلف غود في هذا المنصب بعد ما انتقل غود الى معمل الاحذية، وهو ولد نشيط جدا مليء بحب الذات وقد كانت تمر به لحظات قاسية

عندما كان يجلس على مقعد هذه العربة الانيقة ويقع على عاتقه ان يسوق الجواد «الاشقر» هذا الحيوان الهزيل الطويل القامة وتلك الفرس القصيرة ذات القوائم المقوسة التى سماها ظلما «قاطعة الطريق». وقد كانت تتعثر عند كل خطوة تخطوها؛ وقد تسقط احيانا على الارض فتقطع على هذا النحو فى وسط المدينة نسق عربتنا الجميل؛ ويلزم اذ ذاك الانهماك بانعاشها ورفعها تحت وقع سخريات السائقين واولاد الشارع. وكثيرا ما كان يحدث ان لا يحتمل انطون هذا السخريات فيدخل فى شجار مع المتفرجين الطارئين مما يسيء الى سمعة اصطبلات اصلاحية غوركى.

كان انطون براتشنكو يهوى الشجار فى كل الظروف والحوادث وكان يتغلب على كل خصم بالسباب فيوسعه شتما وسبا اذ انه كان مزودا لهذه الخصومات الكلامية بعتاد كامل من الالفاظ البذيئة ذات ايقاع جارح وذات تمثيل موهوب،

ولم يكن ولدا مشرداً؛ فقد كان والده خبازا فى

المدينة، وكان له ام. اما هو فقد كان الابن الوحيد لوالديه المحترمين؛ بيد انه منذ سنيه الاولى اخذ يكره المنزل الابوى الذى لم يكن ليعود اليه الا لاجل ان ينام؛ ثم ارتبط ارتباطا وثيقا بالاولاد المشردين و بلصوص المدينة. وقد امتاز بمغامرات شتى جريئة وممتعة ووقع عدة مرات فى سجن التوقيف الاحتياطى الى ان حط رحاله عندنا، ولم يكن ليناهز على الخامسة عشرة وهو صبى جميل ذو شعر مجعد وعينين زرقاوين وقامة ممشوقة. ولقد كان انطون متفتح النفس بشكل لا سبيل الى تصوره. فكان لا يستطيع ان يمكث لحظة وحيدا منفردا. وكان قد تعلم القراءة بصدفة سعيدة؛ وكان يعرف روايات المغامرات من اولها الى آخرها ولكنه كان لا يريد باى ثمن ان يدرس حتى اننى اضطررت ان اجلسه بالقوة والاكراه الى مقعده. وكان فى اول عهده يقوم بهرب متواصل الا انه كان يعود الى الاصلاحية بعد يومين او ثلاثة دونما اى شعور بالاثم والخطيئة.

على انه هو نفسه كان يحاول ان يقاوم ميوله ونزعاته الى التشرد ويسألني:

ـ امسكني امساكا أشد يا انطون سيميونوفيتش والا فسوف اصبح مشردا لا محالة.

ولم يكن يسرق شيئا من الاصلاحية. بل كان يحب الدفاع عن العدالة ولكنه كان عاجزاً تماماً عن ان يفهم منطق النظام الذى كان يتقبله فقط لانه يكون على وئام واتفاق مع هذا او ذاك من متطلباته فى كل حالة خاصة. وكان لا يعترف باى شيء من واجبات مؤسستنا وقواعدها؛ وما كان ليتنكر لذلك. وكان يخافنى قليلا الا انه ما كان ليصغي قط الى توبيخي وتأنيبي حتى نهايته؛ فكان يقاطعني بسيل من الفصاحة الحارة ولا يقصر ابدا عن نعت خصومه العديدين بكل نوع من الآثام والاوزار؛ فيتهمهم بممالأتي وتملقي وبانهم وشاة نمامون وعاجزون؛ وكان يهدد بالسوط لاعدائه المتغيبين؛ ويفور حنقا وغيظا عندما كان يخرج من مكتبي وهو يضرب الباب بقوة. وقد كان مع المربين ذا جفاء وفظاظة لا سبيل الى احتمالهما

منه؛ الا انه كان في هذه الفظاظة دائما نوعا من المودة والعطف كانت لا تترك المربين يتأثرون منه ويجرح شعورهم. ولم يكن في لهجته شيء من الاسفاف او الاساءة اذ ان نبرة من الحمية الانسانية كانت تطغى عليه دائما كما انه ما كان ليتنازع قط لدوافع انانية.

وسرعان ما اصبح حبه للخيل وحرفة خدمتها المبدأ الموجه في سلوكه وكان من العسير المعرفة من اين جاءه هذا الحب لها. وقد تفوق كثيراً في تطوره على عدد كبير من اولاد الاصلاحية؛ وكان يتكلم لغة المدن بشكل صحيح ولا يستعمل الكلمات الاوكرانية الا من أجل التباهي. وكان يبذل جهدا في سبيل هندامه وشكله ليكون سويا، ويقرأ كثيرا ويحب الحديث عن الكتب التي كان يقرأها؛ ولم يعقه كل هذا عن ان يلصق ليل نهار بالاصطبل ويلازمه؛ وان ينظف دائما روث الخيل؛ وان يكدن الخيل ويحلها؛ وان يمسح ويجلو عدة الخيل؛ وان يجدل ذيلا للسوط؛ وان يسوق في كل طقس الى المدينة او الاصلاحية الثانية وبطنه دائماً خاوية لانه ما كان

ليصل ابدا فى وقت الغداء او العشاء؛ واذا نسى الآخرون ان يتركوا له حصته فانه ما كان ليتذكرها ابدا.

وقد كان على الدوام يمزج بنشاطه وعمله نزاعات لا حد لها مع كالينا ايفانوفيتش ومع الحدادين ومع أمين المستودع ومع كل من يود ان يركب العربة بشكل لا مناص منه. ولم يكن لينفذ الامر بتكدين الخيل والذهاب الى جهة من الجهات الا بعد شجار طويل مليء بالاتهامات بالقسوة تجاه الخيل وبالتذكير بالمرة التى عاد فيها الجواد «الاشقر» او الجواد «الصبى» وهو مجروح فى رقبته؛ وكان يطلب مزيدا من العلف وما يلزم لصنع الحدائد لحوافرها. وفى بعض الاحيان كان يحدث ان يكون من المستحيل مغادرة الاصلاحية لاننا لا نعثر على اثر لانطون ولا للخيل ولا على اى اثر لمكان وجودهم. وبعد ابحاث طويلة كان يشترك فيها نصف اهل اصلاحيتنا كنا نعثر عليهم اما فى املاك تريبيكي واما فى مرعى جيراننا...

وقد كان انطون محاطا دائما بهيئة اركان حرب له من الاولاد المهووسين به مثله بحب الخيل؛ فكان يفرض

عليهم نظاما دقيقا كل الدقة؛ وكان يسود الاصطبل نظام مثالى؛ فقد كان الاصطبل نظيفا على الدوام؛ وعدة الخيل معلقة فى اماكنها؛ والعربات مرصوفة رصفا سويا؛ والتمائم (١٣) معلقة فوق رؤوس الخيل؛ وذوائب الجياد مجدولة واذنابها مرفوعة مفتولة...

في شهر حزيران — يونيو — فى ساعة متأخرة من الليل هُـرع الي من المهجع.

— كوزير مريض مشرف على الموت...

— ماذا تقول؟ مشرف على الموت؟

— نعم انه يموت... فقد انتابته حرارة الحمى ولم يعد يتنفس...

واكدت ايكاتيرينا غريغوريفنا ان كوزير كان يتألم من نوبة قلبية وانه لا بد من طبيب؛ وعلى الفور ارسلت من يبحث عن انطون؛ فجاء متمردا مسبقا على كل امر يمكن ان آمره به.

— يا انطون كدن العربة وهيئها على الفور؛ ينبغى الذهاب الى المدينة باسرع ما ...

ولم يتركني اكمل كلامي، فقال:

ـ لن اذهب الى اى محل؛ ولن اعطى خيلى لاحد ليذهب انى يشاء... لقد عملت طول النهار تعال وانظر ان عرقها لم يجف بعد ... لن اسير!

ـ ولكن ذلك للبحث عن طبيب... أتفهم؟

ـ ياللسخرية من مرضاكم! ان الجواد «الاشقر» مريض ايضا ومع ذلك فلم يأت احد بطبيب له.

وتملكني الغضب فقلت له:

ـ سلم الاصطبل على الفور الى اوبريشكو؛ فمن المستحيل ان يعمل معك المرء.

ـ حسنا سأسلم. هذا العمل البديع وسوف نرى كيف ستسيران العربات انت واوبريشكو. اى إنسان يحدثك بأمر تصدقه: انه مريض، انه مشرف على الموت؛ وما من اهتمام ورعاية للخيل؛ انها تستطيع ان تموت ايضا... فلتمت اذن ولكنني انا لن اتركها تكدن.

ـ اسمعتني وفهمت؟ منذ هذه اللحظة لم تعد رئيسا مشرفا على خدمات الخيل، سلم الاصطبل الى اوبريشكو فورا!

– ولكن اجل! ليشتغل من يريد بخدمة الخيل.
ولكن انا لم أعد اريد ان اعيش في الاصلاحية.

– في هذه الحالة، لا تزعج نفسك؛ ما من امرىء يمسكك للبقاء هنا.

ودس انطون يده في جيبه، وعيناه مغروقتان بالدموع وأخرج منه حزمة المفاتيح ووضعها على الطاولة. ودخل اوبريشكو وهو الساعد الايمن لبراتشنكو فألفى رئيسه باكيا فنظر اليه براتشنكو نظرة احتقار وازدراء، واراد ان يقول شيئا ولكنه جفف وجهه وخرج...

وغادر الاصلاحية في تلك الليلة نفسها من غير ان يمر على المجهع. وذهبوا الى المدينة سعيا وراء الطبيب فرأوا براتشنكو من العربة وهو يمشي على الطريق، فما قبل ان يركب معهم ورفض دعوتهم بحركة من يده لذلك.

وبعد يومين في المساء دخل اوبريشكو غرفتي مقتحما وهو يبكي ووجهه يصبغه الدم؛ ولم يكن لدي وقت لاسأله عما حدث اذ ان ليديا بيتروفنا التي كانت

مناوبة فى ذلك اليوم هرعت مرتاعة كل الارتياع وهى تقول:

— يا انطون سيميونوفيتش، اذهب الى الاصطبل، فبراتشنكو يقوم بجلبة ونزاع على غير عادته، مما لا يفهم منه شيء او سبب لذلك.

والتقينا ونحن فى طريقنا الى الاصطبل بفيدورانكو الضخم وهو المشرف المساعد على خدمة الخيل، وكان يجأر باعلى صوته.

— ما بك؟

— ما بى... هل مسموح هذا السلوك؟ لقد اخذ جرارات العربة وضرب وجهى بها بملء يده.

— من هذا؟ براتشنكو؟

— براتشنكو. والله!

ووجدت انطون فى الاصطبل يعمل بحمية ونشاط مع شخص آخر مشرف على خدمة الخيل، فحيانى بشكل قليل الحرارة، ولكنه ما ان لمح اوبريشكو وراء ظهرى حتى غفل عن وجودى وانقض عليه:

ـ يحسن بك ان لا تعود الى هنا؛ واذا لم تنقطع عن ذلك فسوف اسوى الامر معك بسير الجلد هذا! اه! نعم، السيد يحب ان يتنزه بالعربة! انظر فى أى حالة جعل الجواد «الاشقر»!

ومسك انطون بيده مصباحا وقادنى بالاخرى صوب الجواد. وقد كان الحيوان مجروح الرقبة فعلا بشكل أليم؛ الا انه قد وضع على الجرح خرقة بيضاء فرفعها انطون برفق ثم اعادها الى مكانها قائلا برصانة:

ـ لقد ذررت عليها كسيروفورم.

ـ ولكن باي حق دخلت بمحض سلطتك الى الاصطبل وقمت بهذه الجلبة والمشاجرة؟

ـ اتعتقد انه نال مايستحق؟ فلو قدر له سوء الحظ ان يقع عليه بصرى ايضا لتلقى منى ضربا مبرحا لا مخالة.

وكان جمهور الاولاد يقفون على ابواب الاصطبل ويضحكون؛ ولم تكن لدى استطاعة ان أغضب من انطون فقد كان مقتنعا كل الاقتناع بحق نفسه وحق جواده.

ـ اسمع يا انطون: جزاء لضربك الاولاد ستظل هذا المساء موقوفا فى غرفتى.

ـ ألدى وقت انا؟

فصرخت به: ـ يكفى ثرثرة.

ـ حسنا. كما تريد سأبقى محبوساً.

وقضى تلك الامسية عندى وهو حانق يقرأ كتابا.

هذا وقد مر شتاء عام ١٩٢٢ بايام قاسية علينا كلينا. فالشوفان الذى بذره كالينا ايفانوفيتش فى الرمال الزاحفة بدون سماد لم يعط حبة ولا قشة تقريبا ولم يكن لدينا مراعٍ ترعى فيها الجياد؛ وفى شهر كانون الثانى ـ يناير ـ وجدنا انفسنا مفتقرين الى العلف؛ واخذ الكرب يخف عنا قليلا عندما شرعنا نطلب ما نحتاج اليه من المدينة او من جيراننا. ولكن سرعان ما انقطع عنا العطاء. وقد حاولنا عبثا انا وكالينا ايفانوفيتش ان نطرق جميع الابواب فى جميع المكاتب؛ فما ظفرنا بطائل.

وأخيرا وقعت الكارثة. فقد جاءني براتشنكو باكيا وقال لى: ان الخيل لا تجد ما تأكله منذ أول البارحة. فسكت. وكان انطون يبكى ويشتم وهو ينظف الاصطبل اذ ان هذا العمل هو العمل الوحيد الذى بقى له. كانت الجياد مستلقية على الارض؛ وهذا ما كان يزعج صاحبها كثيرا ويلح عليه بشدة.

وعاد كالينا ايفانوفيتش من المدينة فى اليوم التالى وهو ساخط مضطرب كل الاضطراب وقال:

ـ ما رأيك فى ان نعمل؟ لم يعطونا شيئا. فما العمل؟

وكان انطون واقفا قرب الباب لا يتفوه بشيء.

وفتح كالينا ايفانوفيتش ذراعيه ونظر إلى الولد قائلا:

ـ هيا اسرق... والا؟ ماذا ستعمل؟ انها حيوانات عجم لا تملك الشكوى...

ودفع انطون الباب فجأة؛ وخرج مسرعا. وبعد ساعة قيل لي: انه قد ذهب.

ـ إلى أين؟

ـ لا نعرف عن ذلك شيئا... فلم يقل من شيء أحد منا.

وعاد في اليوم التالى الى الاصلاحية يصحبه قروى كان يقود عربة من التبن. كان الرجل مرتديا ثيابا جديدة وقبعة جميلة. وكانت عجلات العربة مركزة بدقة تدور بايقاع جميل وكان شعر الخيل لامعا. ورأى الفلاح ان كالينا ايفانوفيتش هو معلم القسم.

ـ قال لي الولد ونحن على الطريق: ان فى وسع المرء ان يدفع هنا الضريبة العينية.

ـ اى ولد؟

ـ هذا الذى كان هناك.. وجئنا معاً.

ومد انطون رأسه من باب الاصطبل وأشار إلي إشارات غير مفهومة.

وأخذني كالينا ايفانوفيتش على انفراد وهو يبتسم بغليونه خجلاً وقال لي:

ـ ماذا يمكنك ان تصنع به؟ ليس لدينا الا ان نأخذه؛ وسوف نرى بعدئذ ماذا يحدث.

وفهمت الأمر:

ـ كم يوجد فيها؟

ـ هذا يمكن ان يزن عشرين بوداً لم أزنها.

وظهر انطون فى وسط المكان واحتج قائلا:

ـ لقد قال لى على الطريق انه يزن سبعة عشر بوداً وآلان يقول عشرين؟ سبعة عشر بوداً فقط!

ـ فرغ حمولتك ثم مر على مكاتبنا لنوقع لك الصيك.

وفى «مكاتبنا»، واعنى هذا المكتب الصغير الذى اقتطعته لنفسي فى ذلك الوقت من اماكن الاصلاحية، كتبت بيد آثمة فى اعلى ورقتنا:

«استلمنا من المواطن فاتز اونوفري باسم الضريبة العينية تبن الشوفان زنته سبعة عشر بوداً». التوقيع والخاتم.

وحيانا فاتز اونوفرى تحية متواضعة ووجد داعيا لشكرنا وانصرف.

اما براتشنكو فكان يشتغل بمساعدة عصبته فى الاصطبل بشكل خفيف نشيط وكان يغني ايضا؛ اما كالينا ايفانوفيتش فكان يفرك يديه ويبتسم بشكل آثم:

ــ ايها الكلب اللعين لقد تورطت واحتفلت بهذا ولكن كيف سنتدبر الامر؟ لا يسعنا ان نترك الخيل تموت... انها للدولة اذن فهذا سيان...

وسألت كالينا ايفانوفيتش:

ــ ولماذا غادرنا الرجل مسرورا؟

ــ ما رأيك؟ لولا ذلك كان سيأخذه الى المدينة ويتجشم عناء السير ثم يقف في الصف منتظراً دوره هناك... بينما هنا... اكتفى بالقول: هذا سبعة عشر بوداً وما من امرىء تحقق؛ ولربما كانت الحمولة خمسة عشر...

وفي اليوم التالي دخلت عربة ثانية من التبن الى باحتنا.

ــ هذه ضريبة عينية. كان فاتز قد سلم هذا.

ــ ما اسمك انت؟

ــ انا من اسرة فاتز ايضا: واسمي ستيبان فاتز.

ــ انتظر لحظة.

وذهبت اسعى وراء كالينا ايفانوفيتش لاستشيره؛ ورأيت على الدرج انطون فقلت له:

ـ أنت الذي أريته الطريق، والآن...

ـ استلم يا انطون سيميونوفيتش ولسوف نبرر ذلك.

وكان الاستلام لا يجوز ولكن الرفض لا يجوز ايضا فلماذا استلمنا من فاتز ورفضنا الاستلام من فاتز آخر.

ـ هيا استلم التبن إلى ان أحرر الوصل باستلامه.

واستلمنا ايضا عربتين كبيرتين من العلف واربعين بوداً من الشوفان.

وقد كنت انتظر العقاب بخوف شديد؛ فكان انطون يرمقني بانتباه وبابتسامة خاطفة تطوف بثغره. فقد انتهى من صراعه مع مستعملي طاقة الخيل، فكان ينفذ بكل سرعة جميع أوامر النقل؛ ويشتغل في الاصطبل كأنه نصف إله.

وتلقيت اخيرا طلباً بالاستيضاح قصيرا ولكنه واضح كل الوضوح، هذا نصه:

اعلمونا على الفور بأي حق تستلم اصلاحية غوركي الضريبة العينية.

مفوض المنطقة للتموين آغييف.

لم اقل شيئا عن هذا الطلب إلى أحد من الناس حتى إلى كالينا ايفانوفيتش وامتنعت من الاجابة عليه. فبماذا كان في استطاعتي ان أجيب؟

وفي شهر نيسان – ابريل – دخلت الى اصلاحيتنا عربة كان يجرها بسرعة زوجان أسودان من الخيول وبسرعة جاء الى مكتبي براتشنكو وهو مرتاع:

– ها هو ذا قد جاء. قال هذا وأنفاسه تتقطع.

– من هذا؟

– اظن لاجل التبن. انه شرير.

وجلس وراء المدفأة وسكت لا ينبس ببنت شفة.

إنه مفوض التموين. كان ذا شكل عادي: جاكيته من جلد، مسدسه الى جانبه؛ شاب ومهندم اللباس. فقال بعد ذلك:

– أأنت المدير؟

– نعم أنا...

– هل استلمت طلب الاستيضاح؟

– استلمت.

ــ لماذا لم تجب عليه... هل علي أن آتي أنا بنفسى؟ من سمح لك باستلام الضريبة العينية؟

ــ استلمناها بدون إذن بذلك.

وقفز المفوض من على كرسيه واخذ يصيح:

ــ كيف «بدون إذن بذلك»؟ أتعرف الى اين يؤدى هذا؟ أتعرف انى اوقفك على الفور؟

كنت اعرف ذلك.

فقلت له بصوت أصم:

ــ فلتفرغْ من هذا بشكل من الاشكال. لن احاول ان ابرر عملى ولا ان اجادل. ولكن لا تصرخ بل اعمل ما تجد ضروريا.

كان يجول فى مكتب عملى الكسيف وغمغم قائلا.

ــ لم اسمع بمثل هذه القصة ــ قال هذا وهو مضطرب ينتفض انتفاض الحصان.

وخرج انطون من وراء المدفأة واخذ يقتفى حركات المفوض الذى استبد به الغضب الشديد وفجأة اخذ يثر بصوته المتوتر كأنه الجعل:

ــ ضربة عينية او شيء آخر؛ هذا شيء سوي؛ فماذا تكون الحال لو ظلت هذه الخيل اربعة ايام بدون أكل؟ لو قدر لجواديك الأسودين ان يقرآ الجرائد والسجل بدلاً من العلف. قل لى: هل كانا يأتيان بك الينا بهذه السرعة؟

وتوقف آغييف وقد تملكته الدهشة:

ــ من أنت؟ أنت؟ ماذا جئت تصنع هنا؟

ــ هذا رئيس المشرفين على الخيل فالامر يعنيه شخصيا من كل وجه.

وانطلق المفوض مهرولا فى الغرفة ثم وقف فجأة امام انطون:

ــ على الاقل هل سجلتم ذاك العلف على شكل دخل؟ يا لعين!

ووثب انطون الى طاولتي وهمس الى بنبرة قلقة:

ــ هل سجلناه على أنه دخل يا انطون سيميونوفيتش؟

وأخذت أضحك وكذلك آغييف.

ــ لقد سجل.

ــ اين وجدت هذا الولد الطيب؟

قلت مبتسما :

ـ نحن نخلقهم بأنفسنا.

ورفع براتشنكو بصره الى مفوض التموين وسأله بلهجة رصينة لطيفة:

ـ هل يجب ان اعطى جواديك حصتهما؟

ـ نعم. يمكنك ذلك.

١٣. اوسادتشى

كان خريف عام ١٩٢٢ وشتاؤه مليئين بالهزات العنيفة التى زعزعت اصلاحية غوركي. وكانت هذه الهزات تتواصل بلا انقطاع ؛ وهى ما تزال ماثلة فى خاطرى الى الآن كأنها نصب وحيد للآلام والمتاعب.

على ان تلك الأيام مهما غصت بالصعاب فانها كانت ايام نماء ونشوء فى اقتصادنا كما هى الحال بالنسبة إلى صحتنا. فكيف استطاع كل هذا ان يوجد باجمعه معا بشكل منطقى معقول؟ اننى الآن عاجز

عن ان اقدم شرحا له وتفسيرا؛ بيد ان الامر كان على هذه الشاكلة. كان النهار العادى عندنا نهارا جميلا اذ ذاك؛ فكان مليئا بالعمل والثقة وشعور الصداقة الانسانية؛ وكان على الدوام مليئا بالضحكات والنكات والحماسة؛ وباجمل نشاط. على انه كان لا ينقضى اسبوع بدون حادثة خارقة تقع؛ فننغمس فى هوة فاغرة أشداقها ونندفع فى دوامة رهيبة من الاحداث التى كنا نكاد نفقد فيها المفهوم العادى للاشياء، شأننا فى ذلك شأن المرضى الذين يرون العالم من خلال اعصابهم المحترقة.

وقد ظهرت عندنا النزعة المعادية للسامية بشكل مفاجئ غير متوقع. فحتى ذلك الحين لم يكن فى الاصلاحية يهود. وقد جاءنا الولد الأول منهم فى خلال الخريف. ثم جاءنا عدة اشخاص آخرون منهم بشكل منفرد. وكان احدهم قد اشتغل فى الشرطة القضائية؛ فكان هو اول من انفجر الحنق الارعن ضده من قبل اولادنا القدماء.

ولم اتمكن في هذه التظاهرات من النزعة المعادية للسامية ان اميز في اول الامر: من هو الآثم في ذلك. فأولادنا الجدد كانوا ذوي نزعة معادية للسامية لأنهم وجدوا ضحايا ابرياء يمثلون بهم تمثيلا بشعا بينما الآخرون كانت لهم اوسع فرصة للعبث والتسلي والتظاهر بالشجاعة على حساب اليهود بضربهم وتعذيبهم.

كان اولهم يدعى اوستروموخوف.

وقد أخذ الاولاد يضربونه ضربا مبرحا في كل مناسبة ودون اية مناسبة وكانوا يسلبونه حزامه الجميل او حذاءه الجديد ويتركون له عوضا عن ذلك النفايات التي لم تعد تصلح للاستعمال؛ وكانوا يتآمرون عليه لحرمانه من الغذاء او لافساد حصته من الطعام؛ وكانوا ينهكونه من الصباح الى المساء ويوسعونه شتما واهانة؛ وكان الاشد فظاعة من كل ذلك ان يجعلوه دائما في حالة من الفزع والاذلال. كان هذا هو المصير الذي تقدمه الاصلاحية ليس فقط الى اوستروموخوف الوحيد بل الى شنيدر وغليسير وكراينيك. وقد كانت مقاومة هذه الحالة

من الاوضاع شيئا عسيرا لا سبيل الى احتماله. كان كل شيء يتم بمراعاة السرية الكاملة وباحتراس شديد وبدون المخاطرة لسبب رئيسي وهو ألا يجرؤ اليهود المرتاعون ارتياعا شديدا على الشكوى. ولم اكن لاتحسس شيئا الا بشكل غير مباشر من مظهرهم المرهق، ومن صمتهم وهيئتهم المضطربة؛ على ان شائعات لا سبيل الى ضبط مصدرها كانت تنفذ الي من بعد بفضل احاديث الاولاد الصغار الودية المؤثرة كثيرا مع المربين.

ومع ذلك فقد كان من المستحيل ان يبقى الامر مكتوما كل الكتمان عن هيئة المربين، فلا يروا وضع الذل والحقارة التى آل اليها حال مجموعة من الاولاد. ثم جاء وقت لم يعد فيه ثوران النزعة المعادية للسامية بالامر المكتوم على احد من الناس. فقد اثبتنا لائحة الظالمين؛ فكانوا جميعا من معارفنا القدماء: بورون وميتياغين وفولوخوف وبريخودكو، على ان اوسادتشى وتارنيتز كانا المحركين الرئيسيين لهذه الاعمال.

فقد كانت حيوية تارانيتز ودقته ومواهبه كمنظم ومدبر

قد جعلته منذ زمن بعيد في المرتبة الاولى بين اولاد الاصلاحية؛ الا ان مجيء اولاد اكبر سنا منه لم يسمح له بان يطلق لنفسه العنان فارتوت ميوله للسيطرة حينئذ بترويع اليهود وتعذيبهم. وكان اوسادتشي ولدا في السادسة عشرة من عمره؛ بدينا وعنيدا وقويا متهاوناً جدا. وكان يجد في ماضيه مفخرة له واعتزازا؛ لا لانه يجد فيه شيئا زاهيا وضيئا؛ بل كان ذلك بمحض إصرار؛ لان ماضيه كان شيئاً يخصه وحده ولان حياته يجب ألا تعني أحداً.

كان لدى اوسادتشي حب للحياة؛ وكان يجتهد لئلا يترك يوما يمر دون ان يقضي فيه وقتا يتمتع فيه. ولم يكن ليشق عليه الامر في هذا الباب فكان يكتفي في غالب الاحيان بألعاب في قرية بيروغوفكا الواقعة على حافة المدينة والتي كان سكانها يتألفون من انصاف الكولاك والبرجوازيين الصغار. كانت قرية بيروغوفكا تتلألأ في ذلك الحين بعدد كبير من الفتيات وبالفودكا الممنوعة: كان هذان الشيئان المتعتين الرئيسيتين

لأوسادتشي. وقد كان صاحبه الذى لا يفارقه إنما هو غالاتنكو الذى طبقت شهرته ارجاء الاصلاحية على انه كسول وشره.

كان أوسادتشى ينزل خصلة من شعره الجميل فتسد عليه تلك الخصلة مدى البصر؛ ولكنها كانت بشكل واضح ذات نفع كبير فى النضال من اجل الظفر باستلطاف فتيات بيروغوفكا؛ وبسبب من هذا التظرف كان ينظر الي بوجه عابس؛ وكان يبدو حقودا فى كل مرة كنت احاول فيها التدخل فى حياته الخاصة: فلم اكن لأسمح له ان يذهب الى بيروغوفكا وكنت ألح عليه فى الطلب لان يزيد من اهتمامه بالاصلاحية.

وكان اوسادتشي قد نصّب نفسه معذباً كبيرا لليهود. ولا اعتقد انه كان ذا نزعة معادية للسامية؛ إلا أن عدم معاقبة المعذبين، وعدم حماية اليهود كانا يعطيانه امكانية لمعان اسمه فى الاصلاحية بدهائه وبنوع من البطولة البدائية.

كان يقتضى النظر فى الامر مرتين قبل بدء الكفاح بشكل مكشوف ضد هذه العصابة من الجلادين الظالمين. فقد كان هذا العمل يتهدد قبل كل شئ اليهود بثأر وانتقام شديد؛ وعلى كل حال فقد كان اوسادتشى ورفاقه لن يتأخروا عن استعمال السكاكين؛ فإما العمل شيئا فشيئا باكبر احتراس واما التخلص منه مرة واحدة بالانفجار...

وعمدت فى بادئ الامر الى الخطة الأولى؛ وكان هدفى ان اعزل اوسادتشى وتارنيتز عن الآخرين. وكان كارابانوف وميتياغين وبريخودكو وبورون تحت تصرفى وخدمتى وكنت اعتمد على تأييدهم؛ ولكن كان اكثر ما يمكنني ان اظفر به منهم هو ان اقنعهم بان لا يمسوا اليهود بأذى.

ـ ممن سنحميهم؟ من الاصلاحية كلها؟

ـ لا تكذب يا سيميون. انك تعرف جيداً ما نحن بصدده.

ـ لنفترض انني اعرفه. وبعدئذ؟ سأحميهم؟ لنفرض

ذلك ولكن لا يمكنني ان أربط اوستروموخوف برسن وأحافظ عليه فانهم سوف يمسكون به بشكل من الاشكال وسوف يوسعونه ضربا بشكل أسوأ واشد.

وقال لي ميتياغين بصراحة:

ـ لن امشي في هذا السبيل فهذا لا يعنيني؛ ولكنني لن اصنع معهم شيئا؛ فانهم لا يثيرون اهتمامي.

اما زادوروف فقد كان من بينهم جميعا هو الذي يتفق معي اكثر من غيره في هذا الامر؛ ولكنه لم يكن في وسعه ان يجابه ولدا مثل اوسادتشي في النضال السافر.

ـ لعله يقتضي اتخاذ تدابير مشددة. لا ادري ذلك. على انهم يخفون عني كل شيء كما يصنعون معك. فانهم امامي لا يسيئون اليهم ابدا.

ومع ذلك فان وضع اليهود قد اصبح اكثر صعوبة ومشقة؛ فقد كانوا يبدون كل يوم وقد علت اجسادهم بقع زرقاء؛ وحينما كانوا يسألون عمن ضربهم كانوا يرفضون تسمية الذين ضربوهم. وكان اوسادتشي يزهو

في الاصلاحية ويتبختر وهو يرمينا – انا وسائر المربين – بنظرات تحدٍ من تحت خصلة شعره الفاتنة.

وقررت ان اجابه الامر بشكل حازم؛ وادعو اوسادتشي الى مكتبي؛ فانكر انكارا قاطعا كل شيء. ولكنه ابدى من وضعه انه يفعل ذلك على سبيل التظاهر؛ وانه في الواقع لم يكن ليعمد الى ما كنت اعتقده عنه.

– انك تضربهم كل يوم.

فاجاب بغير رغبة:

– لا ابدا.

فهددته بالطرد، فاجابني:

– هيا اطردني!

كان يعرف كل المعرفة مدى صعوبة طرد احد الاشخاص من الاصلاحية وطول هذا الاجراء: فكان سيقوم بمحاولات وتدابير لا حد لها لدى اللجنة؛ ويسبب ركاما من التحقيقات والشهادات؛ فنرسل اوسادتشي نفسه مرات كثيرة الى الاستنطاق ووفودا متتالية من الشهود فضلا عن ذلك.

زد على ذلك انه لم يكن شخص اوسادتشي ليهمني وحده فالاصلاحية بأسرها كانت تتبع مآثره؛ وكان كثير منهم يبدى استحسانه المتحمس لذلك. فرأيت ان طرده من الاصلاحية سيجعل عطفهم عليه يزداد ويستمر؛ فسوف يبقى الاولاد محتفظين بذكرى اوسادتشي؛ على انه بطل وضحية؛ وعلى انه ما كان ليخاف شيئا او احدا؛ وعلى انه كان يعذب اليهود ويضربهم؛ فلهذه الاسباب كلها قد طرد ونفي. ومع ذلك فلم يكن وحده هو الذى يسيء الى اليهود وينال منهم بالاذى: فتارانيتز الذى لم يكن جلفا بطبعه كان يبدى عبقرية اكثر استنباطا ودقة فلم يكن يضرب اليهود قط؛ وكان يعاملهم امام اعين الناس معاملة لطيفة، ولكن عندما تخيم ظلمة الليل كان يدس الى هذا او ذاك منهم بورقة يضع طرفها بين اصابع ارجلهم ثم يشعل طرف الورقة الآخر؛ ثم يمضي الى سريره ويتظاهر بالنوم، او انه يعمد الى طريقة اخرى؛ فقد استحصل على مقص فكان يقنع فيدورنكو القوى الابله او شخصاً من نوعه؛ فيقنع شنيدر

بان يحلق له. فيحلق له نصف رأسه ثم يزعم ان المقص قد تعطل ويزهو بين رفاقه بما فعل بهؤلاء الاولاد التعساء الذين يتراكضون وراءه وهم يتضرعون اليه باكين بان ينجز لهم الحلاقة.

هذا وقد جاءنا دواء هذه الآفات بشكل غير متوقع ابدا وبشكل اكثر حطة ايضا.

وذات مساء انفتح باب مكتبى وادخل ايفان ايفانوفيتش اوستروموخوف وشنيدر وهما ملطخان بالدماء؛ ويبصقان دما؛ ولا يبكيان مع ذلك لاعتيادهما للخوف. وسألت:

ــ أهذا فعله اوسادتشى؟

وسرد المربى المناوب انه عند العشاء امسك اوسادتشى بشنيدر الذى كان يشرف على خدمة المطعم؛ فاراد ان يرغمه على تبديل حصته واعطائه قطعة خبز اخرى؛ واخيرا احتج بأن شنيدر وهو يقدم له الحساء، قد امال الصحن فمس الحساء اصبعه، فنهض من على الطاولة واخذ يضرب شنيدر على وجهه امام ايفان ايفانوفيتش واولاد الاصلاحية

كلهم؛ لربما كان شنيدر يسكت إلا ان المربى لم يكن انسانا عديم المروءة؛ ولم تكن معركة قد جرت قبلئذٍ بحضور مناوب الخدمة فامر ايفان ايفانوفيتش اوسادتشى ان يغادر المطعم وان يمثل امامى ليعرض على سلوكه وتصرفه. وبينما كان اوسادتشى يهم بالخروج وقف عند الباب وقال:

ـ انا ذاهب الى المدير؛ ولكننى قبل ان افعل ذلك سأعلم هذا اليهودى القذر كما ينبغى.

وحدثت اذ ذاك معجزة صغيرة اذ ان اوستروموخوف وهو أحد يهودنا وكان أجبنهم دائما عن الدفاع عن نفسه، ترك طاولته وانقض فجأة على اوسادتشى قائلا:

ـ لن اتركك تضربه...

وانتهت هذه الحادثة بان ضرب اوسادتشى اوستروموخوف وسط المطعم، وبينما كان يخرج ابصر شنيدر الذى كان مختبئا فى المدخل فلكمه لكمة قوية كسر له فيها احد اسنانه ورفض ان يأتى الي.

وكان اوستروموحوف وشنيدر فى مكتبى يعرضان الدم

الذى يعلو وجهيهما باكمام ثيابهما القذرة؛ الا انهما لا يبكيان وكانا يودعان ـ على ما يبدو ـ الحياة فى عالمنا. وقد اقتنعت انا ايضا اننى اذا لم انجح فى حل هذا التوتر على الفور؛ فلم يبق امام اليهود الا ان ينشدوا سلامة انفسهم فى الفرار فورا والا فعليهم ان يستعدوا للموت عذابا والماً. كنت منزعجا جدا ومتأثرا تأثرا شديدا من عدم المبالاة التى ابداها جميع الاولاد فى الاصلاحية تجاه هذا المشهد الوحشى؛ ومن بينهم اولاد كزادوروف. وشعرت فجأة اننى وحيد فى هذه اللحظة كما كنت فى اول عهد الاصلاحية؛ على اننى حينئذ لم اكن لأنتظر تأييداً او عطفا من اى جهة كانت؛ فقد كان انعزالى امرا طبيعيا ومتوقعا من اول الامر؛ ولكننى كنت منذ البدء قد تعودت على معونة الاولاد الدائمة.

وقد كان فى مكتبى علاوة على المعتدى عليهما اولاد آخرون. فقلت لاحدهم:

ـ ادع لى اوسادتشى.

فقد كنت متأكداً تقريباً ان اوسادتشى سيجازف

بنفسه ويرفض الحضور؛ وقد صممت على حمله على ذلك بنفسي ولو بقوة السلاح.

وجاء مع ذلك: فدخل باستخفاف الى مكتبي؛ وجاكيته على كتفيه ويداه في جيبه؛ فاصطدم بكرسي واوقعه في مروره؛ وكان ترانيتز يصطحبه وقد كان ترانيتز يتظاهر بانه وجد هذا الامر كله ممتعا كل الامتاع؛ وانه جاء ليشهد مشهدا جميلا رائعا.

ونظر الي اوسادتشي بازدراء من وراء كتفه وقال:

ــ حسنا. ها انذا. ماذا يوجد؟

فاريته اوستروموخوف وشنيدر قائلا:

ــ ما هذا؟

ــ ما هذا! انهما يهوديان صغيران. ظننت انك ستريني شيئا آخر.

وفجأة انهارت ارض فن التربية من تحتي مجلجلة كالرعد ووجدت نفسي معلقا في الفضاء. وسرعان ما طارت الآلة الحاسبة الموضوعة على طاولتي اذ قذفت بها رأس اوسادتشي، فاخطأته فاصطدمت الآلة بالحائط وسقطت على الارض.

وقد كنت فى حالة غيظ شديد؛ فبحثت على طاولتى عن شئ ثقيل؛ وفجأة تناولت كرسيا بكلتا يدى وهويت به على اوسادتشى فتملكه الفزع واسرع الى الباب ولكن جاكيته انزلق عن كتفيه وسقط بين رجليه فتعثر به ووقع.

وتمالكت نفسى، فقد امسكنى احدهم من كتفى؛ فالتفت: فاذا زادوروف ينظر الي ويبتسم قائلا:

ـ ان هذا المنحط السافل لا يستحق الضرب.

وكان اوسادتشى جالسا على الارض وهو ينتحب؛ اما ترانيتز فكان ممتقعا مرتجف الشفاه متواريا وراء فجوة النافذة.

ـ وانت ايضا تتمتع باضطهاد هؤلاء الاولاد!

فوثب ترانيتز من فجوة النافذه قائلا:

ـ اقسم بشرفى اننى لن اعود الى ايذائهم ابدا!

ـ اخرج حالا!

فخرج على رؤوس اصابع قدميه.

كان اوسادتشى قد نهض وتناول جاكيته بيده؛ وبالاخرى ازال آخر اثر لضعفه العصبى فمسح بها دمعة من على خده المتوسخ ونظر الي بشكل هادئ رصين.

ـ سوف تقضى اربعة ايام سجينا فى مصنع الاحذية ؛ طعامك الخبز وشرابك الماء.

فابتسم ابتسامة مزورة واجاب دونما تردد :

ـ حسنا سوف اقضيها.

وفى اليوم التالى من توقيفه استدعانى الى مصنع الاحذية ووجه الي هذا الرجاء :

ـ لن اعود الى ايذاء احد. فاعف عنى.

ـ سوف نتحدث عن ذلك عندما تقضى مدة عقوبتك.

وانتهت الايام الاربعة ؛ فلم يعد ليطلب عفوا وانما اعلن بتجهم :

ـ سأهجر الاصلاحية.

ـ اذهب اين تشاء.

ـ اعطنى ورقة.

ـ لن اعطى شيئا ابدا.

ـ وداعا اذن.

ـ مع السلامة.

١٤. محابر «حسن الجوار»

اين ذهب اوسادتشى؟ ما كنا لنعرف عن ذلك شيئا. كان يقال انه رحل الى طشقند لان كل شئ هناك كان بخسا رخيصا؛ وفى وسع المرء ان يعيش فيها حياة سعيدة مرحة؛ غير ان بعضهم كان يقول ان اوسادتشى له عم فى مدينتنا مما يدعو الآخرين إلى أن يقوموا بالتصحيح زاعمين ان الذى التجأ اليه ليس عمه؛ وانما هو سائق عربة من معارفه.

وما كنت ابدا لاشعر براحة النفس بعد فشلى التربوى الجديد؛ وكان الاولاد يرهقوننى باسئلتهم ليعلموا هل سمعت شيئا عن اوسادتشى.

ـ ولكن ما شأنكم باوساتشى؟ وبم تزعجون انفسكم هكذا؟

فقال كارابانوف:

ـ لن يكون هذا ازعاجا لنا بل حبذا لو كان هناك بالنسبة إليك...

ـ لم افهم...

ونظر كارابانوف الي بعين شريرة:

ـ لعلك لا تشعر بنفسك شعورا جيدا هناك... في دخيلتك.

فأخذت اصيح عليه:

ـ اخرج من عندي... مع ملاحظاتك! ماذا تتصور بخيالك. اتتصور ان نفسي تحت تصرفك وامرك؟

وتركني كارابانوف بشكل هادئ كل الهدوء.

وكانت الحياة قد اعادت صوتا جميلا إلى الاصلاحية؛ كنت اسمع اهتزازاته الصحيحة الخفيفة فقد كانت النكات والمزاح تدوي تحت نوافذي فينساق معها الاولاد في اعمالهم (ولا اعرف: لماذا كان كلهم يتجمعون في هذا المكان) وما من امرئ كان يشتكي من احد وقد قالت لي ايكاتيرينا غريغوريفنا ذات مرة بهذا التعبير نفسه كما لو كنت مريضا بشدة وهي ممرضة:

– ما من داعٍ إلى أن تعذب نفسك وتزعجها. سينقضي هذا ويمر.

– ولكنني لا اعذب نفسي وازعجها... سينقضي هذا حتما. كيف حال الاصلاحية؟

– لا اعرف انا نفسي كيف اشرح ذلك؟ كل شئ على ما يرام في الوقت الحاضر، فقد اتخذت الاصلاحية شكلا انسانيا ان صح التعبير، فالاولاد اليهود عندنا لطفاء: فهم يرتاعون قليلا من كل شئ ويشتغلون شغلا عجيبا؛ ويضطربون بصورة كبيرة. ولعلك تعرف ان الاولاد القدماء يقدمون لهم معونات صغيرة. فميتياغين يهتم بهم كأنهم اطفال صغار: فقد ارغم غليزر على ان يغسل نفسه، وقص له شعره وخاط له الازرار.

اجل... كل شيء كان على ما يرام؛ ولكن اى فوضى واضطراب كانت تعصف في روحي التربوية! كانت هذه الفكرة تشغلني كثيرا: ألن اتوصل الى معرفة السر؟ وكنت – على ما يبدو – قد امسكت بطرفه بين يدي؛ ولم يكن

ليبقى علي الا ان آخذه بيدى. وكانت عيون الكثير من اولاد الاصلاحية تلتهب بنار جديدة... وفجأة يا لهذا الانهيار الكامل الفاضح. فهل كان يقتضيني الأمر ان ابدأ من الأول؟

كانت الحالة المهينة التي وجدت فن التربية وعجز نفسي يتخبطان فيها تثير في نفسي الحنق والحفيظة. فكنت أفكر في علم التربية بكراهية وسخط، قائلا لنفسي:

«منذ كم الف سنة كان علم التربية! وأي اسماء وأي افكار متلألئة لمعت: بستالوتزي، وروسو، وناتورب، وبلونسكي! (١٤) وكم من الكتب الفت وكم من الصفحات حررت، وكم من الانتصارات تحققت! ومع ذلك فالفراغ ما يزال عظيما والعدم ما يزال قائما، وما من وسيلة لقهر شرير والتغلب عليه. وما من طريقة وما من اداة وما من منطق... لا شئ مطلقا يعين على ذلك. ان ذلك العلم نوع من التدجيل والتضليل».

كان اوسادتشى اقل متاعبى. فقد اعتبرته من جملة الخسائر، من جملة الاضرار ونفايات الانتاج التى لا بد منها فى كل عمل. ولم يزعجنى كثيرا ذهابه المتغنج فليعش على هواه.

ثم عاد بعد وقت قصير.

وانقضت علينا فضيحة جديدة اخرى: عرفت بها حينما بلغتنى ماذا يعنى ما يقال: وقف شعر رأسه...

ففى هدأة ليلة قارسة اشتبكت عصابة من اولاد الاصلاحية غوركى، وبينهم اوسادتشى، مع شبان قرية بيروغوفكا. وقد نشب الشجار بنزاع: بالسلاح الأبيض – السكاكين الحادة – الذى كان يسيطر من جانبنا ومن الجانب الآخر بالسلاح النارى: البنادق.. وانتهى القتال لصالحنا فقد ارتد الشبان القرويون عن مواقعهم؛ وانهزموا هزيمة مخزية من الميدان ليلتجئوا الى بناية مجلس السوفييت الريفى؛ وفى الساعة الثالثة صباحا بدأ الهجوم على البناية؛ اى ان الابواب والنوافذ حطمت واستحال القتال الى مطاردة عنيفة؛ واخذ شبان القرية يقفزون من

المنافذ ويهرب كل واحد الى منزله وعاد اولاد الاصلاحية الى معسكرهم بانتصار كبير.

وقد زاد الامر قبحا وفظاعة ان مجلس السوفييت الريفى دمّر تدميراً كاملا حتى اصبح من المستحيل ان يجرى عمل فيه فى اليوم التالى؛ وعلاوة على الابواب والنوافذ فان المحاصرين اتلفوا الطاولات والمقاعد وبددوا الاوراق وبعثروها وكسروا المحابر.

واستيقظ ابطالنا صباحا بريئين كالطفل الذى ولد من وقت قليل؛ وهبوا الى العمل. وعند الظهر حضر إلي رئيس مجلس السوفييت الريفى فى بيروغوفكا وقص علي احداث الليلة الفائتة.

كنت انظر بدهشة الى هذا القروى العجوز الصغير الطيب؛ الذكي وكنت لا افهم لماذا لم يكن ليدعو الشرطة ويسجن هؤلاء الاشقياء وانا معهم؛ عوضا عن ان يجري حديثاً معى.

على ان الرئيس قد أبدى فى حديثه سخطاً اقل من حزنه؛ وكان قلقا مهتما لا سيما فى معرفته فيما اذا

كانت الاصلاحية ستصلح الابواب والنوافذ والطاولات ايضا وفيما اذا لم تكن لتستطيع ان تعطيه على الفور محبرتين بصفته رئيساً لمجلس سوفييت بيروغوفكا.

كنت اذ ذاك قد تملكتنى الدهشة ولم يكن فى وسعى ان استوعب شرح موقف السلطة «الانسانى» منا بشكل مفهوم. وقررت بعدئذ ان الرئيس شأنه شأنى لم يكن بعد فى حالة يستطيع فيها أن يلم بفكره هول تلك الحوادث؛ وانما يغمغم شيئا مبهما كرد فعل على ما حدث وهذا كل شئ.

وكنت احاكم الامر على هذا المنوال: ولم يكن لدي الا ان اتمتم قائلا:

ـ آه... طبعا سوف نصلح كل شيء. اجل يمكنك ان تأخذ هاتين المحبرتين.

وتناول الرئيس المحبرتين وجمعهما باحتراس فى يده اليسرى وضمهما الى صدره؛ وقد كانتا محبرتين عاديتين لا ينسفح منهما المداد.

ـ نعم، سنقوم بكل التصليحات؛ سأبعث لك

حالا بالنجار، اما بشأن الواح الزجاج فينبغى ان ننتظر حتى نستحضرها من المدينة.

ونظر الرئيس الي شاكرا ومقدرا وقال:

ـ لا... غدا يكفى هذا... وعندما تأتى الواح الزجاج يمكنكم ان تقوموا بكل ذلك معاً. افهمت؟..

ـ فى هذه الحالة... الأمر على ما يرام. فالى الغد اذن.

ولكن لماذا لم يذهب أخيرا هذا الرئيس العاجز الذى لا حول له؟

فسألته:

ـ ستعود الى منزلك الآن؟

ـ نعم.

والقى الرئيس نظرة فيما حوله واخرج من جيبه منديلا اصفر مسح به شاربيه النظيفين كل النظافة. ودنا منى قائلا:

ـ بشأن... الشئ الذى استولى عليه الاولاد البارحة هناك... ان الحداثة لعلك تعرف ما هى... وان ابنى ما يزال ولدا... والاولاد يفعلون هذه الاشياء تسلية وعبثا...

لا لشئ آخر والحمد لله... وقد كان لكل واحد من الرفاق واحدة... وكان يلزمه هو واحدة ايضا... ثم قلت انا ايضا ان الوقت يقتضى ذلك... وهذا حق... ان يكون لكل شخص واحدة...

وسألته:

ــ معذرة اذا لم افهم؛ ماذا تقصد اخيرا؟

فقال على الفور:

ــ اقصد البنادق.

ــ بنادق؟

ــ نعم بنادق.

ــ ما خبرها؟

ــ آه... يا الهى... لن أقول غير هذا... فسأقول لك: عندما كانوا يلعبون ويعبثون البارحة... وحدث كل هذا... انتزع اولادكم واحدة... من ابنى ومن ولد آخر ايضا؛ وربما اضاعها لانه كما تعلم ــ كان مع اناس مخمورين. فمن أين جاءوا اذن بالفودكا الممنوعة؟

ــ من كان ثملاً؟

ـ عندك الجيد منها والله... ولكن ما السبيل الى معرفة ذلك؟... اما انا فلا علم لى بها؛ ولكن حسبما روى لي ان اولادكم هم الذين كانوا سكارى...

ـ واولادكم؟

ـ لم اكن لاعلم ذلك بادئ الامر... صحيح ان البارحة كان يوم الاحد. ولكننى لا اتحدث عن هذا. ان هذه الحادثة من اخطاء الشباب؛ ولست واجداً على اولادكم... حسنا لقد تضاربوا اذ ذاك؛.. ولكنهم لم يقتلوا او يجرحوا احدا. ـ ثم سأل فجأة وقد تملكه الفزع: هل أصيب أحد من أولادكم بسوء؟

ـ لم اتحدث معهم بعد بذلك.

ـ لم اسمع شيئا... ولكن قال لى بعضهم انه قد حدثت عيارات نارية مرتين او ثلاثاً ربما... لعل هذا حدث عندما بدأ الهرب؛ لان اولادكم ـ كما تعلم ـ نزقون بينما اولادنا القرويون بطبيعة الحال بطيئون. هيه هيه هيه!

وضحك العجوز وهو يطرف بعينيه الصغيرتين بظرافة ولطف؛ لقد كان كأنه واحد منا؛ وكان الشيوخ مثله يدعونه دائما: «بابا الطيب». وضحكت ايضا وانا انظر اليه الا انني شعرت في نفسي باضطراب لا سبيل الى احتماله.

– والخلاصة حسب كلامك: ما من شئ ذي خطر؛ فقد تضاربوا ثم حل السلم بينهم...

– تماما... تماما... حل السلم بينهم؛ وحينما كنت فتيا لكم تضاربنا في سبيل البنات؟ وذات مرة ترك الاولاد اخي ياكوف وهو ميت. فاستدع اذن اولادكم وتحدث اليهم على ان لا يعودوا الى مثل هذه الاشياء...

وخرجت الى الدرج:

– ادع الذين كانوا البارحة في بيروغوفكا.

فسألني ولد صغير خفيف كان يمر في الباحة يهرول الى بعض الشئون المستعجلة: – واين يكون هؤلاء؟

– لعلك لا تعرف من كان البارحة في بيروغوفكا؟

ـ أوه... انك لداهية انت... افضل ان احضر لك بورون.

ـ حسنا احضره.

ووصل بورون.

ـ اوسادتشي في الاصلاحية؟

ـ لقد عاد وهو يشتغل في معمل النجارة.

ـ اذهب لتقول له هذا: لقد تراذل اولادنا بالنار في بيروغوفكا البارحة؛ وهذا عمل خطير الشأن.

ـ اعرف. فالاولاد تحدثوا عن ذلك.

ـ اذن اذهب لتقول على الفور الى اوسادتشي ان يحضروا جميعا الي. فالرئيس ينتظر في مكتبي. وحذار ان يكذبوا فالامر قد يؤول الى نهاية سيئة.

وسرعان ما امتلأ مكتبي «بجماعة بيروغوفكا» وهم: اوسادتشي وبريخودكو، وتشوبوت، واوبريشكو، وغالاتنكو، وغولوس، وسوروكا؛ ولم اعد لاذكر من كان ايضا؟ وكان اوسادتشي يحتفظ برباطة جأشه كأن لم يكن

شئ بيننا. وما كنت لاريد ان اذكر الماضى امام رجل غريب عنا.

ـ انكم ذهبتم البارحة الى بيروغوفكا، وكنتم سكارى؛ فقمتم بفضيحة كبيرة فاراد بعض الاولاد ان يهدئوكم؛ فانهال جميعكم عليهم ضربا مبرحا وحطمتم مجلس السوفييت الريفى.

فتدخل اوساتشى قائلاً:

ـ ليس الامر كما تقول تماما. لقد كان الرفاق فى بيروغوفكا؛ هذا صحيح وانا قد امضيت فيها ثلاثة ايام. لانك تعلم... ولم نكن سكارى فهذا ليس صحيحا؛ حتى فى النهار كان باناس من عندهم يتجول مع سوروكا؛ ولا أنكر لقد كان سكران... قليلا. اما غولوس فقد اسكره احد معارفه ايضا. الا ان جميعنا كنا على ما يرام؛ ولم نخاصم احدا او نشاجره وانما كنا نلهو ونتسلى كالآخرين وبعدئذ قام احدهم وهو خارتشنكو وتقدم منى صارخا: «ارفع يديك!» وصوب الي بندقيته؛ وحينئذ ضربته انا على وجهه بدون خطأ؛ وابتدأ

ذلك بهذه الضربة فسخطوا علينا لان الفتيات يفضلن الذهاب معنا.

ـ ماذا ابتدأ؟

ـ أوه... لا شيء فقد تنازعنا، ولولم يطلق النار لم يحدث شيء. ولكن باناس اطلق النار وخارتشنكو ايضا فاخذنا نطاردهم، ولم نكن نريد ان نضربهم وانما كان قصدنا فقط ان ننزع البنادق منهم ولكنهم تحصنوا وحينئذ حاول بريخودكو ـ وانت تعرفه وتعرف كيف يصنع ـ ان يدخل عليهم ويقتحم المكان.

ـ كيف صنع؟ لقد صنعتم... فاين البنادق؟ وكم عددها؟

ـ اثنتان.

والتفت اوسادتشي صوب سوروكا قائلا:

ـ هيا احضرهما.

واحضرتا، وصرفت الاولاد الى المعامل، فتمتم الرئيس امام البندقيتين قائلا:

ـ هكذا، أيمكن أن آخذهما؟

ـ ولماذا؟ ان ابنك لا يحق له حمل السلاح وكذلك خارتشنكو. فليس لى الحق بان اعيدهما لك.

ـ أوه... ولكنى لا ألح عليهما. يمكنك ان تحتفظ بهما اذا كانتا تلزمانك لاخافة اللصوص فى الغابة. وان ما اريده ـ كما ترى ـ هو ان لا تجعل من الحبة قبة فتكبر الامر وتهوله. انها حادثة اولاد... كما رأيت...

ـ بعبارة اخرى... ألا ارفع دعوى؟

ـ نعم، تماما.

واخذت اضحك:

ـ ولماذا نفعل ذلك؟ فنحن جيران...

قال العجوز منشرحاً:

ـ هذا هو الحق... هذاهو... نحن جيران وقد يحدث كل شئ؛ واذا اقتضى الامر ان يعرف فى المراجع العليا كل شئ...

وذهب الرئيس، وانزاح عن قلبى عبء ثقيل.

وفى الحقيقة لا بد لى ـ ايضا مرة اخرى ـ من ان احاول ربط هذه الحادثة بنظرية فن التربية. على

اننا كنا سعداء من خاتمتها الطيبة، انا والاولاد الى حد اننا وضعنا التربية جانبا هذه المرة. ولم اعاقبهم: فقد اعطونى عهداً بان لا يذهبوا الى بيروغوفكا بدون اذني؛ وبان يعقدوا صلات طيبة مع اولاد هذه القرية.

١٥. «طفلنا هو اجملهم...»

فى شتاء ١٩٢٢ كان فى الاصلاحية ست فتيات. وفى هذا الوقت كانت اوليا فورونوفا قد اصبحت ظاهرة جمال. وكان الاولاد ينظرون اليها نظرة اهتمام بها ولكنها كان تظهر مع الجميع بمظهر لطيف متباعد. وكان بورون وحده صديقها. ففى حمى كتفيه العريضين كانت اوليا لا تخاف احدا عندنا؛ وكان فى وسعها ان ترد باحتقار حتى على حب بريخودكو وهو اقوى شخص واغلظ شخص فى الاصلاحية. ولم يكن بورون عاشقا لها وانما نشأت بينهما صداقة حقيقية جميلة تقوم بين الاولاد؛ وقد جعلهما هذا الامر يكبران فى اعين

رفاقهما. وعلى الرغم من جمال اوليا فلم يكن فيها شئ يبرزها. كانت تحب الزراعة كثيرا و اعمال الحقول حتى الشاق منها؛ وكانت تسحرها هذه الاعمال كما تفعل الموسيقى، فكانت تحلم قائلة:

ـ عندما سأكبر، سأتزوج فلاحا...

وكانت ناستيا نوتشيفنايا هى التى تسيطر عند الفتيات. وقد ارسلت الى الاصلاحية مصحوبة باضبارة ضخمة، كتب فيها ركام من الاشياء وتدور حولها: فهى سارقة ومخبئة للسرقات وصاحبة مأوى للصوص. وقد كنا ننظر اليها نظرتنا الى شيء عجيب؛ لقد كانت كائنا شريفا ولطيفا بشكل غريب. لم تكن ناستيا قد ناهزت الخامسة عشرة؛ ولكنها كانت تتميز بتقاطيعها المليئة وبياض وجهها وشموخ رأسها وقوة شخصيتها. لقد كانت تعرف كيف توبخ الفتيات بدون صراخ لا معنى له وكيف تعيد الى النظام اى ولد فى الاصلاحية بنظرة واحدة، تكفيه درسا موجزا له تأثيره فى النفس:

ـ لماذا كسرت قطعة الخبز هذه لترميها؟ هل اصبحت غنيا ام انك كنت فى المدرسة مع الخنازير. هيا تناولها حالا!

كان لها صوت ينبعث من اعماق صدرها، ويعبر عن القوة التى فيها.

وقد كانت ناستيا قد عقدت صلات مع المربيات وكانت تقرأ بشغف وتتابع اشياء كثيرة بدون اى تردد فى طريقها المرسومة لها صوب كلية العمال. ولكن هذا الهدف كان لا يزال بعيداً بالنسبة لناستيا؛ شأنها فى ذلك شأن الآخرين الذين يطمحون اليها: ككارابانوف، وفيرشنيف، وزادوروف، وفيتكوفسكى. كان رعيلنا الاول قليل التعليم جدا ويتمرسون بمشقة فى طلاسم الحساب ومبادئ السياسة. وقد كانت رايسا سوكولوفا اكثر الجميع ثقافة وعلما؛ فارسلناها الى كلية العمال فى كييف في خريف ١٩٢١.

كان عملا لا امل له فى الحقيقة؛ على ان مربياتنا كن يرغبن رغبة ملحة بان يكون للاصلاحية ممثل فى

كلية العمال. انه لهدف نبيل بيد ان رايسا لم تكن قط أهلاً لتأمين نجاح هذه القضية المقدسة. كانت تتأهب طيلة الصيف للامتحان؛ ولكن كان يجب ان تجلس الى كتبها بالاكراه لان رايسا ماكانت لتطمح الى اى تعليم.

كان زادوروف وفيرشنيف وكارابانوف وجميع الاولاد الذين كانوا يميلون الى العلم، غير راضين عن اختيار رايسا لتدخل كلية العمال. كانت لفيرشنيف دائما كلمات جافية ملء فمه؛ عندما يذكر بالمستقبل اللامع الذى ينتظر رايسا. لقد كان ولدا يمتاز بكفاءته العظيمة على القراءة فى كل لحظة حتى حينما يشتغل بكير المعمل ؛كما كان نصيرا للعدالة ومحبا للحقيقة ينشدها أنى كانت. فكان يقول لي وهو يغمغم:

ـ كيف لم يفهم ذلك؟ سوف ينتهى الامر بها حتما الى السجن.

كان كارابانوف يعبر أيضاً بشكل أحزم:

ـ ماكنت لأتوقع منك مثل هذه الغباوة.

كان زادوروف غير متضايق من وجود رايسا؛ فكان يبتسم باحتقار، ويحرك ذراعه بحركة تبعد كل أمل:

– هي في كلية العمال! ان هذا كمن يحاول تقويم ظهر الاحدب...

كانت رايسا تبتسم لكل هذه السخريات بشكل غنج ناعس؛ وعلى الرغم من انها لم تكن ترغب في دخول الكلية؛ ولكنها كانت مسرورة؛ إذ كان يسرها ان تذهب الى كييف.

كنت على اتفاق مع الاولاد حول هذه القضية؛ وفي الواقع كيف ستكون رايسا طالبة في كلية العمال! ففي خلال تحضيرها و تأهبها كانت تتلقى من المدينة بطاقات مريبة فتقوم بالتغيب بشكل خفي من الاصلاحية؛ وبشكل سري ايضا كانت تتلقى زيارة كورنييف وهو حثالة الاصلاحية التي لم يبق فيها الا ثلاثة اسابيع قضاها في سرقتنا بوعي وبشكل منتظم حتى اليوم الذي القي القبض عليه فيه في المدينة وهو يرتكب جريمة

قة. لقد كان زبونا للتحقيق القضائي لا يكاد ينقطع

عنهم وكان مخلوقا ضعيف العقل وكريها الى ابعد حد؛ كما كان واحدا من المخلوقات الانسانية النادرة التى حملتني على القول من الوهلة الأولى: لا أطيقك.

وقبلت رايسا في امتحان الدخول؛ غير انه بعد اسبوع من هذا النبأ الطيب علمنا بسائق الصدفة ان كورنييف قد ذهب ايضا الى كييف.

فقال زادوروف:

ـ الآن ابتدأت الدراسة ابتداءً جدياً.

ومر الشتاء؛ وكانت رايسا تكتب لنا من حين إلى آخر؛ ولكنه ما من شيء كان يؤخذ من رسائلها. فطورا كان يبدو ان كل شيء يسير على ما يرام وطوراً كان يظهر ان دراستها تكلفها صعوبات كثيرة؛ وكانت على الدوام بحاجة الى المال على الرغم من انها كانت تنتفع من منحة مالية تقدم اليها. وقد كنا نبعث لها مرة في الشهر عشرين روبلا او ثلاثين. وكان زادوروف يؤكد ان كورنييف يأكل بهذا المبلغ من المال مآكل مشهية. وهذا ما كان يبدو حقيقيا. لقد كانت المربيات

على الاخص مسؤولات عن هذا العمل اذ بادرن به.

ـ هيا! ان الناس اجمعين ما عداكن كانوا يرون ان هذا الامر لا يمكن ان يتم على ما يرام. كيف يكون هذا ممكنا: نحن كنا نراه وانتن لا ترينه؟

وفي شهر كانون الثاني ـ يناير ـ وصلت رايسا الى الاصلاحية فجأة مع صرة ثيابها وقالت انها جاءت لتقضي العطلة؛ ولكنها لم تكن لتملك أي سمة بالعطلة وكانت كل هيئتها توحي بأنها لن تعود الى كييف؛ وقد ردت كلية العمال على تحقيقي بان رايسا سوكولوفا قد انقطعت عن المعهد وغادرت بيت الطلبة الى وجهة مجهولة.

واتضحت المسألة. يجب ان نعترف بحسن سلوك الاولاد: فما كانوا يشاكسون رايسا؛ وكفوا عن تجربتها الفاشلة وظهروا كأنهم نسوا كل تلك المغامرة فمنذ الأيام الأولى لوصولها كانوا يمازحون ايكاتيرينا غريغوريفنا بما صنعت؛ فكانت مضطربة مشوشة؛

على ان الامر في مجمله كانوا يحكمون عليه كأنه حادث عادى جدا وانه كان متوقعا من اوله.

وفي شهر آذار ـ مارس ـ اعلمتنى المربية اوسيبوفا بارتياب مريع؛ فقالت: انه حسب بعض الدلائل تبدو رايسا حبلى.

وجمدت مدهوشاً. اننا كنا في حالة معقدة. فكروا في هذا الأمر فقط: فتاة حبلى في اصلاحية للأولاد. كنت أستشعر حول اصلاحيتنا في المدينة، في ادارة التعليم العام، بوجود عدد كبير جداً من اولئك المنافقين الذين لن يلبثوا ان ينتهزوا الفرصة ويصرخوا: ان في الاصلاحية الاستهتار الجنسي، ان الاولاد فيها يعيشون مع الفتيات!.. وقد اخافتنى الحالة التى كانت تسود في الاصلاحية وكذلك وضع رايسا الصعب بوصفها من نزلاء الاصلاحية. وطلبت من اوسيبوفا ان تتحدث مع رايسا «بكل صراحة».

وأنكرت رايسا حبلها بحزم وانزعجت:

ـ لا شئ من هذا القبيل اطلاقا! من هو الذى

اخترع مثل هذه الدناءة؟ ولماذا اصبحت المربيات هن ايضا يطلقن الأقاويل؟

وشعرت اوسيبوفا المسكينة انها سلكت سلوكا رديئاً. كانت رايسا سمينة جداً وكان بامكان المرء ان يفسر حبلها الظاهر كأنه سمن غير صحي. هذا فضلاً عن عدم الدلائل الواضحة في الحقيقة. فصدّقنا رايسا.

ولكن بعد اسبوع دعاني زادوروف الى الباحة ليتكلم معي على انفراد.

ـ أتعرف ان رايسا حبلى؟

ـ وانت من اين تعرف هذا؟

ـ يا للسخافة! ألا ترى بام عينك؟ ان الجميع يعرفون هذا وظننت انك تعرفه ايضا.

ـ حسناً لنفترض انها حبلى... وبعدئذ؟

ـ اوه! لا شئ... فقط لماذا تخفي ذلك؟ فإذا كانت حبلى، فهي حبلى... ولكنها تتظاهر كأنه لا شئ من قبيل ذلك. خذ هذه الرسالة من كورنييف. انظر اذن ماذا يكتب لها: «عزيزتي زوجتي

الصغيرة..» وهذا الامر ـ فضلاً عن ذلك ـ معروف من قبل.

واخذ القلق والاضطراب يبدوان على المربين وبدأ هذا الأمر يغيظنى فى نهاية الامر.

ـ ولماذا يفرغ صبركم؟ فاذا كانت حبلى فلسوف تلد. فمن الممكن لها الآن ان تخفى ذلك؛ ولكنها لن تجد الى ذلك سبيلا عندما تلد. ما من شئ رهيب... سيكون هناك طفل صغير.. هذا كل شئ!

واستدعيت رايسا وسألتها:

ـ قولى لى الحقيقة يا رايسا: أأنت حبلى؟

ـ ولماذا يلاحقنى الجميع؟ ما الذى تولاكم حتى تسعوا ورائى بأسئلتكم؟ لا شئ من قبيل ذلك. أفهمت أم لا؟

وانفجرت رايسا بالبكاء.

ـ اسمعى لى يا رايسا؛ اذا كنت فى هذه الحالة فما من داعٍ إلى أن تخفيه. سنساعدك على ايجاد عمل لك عند الحاجة حتى فى الاصلاحية. وسوف نعطيك

ايضا معونات مالية. ويجب ايضا التحضير لولادة الطفل وصنع الملابس له.

ـ ما دمت قلت لك انه لا شئ من قبيل ذلك فلا اريد اى عمل، دعنى وشأنى!

ـ حسنا يمكنك ان تذهبى.

وهكذا لم نعلم شيئا. كان فى وسعنا اخذها الى طبيب يجرى كشفا عليها. ولكن آراء المربين تشعبت حول هذه النقطة فبعضهم كان يلح فى ان ينجلى الامر بأسرع ما يمكن؛ وكان البعض الآخر يؤيدنى بان هذا تحقيق شاق ومهين بالنسبة لفتاة صبية؛ وان هذا الكشف ليس ضروريا لان الحقيقة ستظهر بشكل من الاشكال ان عاجلا او آجلا؛ وانه ما من داع يقتضى العجلة: فاذا كانت رايسا حبلى، فلن تكون الا فى الشهر الخامس على الاكثر؛ فليس لدينا الا ان نتركها وادعة فلسوف تتآلف مع هذه الفكرة ولن يسعها أبداً ان تخفى وضعها.

وتركنا رايسا آمنة وادعة.

وفى الخامس عشر من شهر نيسان (ابريل) افتتح في مسرح المدينة اجتماع كبير للمربين؛ قدمت في خلاله تقريرا حول النظام. وكنت قد انجزته منذ الليلة الاولى؛ غير ان مجادلات قوية دارت حول فرضياتي؛ فكان من الواجب تأجيل المناقشة الى اليوم التالي؛ وكان جميع مربينا تقريباً حاضرين ذلك الاجتماع كما حضره بعض اولادنا الكبار. وقضينا الليلة في المدينة.

وابتدئ اذ ذاك بالاهتمام بالاصلاحية، وبما وراء حدود المقاطعة. وفى اليوم التالي جاء جمهور غفير الى المسرح؛ وكان من بين المسائل التى طرحت على بساط البحث مسألة التربية المختلطة التى كانت حتى ذلك العهد ممنوعة منعا باتا في اصلاحيات الاحداث الجانحين. وقد كانت اصلاحيتنا هى الوحيدة في الاتحاد السوفييتي في اتباعها تجريب هذه الطريقة.

وعند ما اجبت على المتحدثين فكرت في رايسا بشكل عابر غير ان حبلها الطارئ ما كان ليغير شيئا من

فكرتي حول مسألة التربية المختلطة ، فأعلنت الى المجلس ان كل شئ كان يجرى على ما يرام عندنا فى هذه النطقة.

وفى خلال احدى الاستراحات دعيت الى دهليز المسرح؛ فتعثرت فيه على براتشنكو وهو مبهور الانفاس؛ فقد جاء بسرعة كبيرة الى المدينة، ولم يرد ان يقول شيئا لاحد من المربين عما حمله الى المجيء الى المدينة.

ـ عندنا فاجعة يا انطون سيميونوفيتش. فقد عثر على طفل ميت فى مهجع البنات.

ـ ماذا... طفل ميت؟!

ـ ميت... تماما... وهو فى سلة رايسا. كانت لينكا تغسل الارض فنظرت فى السلة بشكل عارض؛ لعل ذلك لتأخذ منها شيئا؛ فوجدت فيها طفلا ميتا.

ـ بماذا تهذى؟

ماذا اقول عن الوضع الذى وجدنا انفسنا فيه. ولم اكن قط حتى ذلك الحين قد استولى علي فزع كهذا الفزع. وغادرت المربيات المسرح وهن ممتقعات حزينات

جدا وذهبن الى الاصلاحية فى احدى العربات، اما انا فلم يكن بالمستطاع ان ألحق بهن لانه كان يجب علي ان ادافع عن تقريري ضد حملات الناقدين.

وسألت انطون براتشنكو :

— اين الطفل الآن؟

— خبأه ايفان ايفانوفيتش فى المهجع. انه الآن هناك.

— واين رايسا؟

— رايسا هى فى المكتب؛ والاولاد يراقبونها.

فبعثت انطون الى الشرطة ليخبرهم بهذا الامر وبقيت اتابع الجدال حول النظام.

ولم اعد الى الاصلاحية الا فى المساء. كانت رايسا جالسة على اريكة من الخشب فى مكتبى وهى شعثاء مرتدية صدارا وسخا وضعته لتشتغل فى الغسيل. ولم تنظر الي عندما دخلت، وانما اطرقت برأسها بشكل اكثر. وعلى هذه الاريكة نفسها كان فيرشنيف محاطا بمجموعة من الكتب كان يبحث — دونما ريب — عن

مستند لانه كان يتصفح بسرعة مجلداً بعد مجلد؛ ولم يكن ليعير أدنى انتباه لأحد.

فأمرت بنزع القفل من على باب المهجع ونقل السلة التي فيها الجثة، الى مستودع البياضات. كان الوقت متأخرا من الليل عندما ذهب الجميع الى النوم؛ فسألت رايسا:

ـ لماذا صنعت هكذا؟

ورفعت رايسا رأسها بشكل مستوحش كأنها حيوان واصلحت صدارها على ركبتيها قائلة:

ـ لقد فعلته... هذا كل شيء.

ـ لماذا لم تصغي الى كلامي؟

فشرعت تبكي فجأة بكاءً خافتاً؛ وقالت:

ـ انا لا اعرف.

وتركتها تمضي الليلة في مكتبي تحت اشراف فيرشنيف؛ فقد كان شغفه بالمطالعة يضمن لي يقظته الكاملة. كنا نخشى جميعا ان تخاطر بحياتها بشكل من الاشكال.

وفى الصباح وصل قاضى التحقيق؛ ولم يستغرق التحقيق زمنا طويلا اذ انه لم يكن هناك من شخص يستجوب؛ وقصت رايسا قصة جريمتها بعبارات موجزة ولكنها دقيقة. فقد ولدت فى الليل فى نفس المهجع الذى كانت تنام فيه خمس فتيات أخريات وما من واحدة استيقظت. كانت رايسا تسرد ذلك كأنه امر طبيعى تماما فقالت:

ـ لقد بذلت جهدا كيلا اتوجع واشكو.

وحالما وضعته واستقبل الحياة، قامت اليه وخنقته بمنديل. وكانت تنكر انها فعلت ذلك عن سبق اصرار وتعمد:

ـ ما كنت لاريد ان افعل ذلك؛ ولكنه طفق يبكى.

وكانت قد خبأت الطفل فى السلة التى كانت ذهبت بها الى كلية العمال؛ وكانت تريد ان تحمله فى الليلة التالية لترميه فى الغابة. كانت تعتقد ان الثعالب سوف تأكله؛ وهكذا لا يعلم امرؤ بأمرها. وفى الصباح ذهبت

الى العمل فى المغسلة حيث كانت الفتيات يغسلن غسيلهن؛ فتناولت طعام الفطو روالغداء مع اولاد الاصلاحية كلهم كأن لم يكن شئ؛ اللهم الا انها كانت كئيبة النفس على حد قول الاولاد.

واخذها القاضى معه وقرر ارسال الجثة الى مختبر احد المستشفيات لاجراء تشريحها.

كانت هيئة المربين قد تضعضعت معنويتهم الى ابعد حد. فكانوا يعتقدون ان هذه نهاية الاصلاحية.

وقد كان شئ من الهياج يسود بين الاولاد. واخذت الفتيات يرتعبن من الظلمة ومن مهجعهن الذى لم يعد فى امكانهن ان يمضين الليل فيه بدون صحبة الاولاد. وقد أمضى زادوروف وكارابانوف عندهن عدة ليالٍ. وكانت النتيجة ان الاولاد والفتيات ما كانوا ليناموا بل ما كانوا ليخلعوا ثيابهم. وقد غدا فى ذلك الوقت تسلية مفضلة لدى الاولاد ان يروعوا الفتيات؛ فكانوا يظهرون فى الليالى تحت نوافذهن ملفوفين بشراشف بيض؛ وينظمون انغاما يلقونها من منافذ المدفأة تقشعر لها الابدان؛

وكانوا يتسللون خفية تحت سرير رايسا؛ فاذا حل المساء تصايحوا باعلى صوتهم من تحته.

اما قتل الولد بحد ذاته فكانوا يعتبرونه من ابسط الامور؛ زد على ذلك انهم كانوا على نقيض مع المربين حول دافع جريمة رايسا. فقد كان المربون على اقتناع بان رايسا قد خنقت الطفل بدافع من الحياء الصبياني: ففى غمرة التوتر الذى ألم بها فى المهجع الراقد، اخذ الطفل الوليد يصرخ بشكل غير متوقع؛ فخشيت ان يستيقظ الآخرون.

اما زادوروف فكان يضحك ضحكا شديدا من هذه التأويلات التى يسمعها من فم المربين المولعين بشؤون علم النفس.

ـ يا للعجب! متى ستنتهون من هذه الاحاديث الفارغة؟ اين وجدتم الحياء الصبيانى؟ كان كل شئ مرتبا فى وقت سابق؛ لذلك لم ترد ان تصرح انها ستلد عما قريب. لقد حسبت هى وكورنييف لكل شئ حسابه وناقشا الامر؛ واعدا السلة ورتبا رميه فى الغابة؛ فاذا

كانت صنعت ذلك بدافع الحياء فهل كانت تذهب الى العمل هادئة مطمئنة في اليوم التالى؟ ان رايسا هذه سأحرق رأسها فورا لو كان امرها منوطا بي. انها فتاة ساقطة كانت كذلك وسوف تظل ساقطة. اما انتم فتتحدثون عن الحياء الصبيانى. انها لا تعرف ادنى معنى للحياء.

ـ ان كان الأمر كذلك، فلاجل أى هدف تصرفت هكذا؟ ولماذا قتلت الطفل؟ ـ كان المربون يطرحون هذا السؤال الباهظ.

ـ أوه. الامر بسيط كل البساطة؛ ان هدفها هو انها: ماذا ستصنع بالطفل؟ يجب الاهتمام به وبتغذيته وبكل شيء. لقد كانا بحاجة كبيرة اليه... الى الولد ولا سيما كورنييف!

ـ ان هذا غير ممكن...

ـ غير ممكن؟ ان امركم لمضحك. طبعا ان رايسا ان تقول ذلك ولكننى متأكد من انه لو قلبتم الامر على وجوهه كافة بالبحث كما يجب لاكتشف هذا واتضح...

كان الاولاد متفقين مع زادوروف حول هذا الامر دونما اى ريب او شك فيه. وكان كارابانوف مقتنعا بان هذه ليست اول مرة «قد تصرفت رايسا هكذا» وانه من المؤكد قد حدث شئ من قبيل ذلك قبل دخولها الاصلاحية.

واخذ كارابانوف جثة الوليد الى المستشفى فى اليوم الثالث بعد القتل وعاد مبتهجا:

ـ لقد رأيت كل شئ هناك! عندهم اشياء كقطع اللحم يضعونها فى الزجاجات ربما ذلك ثلاث عشرات. وهناك منها ما هو بشع قبيح يثير الرعب مرأى وجوهها؛ وكان واحد منها له رجلان مقوستان. حتى ان المرء لا يدرى هل هذا طفل ام ضفدعة. اما وليدنا فقد كان افضلها! ان طفلنا هو اجملهم!

كانت ايكاتيرينا غريغوريفنا تهز برأسها بملامة ولكن بدون ان تجد سبيلا الى ضبط ابتسامتها:

ـ ولكن ماذا تحكى يا سيميون؟ ألا تخجل؟

وضحك الاولاد من حولهما فقد كانوا مستاءين

من الاوجه الشاحبة واشكال الحزن التى يتخذها المربون.

وبعد ثلاثة اشهر حوكمت رايسا. فقد دعى كل المجلس التربوى للاصلاحية الى الادلاء بالشهادة. كان علم النفس ونظرية الحياء الصبيانى تسودان فى المحاكمة. وقد لامنا القاضى على اننا لم نحسن تربية شعور رايسا. ولم يكن فى وسعنا طبعا ان نحتج او نستنكر. وقد دعيت الى ردهة المجلس، وسألتني المحكمة:

– هل تستطيع ان تعيدها الى الاصلاحية؟

– طبعا...

وحكم على رايسا ثمانى سنوات مع وقف التنفيذ، ووضعت على الفور تحت اشراف الاصلاحية ومسؤوليتها.

وعادت الينا كأن لم يكن شئ قد حدث. وقد انتعلت حذاء اصفر جميلا، كانت ترقص به رقصا رائعا فى خلال سهراتنا الصغيرة، وكانت موضع حسد غسالاتنا وفتيات قرية بيروغوفكا.

وقالت لى ناستيا نوتشيفنايا:

ـ يجب ان تخلص الاصلاحية من رايسا؛ والا فسوف نتخلص نحن بانفسنا منها. ان نفوسنا لتشمئز من العيش معها تحت سقف غرفة واحدة.

فسارعت لايجاد عمل لها فى مصنع التريكو.

وقابلتها عدة مرات فى المدينة. وفى عام ١٩٢٨ جئت الى المدينة من أجل اعمالى؛ فأبصرت فجأة رايسا تخدم فى احد المطاعم؛ وعرفتها حالا فكانت قد سمنت؛ وكانت تبدو فى الوقت ذاته اكثر صحة واجمل شكلا.

ـ كيف حالك؟

ـ حسن. انا اشتغل فى مطعم؛ ولي طفلان وزوج طيب.

ـ أهو كورنييف؟

فابتسمت قائلة:

ـ اوه... لا... لقد فات كل شئ... واصبح شيئا منسيا. فقد قتلوه فى الشارع منذ وقت بعيد... ولكن أرأيت يا انطون سيميونوفيتش؟

ـ ماذا؟

ـ شكرا لك على معروفك اذ لم تسلمنى لهوة الضياع يوم ذاك. فمنذ ان دخلت المصنع دفنت الماضى الى الأبد.

١٦. « الهابرسوب »

وفى الربيع انقضت علينا مصيبة جديدة: فقد انتشر عندنا مرض حمى التيفوس. وكان كوستيا فيتكوفسكى اول المصابين بهذا الداء.

ولم يكن لدينا طبيب فى الاصلاحية؛ فكانت ايكاتيرينا غريغوريفنا التى درست فى معهد طبى حيناً من الوقت تقوم بالمعالجة فى الحالات الضرورية التى لا يستطيع فيها المرء ان يستغنى عن الشخص المختص؛ ويكون مع ذلك من العسير استدعاؤه. فقد اكتسبت اختصاصات فى الجرب والتدابير المستعجلة فى الجروح والحروق والرضوض؛ وقد كنا فى الشتاء

تتجمد ارجلنا بسبب احذيتنا الممزقة. تلك هي الامراض كلها التي كان اولادنا عرضة لها في الظاهر؛ لانهم ما كانوا ليتميزوا بنزوعهم الى التعلق باذيال الاطباء والادوية.

لقد كنت دائما ابدى اعجابا عميقا بهم بسبب لامبالاتهم بالمعالجة الطبية؛ وقد تعلمت منهم شخصيا الشيء الكثير في هذا المضمار. واصبح لدينا امرا عاديا كل الاعتياد ان لا نعتبر احدا مريضا اذا كان بدرجة ٣٨ من حرارة الحمى؛ وقد كنا يتباهى بعضنا أمام البعض الآخر باحتماله وتجلده. على انه كان من الضروري لهذا السبب البسيط، ان الاطباء كانوا يقصدوننا على مضض.

لهذا عندما سقط كوستيا مريضا وارتفعت درجة حرارته الى الاربعين اعتبرنا هذا الامر شيئا جديدا في حياة الاصلاحية. فوضعناه في السرير وحاولنا ان نشمله بكل عناية. وقد كان اصدقاؤه في المساء يتحلقون حوله؛ ولما كان له اصدقاء كثيرون فقد كان يجد نفسه

محاطا بجمهور كبير. وكنا نقضي امسياتنا الى جوار سريره كيلا نحرمه من صحبة اصدقائه؛ وكيلا نجعل الاولاد يضطربون ويقلقون.

وبعد ثلاثة ايام افضت الي ايكاتيرينا غريغوريفنا بمخاوفها فقالت: انه يبدو مصابا بحمى التيفوس. فمنعت الاولاد من الاقتراب من سرير كوستيا الا انه كان من المستحيل عزله باى شكلٍ كان؛ فقد كان الأمر يقتضينا ان ندرس فى المهجع نفسه وان نجتمع فيه فى المساء.

وفى اليوم التالى كانت حالة فيتكوفسكى قد اصبحت بالغة السوء، فدرجناه بلحاف سميك ولففناه فتكمش فيه ودسسناه فى العربة واخذته الى المدينة.

وقد كان فى ردهة استقبال المستشفى حوالى اربعين شخصا بين واقف ومضطجع ومن يئن. وقد انتظرنا الطبيب طويلا اذ كان من الواضح ان الناس كان المكان يغص بهم منذ زمن طويل، وان وضع مريض فيه لا

يبشر بشئ حسن. ووصل الطبيب اخيرا؛ فرفع قميص فيتكوفسكي كيفما كان؛ وقال بغمغمة الشيخوخة لمساعده الذى يسجل:

ــ حمى التيفوس... الى المحجر الصحى.

كان المحجر خارج نطاق المدينة، فى معسكر سابق فيه ما يقرب من عشرين براكة خشبية هى من مخلفات الحرب. واخذت اضرب هائما على وجهى بين الممرضات والمرضى والنقالين المنهمكين فى اخراج المحفات المغطاة بالشراشف. فقيل لى ان الطبيب المعاون ينبغى ان يستقبل المريض؛ بيد أنه ما من احد كان يعرف اين هو، وما من احد كان يود ان يبحث عنه. وفى آخر الامر فرغ صبرى فوثبت على اقرب ممرضة مستعملا هذه التعابير: «فضيحة» «هذا غير انسانى» «هذا مثير للنفس». وقد احدث حنقى تأثيره: فقد نزعت الثياب عن كوستيا ونقل الى مكان ما.

وحينما عدت الى الاصلاحية علمت ان زادوروف واوسادتشى وبيلوخين كانوا قد ارتفعت درجة حرارتهم

الى نفس المستوى. على اننى وجدت زادوروف ما يزال قائما على رجليه وذلك فى نفس اللحظة التى كان يجيب فيها على ايكاتيرينا غريغوريفنا التى كانت تحثه على ان يركن الى السرير.

– ولكن ما اغربك من امرأة. لماذا اذن سأذهب الى سريرى؟ ان سوفرون فى معمل الحدادة سيشفينى فوراً...

– باى وسيلة سيشفيك سوفرون. ما هذه الحماقات التى تحكيها!؟

– بنفس الوسيلة التى يعالج بها نفسه: بالفودكا والفليفلة والملح والزيت المعدنى وقليل من شحم الدواليب.

قال هذا زادوروف بملء حنجرته وصوته كعادته من الصراحة والوضوح.

وتوجهت الي ايكاتيرينا غريغوريفنا بالحديث فقالت:

– انظر يا انطون سيميونوفيتش الى اى حد افسدت اخلاقهم. انه سيجعل سوفرون يعالجه... اذهب الى السرير اتسمعنى؟!

كان زادوروف قد الهبته حرارة الحمى؛ وكان ظاهراً انه لا يكاد يجد القوة للانتصاب على ساقيه؛ فامسكته من ذراعه واخذته الى المهجع بدون ان اقول كلمة، وقد كان هناك اوسادتشي وبيلوخين. كان اوسادتشي يعاني وطأة الالم ويشتكي. وكنت قد لاحظت منذ امد بعيد ان هؤلاء «الاقوياء» يحتملون دائما بمشقة وطأة المرض. وكان بيلوخين بالمقابل – مشرق النفس مرحاً كعادته.

لم يكن في الاصلاحية مخلوق اكثر مرحاً وبهجة من بيلوخين. فهو من أسرة عاملة عريقة في العمل من مدينة نيجني – تاغيل؛ وقد رحل عنها وقت المجاعة ليسعى وراء قوته ورزقه. واوقف في موسكو خلال حملة القاء القبض على المشردين؛ فوضع في بيت للاطفال. ثم هرب وانغمس في حياة الشوارع. وامسك به مرة ثانية وعاد الى الهرب. وقد كان بصفته ولدا نشيطا يحاول ان لا يسرق انما يفضل ان يضارب. غير انه كان يحكي عن مضارباته ضاحكا ضحكة ساذجة؛ كانت عملياته تتسم دائما بطابع الجرأة والاصالة الا انها ما كانت

تصل الى توفيق او نجاح، فقرر بيلوخين فى نهاية الامر وهو مقتنع، بان هذه الحرفة لا طائل منها؛ وعزم على ان يقصد اوكرانيا.

وكان قد تردد على مقاعد المدرسة، وكان ملماً بشئ من كل مادة. كان ولدا خفيفا نشيطا وقد حمل عصا التسيار يضرب فى الارض بجهل مطبق. وكان هناك اولاد امثاله: تعلموا القراءة والكتابة واجادوهما وألموا بفكرة عن حساب الفوائد؛ ولكن كل هذا اقام فى ادمغتهم بشكل مضطرب عجيب جدا حتى ان النتيجة كانت مثارا للضحك والسخرية. كان بيلوخين يتكلم لغة مضحكة ايضا الا انها مليئة بالفكر والعاطفة.

كان يثرثر على فراش المرض فلا ينقطع له حديث وكان على عادته دائما يلقى كلمات هازلة مضحكة بشكل بديهى مما يضاعف اثر نكاته اللطيفة.

ـ ان الحمى ان هى الا ان مركبات الاطباء الفكرية فلماذا اذن لحقتني انا... العامل منذ خلقت؟ اريد ان اقول لك عندما تنضج الاشتراكية سنضرب الباب فى

وجه هذه الجرثومة؛ ما لم نفترض انها وجدت الدافع لتأخذ بطاقة الغذاء او أي شئ آخر؛ لانها هي ايضا يجب ان تعيش. هذا هو العدل؛ فعليها حينئذ ان تتوجه الى سكرتيرى الكاتب. وسوف اضع سكرتيراً لى كولكا فيرشنيف ما دام قد لازم الكتب وتزوجها شأنه في ذلك شأن الكلب مع براغيثه. ان كولكا هو الذى سيقوم بالعمل الفكري وسوف يرى ان كل واحد — برغوثا كان او جرثومة — ينطبق على التوازن الديموقراطى.

فسأل كولكا فيرشنيف وهو يتلعثم:

— سأكون سكرتيرا؛ وانت ماذا ستعمل عندما ستكون الاشتراكية؟

كان يجلس عند رجلى بيلوخين والكتاب في يده كالعادة؛ وكعادته ايضا كان منفوش الشعر ممزق القميص.

— انا.. سوف اكتب القوانين حول الطريقة التى ينبغى لك ان ترتدى بها الثياب لتكون لك هيئة الانسان؛ لا هيئة الصعاليك هذه التى تثير حتى توسكا سولوفييف. اتحسب نفسك قارئا جميلا وانت لك وجه القرد؛

ذ على ذلك ان جميع اصحاب الحيوانات لم يشهدوا قردا اسود مثلك. أليس هذا صحيحا يا توسكا؟

ويضحك الاولاد من فيرشنيف؛ ولم يكن هذا ليتملكه الغيظ بل كان ينظر الى بيلوخين نظرة ود بعينيه الشهباوين: فقد كان الصديقان قد وصلا معا الى الاصلاحية؛ وكانا يشتغلان جنبا الى جنب فى معمل الحدادة، ولكن بينما كان بيلوخين يطرق الحديد على السندان كان كولكا يؤثر ان يعمل على الكير حتى يحتفظ باحدى يديه طليقة فيتمكن من القراءة بكتابه.

اما توسكا سولوفييف فكان كثيرا ما يسمى انطون سيميونوفيتش – فقد كان اسمه مجانسا لاسمى تماما – وكان عمره لا تعدى العاشرة. وقد وجده بيلوخين فى غابتنا يموت من الجوع ولا يعى شيئا. كان قد جاء الى اوكرانيا من مقاطعة سامارا مع والديه. وقد فقد امه على الطريق ولم يكن ليذكر ماذا حدث بعد ذلك. كان له وجه طفل جميل صافى القسمات؛ متعلق دائما ببيلوخين؛ لقد جرت حياته الصغيرة دونما انطباعات

قوية بشكل خاص؛ اما بيلوخين هذا الولد الهذار الخفيف الواثق من نفسه، فما كان ليخشى الحياة من ناحية تكوينه العضوى؛ فكان يعرف ثمن كل شئ فى الوجود وقد سحر توسكا دائما وعلقه به.

كان توسكا واقفا بجوار سرير بيلوخين، وكانت عيناه تتقدان بالعطف والسحر. وكان صوت ضحكته الفتية يدوى فى الفضاء:

ـ قرد اسود!

قال له بيلوخين وهو يجلبه من وراء السرير.

ـ اما توسكا فسيكون شخصية لها شأنها.

كان توسكا مرتبكاً يميل على بطن بيلوخين الملفوف باللحاف.

ـ اسمع يا توسكا؛ لا تحاول ان تغمس نفسك فى غمرة الكتب كما يصنع كولكا؛ فقد رأيت كيف فعل هذا بدماغه؟

فقال زادوروف من السرير المجاور:

ـ ليس هو الذى يلتهم الكتب بل على العكس...

كنت جالسا قريبا منهم ألعب بالشطرنج مع كارابانوف ؛ ففكرت في نفسي : «لقد نسوا انهم مصابون بالحمى... وأيم الحق».

ــ فليذهب واحد منكم يدعو لي ايكاتيرينا غريغوريفنا.

فجاءت كأنها ملاك الغضب.

ــ هذا شئ لطيف! ماذا يصنع توسكا فيتسكع هنا؟ ألم تفكر في الامر؟ هذا غير محتمل!

وانتزع توسكا نفسه من السرير وهو مرتاع ورجع على اعقابه؛ فتشبث كارابانوف بذراعه وركبتاه مثنيتان وقد سيطر عليه فزع مريع متصنع وتراجع مندفعا الى احد الاركان:

ــ اه، يا للهول!

فصاح زادوروف بصوت مبحوح:

ــ يا توسكا خذ معك ايضا انطون سيميونوفيتش. لماذا تركته يقع؟

واجالت ايكاتيرينا غريغوريفنا الطرف في الجمهور المرح بعينين ضعيفتين:

ــ تماما كما عند قبائل الزولو.

قال بيلوخين برصانة:

ــ الزولو. انهم قبائل تضرب في الارض على غير هدى بدون سراويل ويتخذون طعامهم من لحوم اصدقائهم واصحابهم. فعندما يصادف واحد من هؤلاء الاولاد فتاة، فانه يقول لها: «اسمحي ان اصطحبك وارافقك».. فترد عليه هذه وهي جد مسرورة قائلة: «ولماذا؟ انني اصطحب نفسي واسير وحدي سيرا طيبا».. «ولكن لا... فكري: أيمكن هذا؟ ايمكن ان اتركك تعودين وحيدة؟» وفي نهاية الامر لا تكاد تنعطف في زقاق ضيق حتى يلتهمها آكلا لحمها بدون ملح.

وجاء من آخر الركن عاصفة من الضحك من توسكا. فابتسمت ايكاتيرينا غريغوريفنا:

ــ هناك تؤكل الفتيات ولكن هنا يقبل الاطفال الصغار ان يجالسوا المرضى بالحمى. وهذا مثل ذاك.

واغتنم فيرشنيف الفرصة لينتقم من بيلوخين قائلا:

ــ ال... الز.. زو.. لو.. لـ.. لا.. يأ.. كلون

الـ.. الـفتيات.. إ.. انهم ..متحضرون ا.. اكـ.. ثر منك.. بـ.. بـ.. طبيعة الـ.. الـ.. حال... إ.. إ.. نك سو.. ف تعدى تـ.. تـ.. توسكا..

فقالت ايكاتيرينا غريغوريفنا وقد انتبهت الى فيرشنيف:

ـ وانت يا فيرشنيف لماذا بقيت جالسا على هذا السرير؟ هيا ابتعد على الفور!

فاخذه الخجل وشرع يجمع كتبه المبعثرة على فراش بيلوخين.

فتدخل بالكلام زادوروف قائلا:

ـ انه ليس فتاة وان بيلوخين لن يفترسه ويأكله.

فقال توسكا متأملا وقد تقدم الى جانب ايكاتيرينا غريغوريفنا:

ـ انه لا يأكل قردا اسود..

وذهب فيرشنيف يحمل تحت احد ذراعيه طبقة من الكتب وتحت الذراع الآخر توسكا وهو يلبط برجليه ضاحكا دون ان يرى احد كيف حمله هكذا... وجلست

هذه الجماعة كلها على سرير فيرشنيف فى اقصى ركن.

وفى الصباح امتلأت العربة حتى اكتظت؛ تلك العربة ذات الصندوق العميق التى صنعت بناء على تصميم كالينا ايفانوفيتش؛ فكانت اشبه ما تكون بالتابوت. وجلس مرضانا المحمومون فى قاع هذه العربة وهم متزملون باللحافات. وفى آخر هذا التابوت وضعنا لوحا من الخشب وجلست فوقه انا وبراتشنكو. كنت مضطرب النفس اذ اننى كنت استشعر تكرر تلك الحادثة المؤلمة التى وقعت عندما حاولت ان ادخل فيتكوفسكى الى المستشفى. زد على ذلك انه ما كان لدى اى تأكد فى ان هؤلاء يذهبون الى هناك ليتلقوا اى عناية او معالجة.

واستلقى اوسادتشى على ارض العربة وسحب لحافه الى كتفيه بحركة عصبية. وقد ظهر من اللحاف قطن مسود ورأيت عند رجلىّ حذاء اوسادتشى متيبسا ممزقا. اما بيلوخين فقد تقبع بلحافه والتف بشكل اسطرانى، وقال:

ـ يحسب الناس اننا كهان مسافرون. ويتساءل هؤلاء الناس: ولكن لماذا ملئ هذا الركام من الكهان في هذه العربة؟

فرد عليه زادوروف بابتسامة تشف عن مدى تألمه.

وفي المحجر الصحي، وهو المكان الذي لا يتبدل، وجدت ممرضة الغرفة التي فيها كوستيا؛ فتوقفت من اندفاعها في الركض في الممر وقالت:

ـ فيتكوفسكي؟ اعتقد انه هنا...

ـ كيف حاله؟

ـ ما زلنا لا نعرف ذلك.

ولوح انطون براتشنكو بسوطه في الهواء وراء ظهرها قائلا:

ـ هذا مثلا: لا تعرفونه! كيف لا تعرفون؟

هذا الولد معكم؟ ـ قالت هذا الممرضة وهي تنظر بتقزز الى براتشنكو تتصاعد منه رائحة الزبل والتبن العالق بسرواله...

فاخذت أتحدث باحتراس قائلا:

ـ نحن من اصلاحية غوركى ولديكم واحد من اولادنا وهو فيتكوفسكى؛ وقد جلبت لكم ثلاثة آخرين مصابين ايضا بالحمى على ما يبدو.

ـ توجهوا الى غرفة الاستقبال.

ـ انها مكتظة، ثم اننى اود علاوة على ذلك، ان يوضع هؤلاء الاولاد معا.

ـ نحن لا يسعنا ان ننصاع لآهواء كل واحد.

قالت هذه الكلمة «ننصاع» وسارت.

ولكن انطون قطع عليها الطريق قائلا:

ـ كيف تتكلمين هكذا مع الناس!

ـ اذهبوا أيها الرفاق الى غرفة الاستقبال، ليس لدي ما اقوله لكم هنا.

واحتدت الممرضة من انطون؛ وتملكنى الغيظ منه ايضا.

ـ اغرب عن هنا. انك تضايقنا وتزعجنا.

ولم يبرح انطون من هناك فنظر الي والى الممرضة بدهشة؛ وقلت اذ ذاك للممرضة بنفس اللهجة المغتاظة:

ـ جشمي نفسك العناء باستماع كلمتين: اريد باصرار ان يشفى هؤلاء الاولاد. وكل واحد منهم تعيدين صحته، سأدفع لك أجرا على ذلك بودين من طحين الحنطة. على انني اود ان اتحدث الى نفس الشخص؛ ان فيتكوفسكي عندك فرتبي امرك لتأخذي الآخرين.

وربما جرح شعور الممرضة التي كنت احدثها فقالت:

ـ تقول «طحين الحنطة»؟ أهذا رشوة؟ لم افهم.

ـ لا اقصد رشوة وانما مكافأة وتشجيعا... فاذا لم توافقي سأجد واحدة غيرك. فليس رشوة؛ اننا نطلب لاجل مرضانا عناية اضافية اكثر، او شيئا من العمل الاضافي ـ وذلك ـ كما تجدين ـ لانهم تغذوا تغذية سيئة، ولانهم لا أهل لهم يرعونهم. فلعلك فهمت.

ـ سوف آخذهم بدون طحين اذا شئت. كم عددهم؟

ـ لقد جلبت ثلاثة منهم؛ ولربما سوف أجلب ايضا...

ــ هيا.

وتبعناها انا وانطون؛ كان يومئ الى الممرضة بغمزات خبيثة من عينيه وباشارات من رأسه؛ الا انه كان ــ على ما يبدو ــ متأثراً من الشكل الذى اتخذه الأمر وقد اذعن الى رفضى بالرد على حركاته الغريبة.

وقادتنا الممرضة الى احدى القاعات فى ركن منعزل من المستشفى وذهب انطون يسعى وراء مرضانا ليجلبهم.

لقد كانوا جميعا مصابين بالحمى طبعا، وقد تفحص معاون الطبيب بدهشة لحافاتنا ولكن الممرضة قالت له بصوت لم يجب عليه:

ــ انهم قادمون من اصلاحية غوركى. ضعهم فى قاعتى.

ــ ألديك مكان فى القاعة؟

ــ سنتدبر الامر. فهناك اثنان سيخرجان اليوم؛ وسوف نسعى لوضع سرير ثالث.

وقد ودعنا بيلوخين بشكل مرح:

ــ اجلبوا مزيدا من الرفاق فالجو هنا ادفأ.

وقد استجبنا لرغبته في اليوم التالى اذ حملنا غولوس وشنيدر ثم ثلاثة آخرين في مدة اسبوع.

ووقف الامر عند هذا الحد لحسن الحظ.

وذهب انطون عدة مرات الى المستشفى ليستعلم من الممرضة عن حالة اولادنا. ولم تكن الحمى لتنال من أولادنا.

كنا نعد العدة للذهاب الى المدينة لجلب احدهم منها؛ فاذا بشبح يظهر فجأة من الغابة فى ظهيرة شاعت فيها ضوضاء الربيع؛ وكان هذا الشبح مجلببا بلحاف مبطن ودخل مباشرة الى معمل الحدادة وهو يشهق قائلا:

— كفى! كيف حالكم يا خراطى الخبز؟ وانت لا تزال تقرأ؟ انظر الى اى حالٍ آل أمرك: لقد صار دماغك يسيل من اذنك.

لقد تملكت الدهشة الاولاد: كان بيلوخين شاحباً ممتقع اللون مرحا كما كان فى الماضى وما من شئ فى الدنيا كان يخيفه.

واسرعت اليه ايكاتيرينا غريغوريفنا تسأله: لماذا عاد سيرا على قدميه لماذا لم ينتظر حتى نأتى ونجلبه؟

ـ لقد صبرت كثيرا يا ايكاتيرينا غريغوريفنا ولكن الشوق استبد بى فى نهاية الامر الى الطبخ. كنت افكر فى نفسى قائلا: هناك الرفاق يأكلون خبز الجودار والمرقة وحساء الحنطة السوداء بملء صحونهم بينما انا يسيطر عليّ غم شديد ويعم كل نفسيتي... حتى لم اعد لأستطيع أن أطيق رؤيتهم يلتهمون الهابرسوب... ها... ها.. ها!...

ـ ما هذا الهابرسوب؟

ـ اجل لعلك تعلمين ان غوغول وصف حساءً كهذا راقني كثيرا. وفي المستشفى قد تعودوا تقديم هذه «الهابرسوب». وحالما كنت اراها كانت تنطلق احدى النكات منى فيهتز لها كل كيانى بحيث لا تبقى خصلة من شعرى مكانها بسبب مزاحى. هذا كل شيء. وقد بدأت الممرضة فى اول الامر بشتمى ولعنى ولكننى فيما بعد كنت

اضحك منها بلهفة منذ ان تخطر ببالى هذه الكلمة: هابرسوب... وما كنت لاقوم بمسها ابدا: وانما كنت اتناول ملعقتى واغرق فى الضحك.. .لهذا هربت وانتم ماذا تغذيتم؟ ابقى شيء من حساء الحنطة السوداء؟

ووجدت ايكاتيرينا غريغوريفنا حليبا فى احد الامكنة اذ لايمكن تقديم حساء الحنطة السوداء الى مريض على الفور.

فشكرها بيلوخين مرحا:

ــ شكرا لك لاستجابتك الى من يموت.

ومع ذلك سكب الحليب فى صحن مليء بالحساء. وتركته ايكاتيرينا غريغوريفنا.

اما الآخرون فلم يمكثوا طويلاً حتى عادوا.

ونقل انطون كيساً من الطحين الابيض الى مسكن الممرضة.

١٧. شارين ينتقم لنفسه

ان ذكرى «طفلنا هو الاجمل!» تلاشت شيئا فشيئا، كما تلاشت مزعجات الحمى؛ ومضى الشتاء بآلام الارجل المتجمدة وسخرة الاحطاب والعاب التزحلق على الجليد والثلج الا انهم فى ادارة التعليم العام ما كانوا ليستطيعوا ان ينسوا «صرامة» قوانينى التنظيمية على غرار آرا كتشييف(١٥). فقد بدأوا فى هذه الدائرة بالتكلم معى بلهجة كانت تذكرنى بلهجة نفس آرا كتشييف الناشر القاسى للمستعمرات العسكرية:

ــ سوف نحد من تجربتك القاسية. يجب خلق تربية اجتماعية لا ادارة سجن.

كنت فى تقريرى حول النظام قد سمحت لنفسى بأن أبدى شكا فى صحة النظريات المقبولة قبولا عاما فى ذلك العهد؛ والتى كانت ترى ان القصاص لا يربى الا عبيدا ارقاء؛ وتؤكد انه ينبغى ترك الميدان فسيحا

لغريزة الطفل الخلاقة لكي يأخذ نفسه ــ قبل كل شيء ــ بالتنظيم والنظام العفوى من تلقاء ذاته ويكل امره اليهما. وكنت قد سمحت لنفسى ان اقدم تأكيدا لا سبيل الى الارتياب فيه من جانبى بانه ما دامت الجماعة لم تخلق مع هيئاتها، والتقاليد لم تحدث او تخلق كما لم يتكون اكتساب للاعتياد على العمل والحياة المشتركة، فان المربى له الحق وعليه الواجب بان لا يمتنع عن اللجوء الى العنف والأكراه. وقد كنت اؤكد ايضا انه من المستحيل اقامة دعائم التربية كلها على اساس مصلحة الطفل لان تربية الشعور بالواجب تكمن احيانا فى مجال مناقض لمصلحة الطفل وخصوصا كما يفهمها هو نفسه. كنت اتطلب تربية قادرة على تقديم انسان متمرس قوى قادر على القيام حتى بعمل مزعج ومضجر اذا كان يتجاوب مع مصالح الجماعة.

وفى النتيجة كنت ادافع عن فكرة انشاء جماعة تحركها روح قوية شديدة البأس؛ وقد كنت اعلق عليها وحدها كل آمالى؛ اما خصومى فقد كانوا يرمون

في وجهي بديهيات تربوية متعارف عليها؛ ولا يملكون غير ترديد نغمة «الطفل».

وقد كنت مستعدا سلفاً الى الحد من نشاط الاصلاحية؛ ولكن المتاعب اليومية لمؤسستنا: البذار واصلاح الاصلاحية الجديدة وترميمها على الدوام، ما كانت لتتيح لي فراغا استشعر فيه الغم والكدر من المضايقات التي تتعرض لي بها ادارة التعليم العام. فقد كان من الجلي الواضح ان احدهم كان يتولى حمايتي لانه مرت فترة طويلة ولم يحدّوني.

ومع ذلك؛ فقد كان يبدو لي أنه لا شيء أسهل من الوضع وكفى!

على انني كنت اتدبر الامر كيلا انساق الى ذلك المرمى. فقد كانوا يتحدثون معي حديثا فيه قليل من الود والاحتقار كذلك، كان احد المفتشين على الاخص قد جعلني هدفا لمعاكساته، وهو: شارين؛ رجل اسمر متأنق ذو شعر اجعد كان مهوى قلوب النساء في المدينة. كانت شفتاه قويتين مليئتين بالدم وطريتين

وحاجباه مقوسين تقويسا جميلا. ان الله يعلم ماذا كان يشتغل قبل عام ١٩١٧، على انه اصبح في ذلك الحين بالضبط اختصاصياً كبيرا في التربية الاجتماعية. فقد كان مستوعبا استيعابا عجيبا لعدد من الاصطلاحات الدارجة؛ وكان يعرف كيف يسرد قطعا طويلة فارغة؛ وهو مقتنع بانها تشتمل على كنوز من الحكمة التربوية والثورية.

كان يقف مني موقف العداء المتعجرف منذ اليوم الذي لم اتمكن فيه من ضبط ضحكة لا سبيل الى مقاومتها فعلا.

كان قد اتى لأحد الامور الى الاصلاحية؛ فرأى على طاولة مكتبي بارومتراً.

فسأل:

— ما هذه الآلة؟

— بارومتر.

— وماذا يعني بارومتر؟

فقلت له مندهشا : ــ مقياس الضغط يستعمل للتنبؤ عن حالة الطقس.

ــ للتنبوء عن حالة الطقس؟ كيف يمكن هذا وهو على طاولتك؟ ان الطقس ليس هنا وانما خارج المكتب.

واذ ذاك انفجرت بضحكة منافية للأدب ولكن لا سبيل الى كبتها. ولو لم يكن على الاقل لشارين سيماء الدكتور الوجيه وشعر المدرس الكبير واتزان العالم النحرير لهان الامر.

فاغتاظ غيظا شديدا قائلا :

ــ علام تضحك؟ وأنت مربٍ فضلاً عن ذلك! كيف تستطيع تعليم اولادك الاحداث وتهذيبهم؟ ينبغى لك ان تشرح لى متى رأيت اننى لا اعرف؛ لا ان تضحك فى وجهى.

وتابعت الضحك غير قادر على مثل عظمة النفس هذه. وكنت قد سمعت منذ حين حكاية تنطبق انطباقا تاما على محادثة شارين حول مقياس الضغط؛ فكان يبدو لى امرا مضحكا جدا ان ارى الحياة تمثل قصة

سخيفة وتعيدها ثانية؛ ويقوم بالدور فيها مفتش فى التعليم العام.

وانسحب شارين مجروح الشعور، منزعجاً،

فعندما قدمت تقريرى حول النظام اجتهد لان «يحطمنى» بحقد فائر قائلاً:

ـ ان نظام العمل الطبى التربوى فى حقل شخصية الطفل على قدر اختلافه فى المؤسسات التربوية الأجتماعية ينبغى له ان يبرز فى الحدود التى يتفق فيها مع متطلبات الطفل الطبيعية وفى المدى الذى يظهر فيه اصول تطور هذا او ذاك من الكيانات البيولوجية او الاقتصادية او الاجتماعية؛ وبناءً على ذلك فاننا نلاحظ...

فقد ظل طوال ساعتين دون ان يستعيد فيها هدوء نفسه وهو يضجر الحضور بمثل هذا الخلط العلمى. ولكنه انهى كلامه مزهواً بهذه الحكمة الجامعة التى طالما لاكتها الالسن:

ـ الحياة فرح وبهجة...

وفى ربيع عام ١٩٢٢ اوقع بي شارين نفسه ضربة صاعقة.

فالقسم الخاص فى الجيش الاول الاحتياطى كان قد ارسل ولدا الى الاصلاحية؛ طالبا قبوله بشكل اجبارى. وكان قد سبق ان حدث لهذا الدائرة كما حدث لدائرة الأمن الداخلى فى بعض المناسبات أن أرسل لنا اولاداً. فاخذت هذا الولد وقبلته. وبعد يومين استدعانى شارين قائلا:

ـ هل اخذت ايفغينيف وقبلته؟

ـ اجل.

ـ بأي حق قبلت ولدا بدون اذننا.

ـ لقد ارسل الينا من قبل القسم الخاص فى الجيش الاول الاحتياطى.

ـ القسم الخاص... وبعدئذ؟ لا يحق لك ان تقبل ولدا بدون اذننا.

ـ ليس فى وسعى ان اصنع غير ذلك حينما ارسله الي القسم الخاص... فاذا كنت تقدر انه لا يحق له

ذلك؛ فعليك ان تسوى هذه المسألة معه بشكل من الاشكال؛ فلا يسعنى ان اكون قاضيا بينك وبين القسم الخاص.

ـ اعد اليهم ايفغينيف فورا.

ـ اعيده بامر كتابى منك فقط.

ـ امرى الشفوي يجب ان يكفى تماما.

ـ اعطنى الامر بخطك.

ـ انا رئيسك وفى وسعى ان اعاقبك فورا بسبعة ايام توقيف جزاءً.

ـ حسنا. اصنع ما تشاء.

كنت ارى ان هذا الرجل يتحرق شوقا لممارسة حقه بتوقيفى سبعة ايام. فلم السعي وراء حجة عندما تكون موجودة احدى الحجج.

ـ ألا تريد ان ترجع هذا الولد؟

ـ اعيده فقط بامر كتابى ليس غير. وانني لأوثر ان يكون الرفيق شارين هو الذى يوقفنى؛ ولا يكون القسم الخاص.

فاهتم المفتش جديا بالامر سائلا:

ـ ولماذا تفضل ان يفعل ذلك شارين؟

ـ انك تعلم... انه لامتع واجمل ان صح التعبير. وذلك ليبقى الامر مع ذلك فى نطاقه التربوى.

ـ على هذه الحال: انت موقوف.

وتناول التلفون:

ـ الشرطة. ارسلوا على الفور رجلا منكم ليأخذ مدير اصلاحية غوركى الذى عاقبته بسبعة ايام توقيف... انا شارين.

ـ ما الذى ينبغى لى ان اصنع؟ أانتظر فى مكتبك؟

ـ نعم. انتظر هنا.

ـ الا يمكنك ان تسمح لى بالتغيب اذا اعطيتك عهدا. فالى ان تأتى الشرطة يمكننى ان استلم بعض الاشياء من المخزن؛ وان أبعث بولد الى الاصلاحية.

ـ لن تخرج من هنا.

واخذ شارين قبعته الداكنة المعلقة التى يتلاءم لونها مع لون شعره الاسود وخرج مسرعا من مكتبه.

فتناولت اذ ذاك التلفون ودعوت رئيس اللجنة التنفيذية فى المقاطعة.

فاستمع الى قصتى بصبر، ثم قال:

ـــ لا يفرغ صبرك يا صديقى، وعد الى بيتك بهدوء؛ او الافضل انتظر الشرطى، ثم قل له ان يدعونى.

ودخل الشرطى.

ـــ أأنت مدير الاصلاحية؟

ـــ نعم. انا.

ـــ حسنا هيا.

ـــ لقد قرر رئيس اللجنة التنفيذية انه بامكانى ان اعود الى بيتى وقد طلب ان تتلفن له انت.

ـــ لن اتلفن الى أحد. فحالما نصل المركز فانْ الرئيس سيتلفن اذا شاء. هيا فلنسر.

وفى الطريق حملق انطون بعينيه عندما رآنى مخفورا على هذه الشاكلة.

ـــ انتظرنى هنا.

ـــ سيطلقون سراحك عما قريب؟.

ـ وما يدريك أنهم سيطلقون سراحى؟

ـ هذا الرجل الاسود الذى مر منذ قليل، قال لى: عد الى البيت فان مديرك لن يرجع. ثم حدثتنى نساء يلبسن قبعات فقلن لى: ان مديرك موقوف.

ـ انتظر سارجع حالا.

وفى المركز اقتضانا الامر ان ننتظر الرئيس. وفى الساعة الرابعة فقط اطلق سراحى.

كانت عربتنا قد امتلأت بالاكياس والصناديق و بينها كانت العربة تحملنا ـ انا وانطون ـ وتمشى مشية بطيئة على الطريق الرئيسى لخاركوف؛ كنا نفكر فى شؤوننا؛ ولعله كان يفكر فى العلف والمراعى اما انا فكنت افكر فى تقلبات الدهر التى يخفيها القدر لمديري الاصلاحيات. ووقفنا عدة مرات لنصلح وضع الاكياس التى تنزلق فى كل جهة ثم كنا نعود ونتسلق فوقها ونتابع الطريق.

وقد كان انطون يجر المقود الايسر لتنعطف العربة الى طريق الاصلاحية؛ وفجأة انزوى جانبا الجواد «الصبى» ورفع رأسه وبدا كأنما يريد ان يشب على رجليه: فمن

الطريق المؤدي الى الاصلاحية خرجت سيارة بسرعة الريح وهى تزمر وتصر دواليبها مسرعة صوب المدينة ومرت قبعة خضراء بلمح البرق والقى علي شارين نظرة ذاهلة. ولمحت الى جانبه تشيرننكو جالسا ممسكاً بتلابيب معطفه وله شاربان. انه رئيس هيئة تفتيش العمال والفلاحين.

ولم يكن لدى انطون الوقت لتأخذه الدهشة من مرور هذه السيارة المسرعة: وكان الجواد «الصبى» قد شبك بعض الاشياء فى جهاز عدته الجلدية؛ غير اننى لم يكن لدي الوقت كذلك: ورأيت زوجين من الخيل ينقضان بسرعة كبيرة من الاصلاحية وهما يجران عربة تسير بضجة كبيرة وهى ممتلئة باولاد حتى تكاد تنقصف بهم فلا يسعها حملهم. كان كارابانوف واقفا فى الامام يقود العربة ورأسه بين كتفيه غائر وهو يتبع بنار عينيه السوداوين السيارة الهاربة. وتخطتنا العربة بسرعة؛ فكان الاولاد يصرخون، وقفزوا الى الارض، وارغموا كارابانوف على التوقف، وهم يضحكون. وعاد كارابانوف الى وعيه

فى نهاية الامر؛ وفهم القصة. وقد كان مفترق الطرق هذا اذ ذاك سوقا حقيقيا من الازدحام.

واحاط بى الاولاد. كان يبدو على كارابانوف انه مستاء غير مسرور لان الامر انتهى نهاية جافة بسيطة. فلم ينزل من العربة وبينما كان يعطف العربة ويديرها لتعود الى الاصلاحية كان يشتم ويسب وهو حانق يخاطب الجوادين:

ـ حا... ايها الجواد اللعين استدر... حملتك الشياطين الى جهنم وحملت الذين صنعوا لى هذا الجواد البليد!..

والتفت اخيرا الجواد الايمن صوب الاصلاحية؛ واطلق آخر فورة لغضبه؛ واسرع بالعربة الى الاصلاحية وهو واقف فى الامام دائما، يرتجف متجهم الوجه.

سألتهم:

ـ ماذا اصابكم لتسرعوا على هذا الشكل كفرقة المطافىء؟

فاضاف انطون قائلا لهم:

ـ ماذا ألم بكم لتسرعوا هكذا؟...

وازدحم الاولاد ليقصوا علي ما حدث. كانت اللوحة التى كونتها هذه الاحداث معتمة قاتمة جدا، بالرغم من انهم شهدوها جميعهم. الى اين كانوا يتجهون بعربتهم يجرها الجوادان؟ وما الذى كانوا مستعدين للقيام به حالما يصلون المدينة؟ هذا ما كانوا يجهلونه هم انفسهم وقد تلقوا اسئلتى عن ذلك بدهشة مفاجئة.

— وما يدرينا؟ عندما نصل المدينة سنرى.

كان زادوروف هو الشخص الوحيد الذى يستطيع ان يقدم لى عرضا متسلسلا لكل ما حدث.

— لقد حدث كل شيء بسرعة بالغة كأنما انقضّ ذلك من السماء. لقد جاءا بالسيارة ولم يرهما احد تقريبا. فقد كنا جميعنا فى غمرة العمل. فصعدا الى غرفتك ولا اعرف ماذا فعلا هناك؛ فذهب احدنا ليرى: فرآهما يفتشان فى الجرارات. فماذا يعنى هذا وما يقصدان. وتجمع الاولاد عند درجك؛ اما هما فقد خرجا فى ذلك الحين تماما. وسمعناهما يقولان لايفان ايفانوفيتش: «استلم الادارة». فحدث حينئذ هرج ومرج لم يعد احد

يفهم شيئا: كان بعضنا يصرخ والبعض الآخر يتحفز للهجوم. اما بورون فكان يصيح حتى تدوى بصوته ارجاء الاصلاحية قائلا: «وأين زججتم بانطون؟» لقد كان هذا تمردا حقا. ولو لاى انا وايفان ايفانوفيتش لامسك الاولاد بهما ضربا وكلما؛ وقد قطعوا لى ازرارى. و استولى الفزع على الرجل الاسود وطفق يعدو الى سيارته القريبة منا. ودار المحرك بسرعة وانطلقا لا يلويان على شيء والاولاد فى اعقابهما يصرخون ويلوحون بايديهم. ووصل سيميون حالا من الاصلاحية الثانية بعربته الفارغة.

ودخلنا الى الاصلاحية. فكان كارابانوف واقفا امام الاصطبل هادئا وهو يحل الخيل ويدافع عن نفسه ضد انطون الذى ارهقه بتوبيخه وتأنيبه:

– بالنسبة اليكم ان الخيل تماثل كل المماثلة للسيارة. انظر كيف يتصاعد الدخان منها.

قال كارابانوف وعيناه واسنانه تتلألأ ببريق مرح:

– انك تعرف يا انطون عندنا شيء آخر لنفكر فيه غير الخيل. افهمت؟

ـ نعم. لقد فهمته قبلك في المدينة. انت كنت تأكل هنا بينما نحن قد زج بنا في السجن.

ووجدت المربين في آخر حد من الارتياع ؛ وكان ايفان ايفانوفيتش مع الآخرين قد احسن اذ لزم الفراش.

ـ تصور يا انطون سيميونوفيتش كيف يمكن ان ينتهي الامر؟ لقد علت الشراسة وجوههم جميعا؛ حتى انني رأيت ان السكاكين ستشرع. وتجاوز الامر الحد. يجب ان نحمد زادوروف: فهو وحده الذي لم يفقد صوابه ووعيه. وكنا نحاول ان نفرقهم ونشتتهم، ولكنهم كانوا يصرخون كالكلاب حانقين ثائرين... آ ـ آه!

ولم اسأل الاولاد؛ وتصرفت على العموم كأن لم يحدث شيء خاص. وكذلك هم لم يطرحوا علي أي سؤال. وما جدوى ذلك! ان اولاد اصلاحية غوركي لاناس واقعيون جدا: وما من شيء كان يمكن ان يشغلهم غير ما كان يحدد على الفور سلوكهم.

ولم ادع الى ادارة التعليم العام. ولم اذهب انا من تلقاء ذاتي. وبعد اسبوع ، اقتضتني الظروف ان امر

على دائرة تفتيش العمال والفلاحين فى المقاطعة؛ فدعيت للذهاب الى رؤية الرئيس فى مكتبه. فاستقبلنى تشيرننكو كأننى اقرب اقربائه:

ـ تفضل اجلس يا صاحبى؛ ـ قال لى هذا وهو يصافح يدى ويتأملنى بابتسامة مشرقة. ثم اردف قائلا: ـ آه!! عندك اولاد يثيرون العجب! لعلك تعرف بعدما حكى لى شارين كنت اتوقع ان اجد اولادا مذعورين مساكين بؤساء. بينما هم ـ يا للكلاب ـ فى واقع الامر انقضوا علينا من كل حدب وصوب وكأنهم الشياطين... بل انهم شياطين حقيقيون. ثم طردونا طردا رائعا. يا للفضيحة! كان شارين فى السيارة لا يتوقف قائلا: «اخشى ان يلحقوا بنا ويمسكونا» فاجيبه: «كل شيء على ما يرام ما دامت السيارة لم يصبها شيء» آه... لكم اغتبطت بذلك كثيراً! فمنذ زمن طويل لم يحدث لى مثل ذلك الاغتباط. وقد حكيت ذلك هنا الى بعض الناس، فضحكوا من ذلك ضحكا شديدا حتى كادوا يقعون تحت الطاولات.

ومنذ ذلك اليوم ابتدأت صداقتنا مع تشيرننكو؛

١٨. «تحالف» مع الفلاحين

لقد بدا اصلاح مزرعة آل تريبكى امرا ثقيلا علينا وشاقا. فابنيتها العديدة لم تكن لتتطلب ترميمات واصلاحات فقط، بل كانت بحاجة الى بنائها ثانية. ولم نكن دائما لنملك المال اللازم. والمساعدة التى كانت تقدمها الينا مؤسسات المقاطعة كانت تتجلى بشكل رئيسى ببطاقات للاستلام من كل انواع مواد البناء التى كان يجب جلبها من مدن اخرى: كييف وخاركوف. وهناك كانوا يزدرون اوراقنا ويسلموننا عُشر طلباتنا؛ وفى بعض الاحيان ما كانوا ليسلمونا شيئا على الاطلاق. وقد نجحنا بالحصول على نصف عربة قطار من الواح الزجاج بعد عدة اسفار الى خاركوف فانتزعتها من ايدينا، وهى ما تزال على السكة، منظمة اقوى من اصلاحيتنا بعد ان وصلت الى مدينتنا.

ان حاجتنا الى المال ونقصه عندنا كان يضعنا فى موضع حرج بالنسبة لليد العاملة؛ وما كنا لنستطيع ان

نستعمل عمالا بالاجرة؛ بيد أننا اذا كنا استخدمناهم، لا نستعملهم الا لاعمال النجارة.

على اننا سرعان ما اكتشفنا موردا للمال؛ كان هذا المورد هو السقائف العتيقة و الاصطبلات المقوضة التى كان عددها كبيرا جدا فى الاصلاحية الجديدة. لقد كان لآل تريبكى مربض لتجويد نسل الخيل؛ وكانت تربية الخيل الاصيلة لا تدخل حتى ذلك الحين فى عداد مشاريع انتاجنا؛ بيد ان اصلاح هذا المربض كان فوق طاقتنا: «هذا ليس فى مقدورنا» كما كان يقول كالينا ايفانوفيتش.

وشرعنا نفك هذه الابنية ونبيع قرميدها للقرويين. كان الزبائن كثيرين: فكل رجل محترم بحاجة لانشاء مدفأة وبناء قبو وكان ممثلو جماعة الكولاك الذين يملأ صدورهم الجشع، يشترون أحجار قرميدنا ليضعوها فقط للاحتياط.

كان الاولاد يقومون باعمال الفك. وقد صنع لهم معمل الحدادة مجموعة من الروافع وذلك من ركام الحدائد العتيقة. وكان العمل يمشى بلا انقطاع.

ولما كان الاولاد الاحداث يشتغلون نصف النهار ويمضون النصف الآخر على مقاعد الدراسة، فقد كان هناك كل يوم سفرتان الى الاصلاحية الجديدة: الفوج الاول والثانى. كانت هذه الافواج تسعى بين الاصلاحيتين منهمكة؛ على ان هذا ما كان ليعوقها قط عن ان تحيد عن الطريق القويم لتنصرف لصيد بعض الدجاجات الكلاسيكية التى تخرج بدون حذر من الباحة لتستنشق الهواء العليل. لقد كان القبض على الدجاجة ثم الاستفادة استفادة كاملة من كل الحريرات الموجودة فيها؛ كان كل هذا يشكل عمليات معقدة تتطلب القدرة والحذر ورباطة الجأش والحماسة؛ وكان الامر يتعقد اكثر لان اولاد الاصلاحية على الرغم من كل شيء كان لهم بعض الصلة بالحضارة؛ ولا يسعهم ان يستغنوا عن النار.

كانت تنقلاتنا الى العمل فى الاصلاحية الثانية تسمح على العموم للاولاد ان يكونوا على صلة اكثر توثقا مع عالم الفلاحين، ومن جهة اخرى ان يكونوا منسجمين كل الانسجام مع فرضيات المادية التأريخية:

ان ما كان يستثير اهتمامهم قبل كل شيء هو الاساس الاقتصادى لوضع الفلاحين الذين توصلوا الى الاتصال بهم اتصالا وثيقا فى هذا العهد الذى نصفه. وكانوا لا يريدون التوغل بعيدا فى مضمار المحاكمات التى تتناول مختلف الابنية الفوقية؛ فقد كانوا يتوغلون مباشرة فى المستودعات والاقبية ويتصرفون حسب هواهم بالخيرات التى كانت مجمعة فيها. وقد كان الاولاد منصرفين الى دراسة تأريخ الحضارة فى الساعات التى ترقد فيها غرائز الملاك الصغار من السكان، اى فى الليل؛ وكانوا ينتظرون انتظارا صحيحا ان يصطدم عملهم بمقاومة تلك الغرائز.. ووفاقا للعلم دائما، اهتم الاولاد فقط، خلال فترة محددة من الوقت، باشباع هذه الحاجة الانسانية الاولية: حاجة الغذاء. الحليب والكريم السميك والشحم والفطائر هذه هى الاسماء الوجيزة التى استعملتها اذ ذاك الاصلاحية غوركى لانشاء «تحالف» مع الفلاحين.

وما دام كارابانوف وتارانيتز وفواوخوف واوسادتشى وميتياغين قد نذروا انفسهم لهذا العمل باسسه العلمية

الوطيدة؛ فقد كان فى وسعى ان انام هادئ البال قرير العين لان هؤلاء الاولاد كانوا يتميزون بمعرفة كاملة لعملهم وبوعي رشيد فى تنفيذه. وذات صباح، بعد ما قام الفلاحون بتفقد قصير لممتلكاتهم، توصلوا الى ان حليب جرتين قد فقد؛ والجرتان باقيتان فى مكانهما تدلان على ان التفقد قد جرى فى وقته، ولكن قفل القبو كان بحالة سليمة . فقد اغلق قبل التفقد مباشرة. والسقف على حاله والكلب لم ينبح فى الليل، وعلى العموم كانت كل الأشياء الحية وغير الحية ترمق الدنيا بعينين مفتوحتين ساهرتين.

لقد تبدل وجه الأمور عندما تعلم الجيل الفتى الحضارة البدائية. وفى هذا الوضع كان القفل يستقبل صاحبه بهيئة يتملكها الذعر لان حياته قد انتهت بمعالجة احدى الروافع المخصصة لتصليح المزرعة القديمة لآل تريبكى . وفى تلك الليلة، على ما يذكر صاحبه، عوى الكلب من اعماق احشائه. وقد كان تقاعس صاحبه وحده هو السبب فى ان الكلب لم يتلق مددا فى الوقت

المطلوب. ثم ان العمل غير المحكم والقليل الخبرة الذى قام به صبياننا كانت نتيجته انهم اخذوا يتحسسون الخوف من ان يلاحقوا من قبل صاحب مزرعة غاضب، اذ ايقظه واخرجه الكلب من فراشه. او انه كان عند المساء فى كمين للزائر غير المرغوب فيه. كانت هذه المطاردات تؤلف اول عنصر لقلقى. وكان الولد المنهزم يعود الى الاصلاحية مطلقا ساقيه للريح، مما لم يكن الجيل القديم ليفعله ابداً. وجاء الرجل المسروق الى الاصلاحية ايضا وايقظنى وطلب ان اسلمه المجرم؛ ولكن المجرم كان قد اندس فى سريره فكان فى امكانى ان اسأل بسذاجة:

– اتستطيع ان تعرف هذا الولد؟

– وكيف السبيل الى معرفته؟ لقد رأيته يركض الى هنا.

فقلت له وأنا أتظاهر بسذاجة اكثر:

– لعله ليس من عندنا.

ـ ليس احد أولادكم؟ انهم عندما لم يكونوا هنا، ما كانت هذه الامور لتحدث...

واخذ الرجل المسروق يثني اصابعه معددا الوقائع التي حدثت:

ـ في الليل الماضي سرق الحليب كله من عند ميروشنيتشنكو؛ وقبل البارحة مساءً كسر قفل عند ستيبان فيرخولا؛ ويوم السبت الفائت اختفت دجاجتان من عند غريتشاني بيترو؛ وفي اليوم الذي سبقه... والارملة ستوفبينا، لعلك تعرف اين تعيش، كانت عندها جرتان من الكريم جاهزتان للبيع في السوق ونزلت المرأة المسكينة ـ كعادتها ـ الى القبو فرأت كل شيء قد انقلب والكريم قد التهم، وافسد ما تبقى. وعند فاسيلي موشتشنكو وعند ياكوف فيرخولا وعند الاحدب، انتظر.. نيشبور موشتشنكو...

ـ ولكن ألديك أدلة على ذلك؟

ـ ادلة؟ لقد جئت لاراك لان السارق ركض الى هنا. ولن اكلف نفسي عناء البحث في غير هذا المكان.

فاولادكم عندما جاءوا الى مزرعة آل تريبكى ينظرون ويتجسسون فى كل مكان...

وفى ذلك الوقت لم ترتح نفسى لهذه الحوادث واشفقت على الفلاحين؛ وكان مؤسفا ومزعجا ان اكون فى اعين الناس عاجزا كل العجز. وقد كنت قليل الارتياح من اننى ما كنت على علم بكل هذه الحوادث. وكان فى استطاعتى ان افترض اذ ذاك اى شئ... زد على ذلك ان اعصابى حين ذاك كانت قد ضعضعتها حوادث الشتاء قليلا.

كان كل شئ يبدو فى الاصلاحية على ما يرام. ففى النهار كان جميع الاولاد يعملون ويدرسون؛ وفى المساء يمزحون ويلعبون ثم يذهبون الى النوم ليستيقظوا فى الصباح فرحين مسرورين بالعيش، ومع ذلك فقد كانت غزوات القرية تتم فى الليل. كان الاولاد القدماء يستقبلون كلامى الساخط بسكوت خانع. وكانت شكاوى الفلاحين لا تهدأ حتى تعود وتضرم نار حقدهم على الاصلاحية.

كان وضعنا يتعقد لان السلب استمر على الطريق

الرئيسي. وقد اتخذت هذه الاعتداءات طابعا آخر: كان الآثمون يعتدون لا للسطو على اموال الفلاحين بقدر ما يريدون نهب الغلال الغذائية بكميات ضئيلة. وفكرت في بادئ الامر بان الاصلاحية لا علاقة لها بهذه الحوادث؛ ولكن الفلاحين كانوا يؤكدون العكس وذلك في خلال احاديثهم الودية معي؛ قائلين:

ـ لا؛ انهم اولادكم. فعندما سنقبض على واحد منهم و نوسعه ضربا ثم نجلبه اليك؛ عند ذلك سترى.

وبذل الاولاد جهدا كبيرا لتهدئتي:

ـ انها اكاذيب من الفلاحين لا تصدق؛ فمن الممكن ان بعضنا يتسلل الى قبو... اما قطع الطريق فهذا هراء...

ورأيتهم مقتنعين باخلاص بانه ما من احد منهم قد قطع الطريق ورأيت ايضا ان هذا النوع من السلب لم يلق ترحيبا لدى اولاد الاصلاحية القدماء. وهذا ما كان يهدئ من توتر نفسي الى اجل... حتى اسمع باول ضجة او اقابل رجال القرية.

وذات مساء انقض على الاصلاحية فجأة جماعة من الشرطة واتخذ حرس منهم مراكزهم عند كل مخارج المهاجع؛ وابتدأ تفتيش عام؛ وقد اوقفت انا ايضا في مكتبي؛ كان هذا الامر هو الذى ساق عمل ممثلي النظام الى الفشل والاخفاق. فقد استقبلهم الاولاد باللكمات وقفزوا من النوافذ وابتدأت أحجار القرميد تتطاير فى الظلام؛ بينما التحم بعضهم فى اركان الباحة واسرع جماعة من الاولاد الى الخيل الواقفة امام الاصطبل فتفرقت الخيول فى الغابة ودخل كارابانوف الى مكتبى بعد سيل من الشتائم المقذعة وهو يصرخ:

– تعال بسرعة... والا فستحدث كارثة.

ذهبت الى الباحة والتف حولى الاولاد وهم ملتثمون مستشيطون غضبا. وكان زادوروف قد توترت اعصابه فصرخ:

– متى سينتهى هذا؟ فلأوضع فى السجن فلن يضيرنى !! أ أنا سجين ام ماذا؟ هل ساوقف؟ لم التفتيش؟ باى حق ينبشون كل مكان ويفتشونه؟

وكان رئيس الفصيلة مذعوراً ولكنه يحاول في أن لا تنخفض اللهجة:

ـ اصدر اوامرك على الفور الى اولادك ليعودوا الى مهاجعهم وان يصطفوا امام اسرتهم.

فسألته:

ـ بأي حق تقومون بالتفتيش؟

ـ هذا ليس من شأنك. لديّ امر.

ـ غادروا الاصلاحية فورا.

ـ ماذا تقول؟

ـ بدون اذن مدير التعليم العام لن اسمح لكم بالتفتيش وسأقاومه بالقوة!

فقال احد الاولاد:

ـ خذ حذرك من ان نفتشك. ولكني صرخت مرعدا:

ـ سكوت!!

فقال الرئيس مهدداً:

ـ حسنا، سوف تتكلم بشكل آخر.

وجمع كيفما كان رجاله الذين ركبوا مطاياهم

بمساعدة الاولاد الذين فرحوا؛ ثم انسحبوا تشيعهم التمنيات الساخرة: بسفر سعيد.

وفي المدينة استطعت أن أحمل المسئولين على توجيه اللوم الى أحد رؤساء الشرطة. وقد تطور مجرى الاحداث بسرعة غريبة بعد هذه الغارة. فقد كان القرويون يمثلون عندي غاضبين ويتوعدون ويصرخون:

ـ لقد سلب اولادكم البارحة سمنا ودهنا من امرأة يافتوخ.

ـ ما هذا الكذب!

ـ بلى... هم! على ان السارق قد انزل قبعته على عينيه حتى لا يعرف.

ـ وكم كانوا؟

ـ واحدا... كما تقول المرأة المسكينة. واحد من عندكم؛ والجاكيت يماثل كل المماثلة لكم.

ـ كذب! هذا ليس ممكنا. ان اولادنا لا يفعلون هذه الافعال.

وكان الفلاحون يعودون ادراجهم؛ وكنا نلتزم صمتا ثقيلا؛ وفجأة انطلق كارابانوف قائلا:

– انها لاكاذيب ... واباطيل. والا كنا قد عرفنا ذلك.

كان الاولاد على ما يبدو يشاركونني قلقي؛ حتى الغارات على اقبية الناس قد انقطعت. وعند حلول المساء كانت الاصلاحية تتربص متجمدة وهي تتوقع شيئا ليس في الحسبان، إنه شئ جديد ومضنٍ ومسيئ. كان كارابانوف وزادوروف وبورون يتجولون من مهجع الى مهجع ويفتشون الاركان المظلمة في الباحة ويتغلغلون في الغابة. وكنت مستوفز الاعصاب في ذلك الوقت مما لم يسبق ان مر عليٍ في حياتي كلها.

وها هو ذا...

ففي ذات مساء انفتحت ابواب مكتبي وبدا بريخودكو تدفعه الى الغرفة جماعة من الاولاد. ورماه كارابانوف على طاولتي اذ كان ممسكا به من تلابيبه. وقال:

– ها هو ذا!

فسألته وقد نال منى العياء:

ـ يتشاجر بالسكين مرة اخرى؟

ـ أي سكين؟ انه هو الذى يقطع الطريق ويسلب الناس!

وانقض علي النبأ انقضاض الصاعقة. فسألت بريخودكو بشكل آلي وهو صامت مضطرب:

ـ أهذا حق؟

فهس هذا وهو مطرق الرأس.

ـ نعم.

ووقعت الكارثة بسرعة البرق. اذ صار المسدس بين يدى:

ـ دعونى!.. لن اعيش معكم!!

ولم يكن لدى وقت لارفع المسدس الى صدغى؛ فقد تصايح الاولاد باكين وانقضوا علي...

ووجدت نفسى امام ايكاتيرينا غريغوريفنا وزادوروف وبورون. كنت مستلقيا على الارض بين الطاولة والجدار غارقا فى الماء... وكان زادوروف

يمسك رأسى ويرفع ناظريه صوب ايكاتيرينا غريغوريفنا قائلا لها:

— اذهبى الى هناك والا فان الاولاد... قد يقتلون بريخودكو..

وبسرعة ذهبت الى الباحة؛ وانتزعت من بين ايديهم بريخودكو يتخبط بالدم وقد فقد وعيه.

١٩. لعبة الرهان

كان ذلك فى مطلع صيف عام ١٩٢٢، وقد كنا نلتزم جانب السكوت على جريمة بريخودكو اذ كان رفاقه قد اوسعوه ضربا حتى اضطر الى ملازمة الفراش زمنا طويلا واستغنينا نحن عن ارهاقه باى استجواب؛ وعلمت بالصدفة ان اعمال مغامراته ما كانت لتتسم بشىء خاص. فلم يضبط معه سلاح.

ومع ذلك فقد كان بريخودكو قاطعا للطريق حقيقيا. وان كل الكارثة التى حدثت فى مكتبى ثم ضرب رفاقه

له، كل هذا لم يحدث في نفسه اى تأثير؛ فسبب فيما بعد الى الاصلاحية لحظات من الزمن مكدرة مزعجة. لقد كان مع ذلك مخلصا للاصلاحية على طريقته الخاصة؛ وما من شئ كان يكفل اى واحد من اعدائها من ان ينهال على رأسه برافعة ثقيلة او فأس حادة. كان ولدا محدود الفكر يعيش دائما خاضعا لانطباعاته الآنية ولأول فكرة تخطر فى يافوخه الاخرق. على انه بالمقابل لم يكن هناك افضل منه فى العمل. فاكثر الاعمال مشقة ما كانت لتنال من نشاطه وقوته؛ وقد كان يعمل بشغف فى ضرب الفأس والمطرقة حتى ولو كانت لا تنزل على رأس رفيق من رفقائه.

هذا وقد امتلأت نفوس الاولاد بالضغينة على الفلاحين بعد تلك الاوقات الصعبة التى عرضنا لها. وما كان الاولاد ليستطيعوا ان يغفروا لهم انهم سبب متاعبنا. وكنت ارى ان الاولاد اذا كانوا قد كفوا عن اهانة الفلاحين إهانة صارخة، فانما فعلوا ذلك إكراما لي.

كانت احاديثي والاحاديث التي يقوم بها المربون حول الفلاح وكدحه وحول الاحترام الذي ينبغي لهذا الكدح، لم يأخذها الاولاد على انها احاديث اناس اكثر ثقافة وذكاءً منهم. فمن وجهة نظر اولاد الاصلاحية، كنا نحن قليلي الفهم لهذه الاشياء: فنحن — مثقفي المدن — غير قادرين، في نظرهم، على فهم الانعدام الكلي لجمال حياة الفلاح.

— انكم لا تعرفون ذلك؛ بينما نحن تعلمنا عن ظهر قلب حقيقة هؤلاء الناس. انهم سيمتصون دمكم من اجل قطعة خبز. جربوا ان تطلبوا منهم شيئا... انهم لا يعطون شيئا لجائع مهما كلف الثمن؛ انهم يؤثرون ان تعفن هذه الاشياء في مستودع الطعام ولا يعطونها لاحد.

— نحن اشقياء... نعم! ولكن نحن نعرف اننا اسأنا التصرف ثم... عفوا عنا وغفروا لنا الاساءة. نحن نعرف هذا؛ ولكنهم ليسوا بحاجة الى احد؛ فالقيصر كان سيئا والسلطة السوفييتية سيئة ايضا؛ وانهم لن

يجدوا احدا صالحا غير من لا يطلب منهم شيئا ويعطيهم كل شئ بالمجان. ما اقذرهم من فلاحين!

ــ انا لا استطيع ان ارى هؤلاء الفلاحين فى وجهى؛ لو كان الأمر لي لقتلتهم جميعهم. قال هذا بورون وهو عريق الاصل فى المدينة.

كان بورون يتخذ فى السوق نفس التسلية دائماً: فكان يقترب من قروى واقف قرب عربته يتصفح بشراسة وجوه لصوص المدينة يذهبون ويجيئون حوله؛ ويسأله:

ــ أانت شقي؟

فينسى الفلاح ــ وهو مشدوه ــ فطنته واحتراسه:

ــ ها؟

ــ ها ــ ها؟ انت ْغرَاكْ اذن ــ يقول هذا بورون منفجرا بالضحك ثم يتبع ذلك بحركة سريعة كالبرق صوب كيس ملقى فى العربة قائلا: ــ امسكه جيدا يا عم.

ويقذف الفلاح سيلا من الشتائم له؛ وهذا ما كان يسعى اليه بورون: انها لمتعة تعادل بالنسبة اليه المتعة التي يجنيها هاوى الموسيقى من حفلة سيمفونية.

وقال لي بورون بصراحة: لولاك لاستحالت حياة هؤلاء الكولاك جحيماً لا تطاق.

وكان احد الاسباب القوية التي ساهمت في افساد علاقاتنا مع الفلاحين ان مزارع الكولاك كانت تكون النطاق الوحيد الذي يحيط باصلاحيتنا؛ اما قرية غونتشاروفكا التي يؤلف الفلاحون الكادحون اغلبية سكانها، فقد كانت تقع بعيدا عن حياتنا نوعا ما. اما جيراننا القريبون امثال آل موسى كاربوفيتش وافريم سيدوروفيتش فكانوا بمنأى عن بعضهم بعضاً؛ في بيوت صغيرة مغطاة بشكل جيد؛ ومطلية بملاط ابيض كالثلج ومحاطة لا بسياجات من العيدان، بل بسياج من الاوتاد لا يتيح لاحد ان ينفذ منه؛ فكانوا يزعجوننا حينما يأتون الى الاصلاحية بشكاواهم المتواصلة حول سلب الغلال الزراعية وهم يتنبأون لنا انه بمثل هذه السياسة لا يستطيع

النظام السوفييتى ان يدوم ويستمر بقاؤه؛ وبينما كانوا يربطون الخيول الكريمة الى العربات ويعبون الفودكا فى الاعياد؛ كانت نساؤهم تضوع منهن رائحة الثياب الجديدة ورائحة الفطائر وكان ابناؤهم يصنفون تصنيفاً ممتازاً فى سوق العرس والفرسان الجاهزين اذ انه لم يكن لهم من منافسين فى الجاكيتات المركزة تركيزا أنيقا والقبعات الجديدة ذات اللون الاخضر الداكن والاحذية الصبيغة الملبسة صيفا وشتاًء بالكوتشوك اللامع.

وكان الاولاد يعرفون كل المعرفة وضع مزرعة كل واحد من جيراننا وكذلك حالة آلة البذار هذه او آلة الحصاد تلك لانهم كانوا كثيراً ما يضطرون الى ان يصلحوا هذه الآلات فى معمل حدادتنا. وكانوا يعرفون ايضا المصير المحزن لعدد من الرعاة والاجراء اذ كان الكولاك يطردونهم بدون شفقة او رحمة وبدون ان يصفوا لهم حقوقهم.

وفى الحقيقة، كانت كراهية اولاد الاصلاحية لهؤلاء الكولاك القابعين وراء ابوابهم وحواجزهم قد وصلتنى ايضا.

على ان هذه المنازعات الدائمة كانت لا تزال تقلقنى. وقد بلغ الامر أوجه بعلاقات الشحناء مع سلطات القرية. هذا وان لوكا سيميونوفيتش عندما تخلى لنا عن حقول آل تريبكى؛ فانه لم يفقد الأمل من طردنا من الاصلاحية الثانية. فقد كان يبذل محاولات ليحصل على وضع الطاحون وجميع اراضى آل تريبكى تحت اشراف مجلس السوفييت الريفى بحجة اقامة مدرسة فيها. وقد نجح بفضل معونة اقاربه وذويه في المدينة، ان يشترى جناحا من الاصلاحية الثانية ليبنى فى القرية من جديد. وقد دفعنا هذا العدوان بقوة الايدى والاوتاد؛ ونجحت بعد جهد بالغاء صفقة البيع وبالبرهنة على ان اكتساب البناء ما كان يتم الا لاجل الخشب لمنفعة لوكا سيميونوفيتش واقاربه.

وكان لوكا سيميونوفيتش وعصابته يكتبون و يرسلون الى المدينة شكاوى لا آخر لها ضد الاصلاحية؛ وكانوا يشوهون سمعتنا بنشاط لدى مختلف المنظمات وكانت مداهمة الشرطة لنا قد تمت بناء على الحاحهم.

وفى خلال الشتاء قام لوكا سيميونوفيتش بمداهمة غرفتى مساءً وطلب بلهجة الامر:

– ارنى سجلاتك لارى ماذا تصنع بالدراهم التى تبتزونها من الفلاحين مقابل اعمال معمل الحدادة.

– اخرج!

– كيف؟

– اخرج من هنا!

ولعل هيئتى ما كانت لتنبئه عن اى نجاح فى محاولته لتوضيح الوجهة التى اتخذها مال الفلاحين، لانه غرب عن وجهى بدون اى حادثة. غير انه اصبح بعد هذا عدوا صريحا لى ولمؤسستنا. اما الاولاد فقد كانوا بدورهم يمقتون لوكا «بكل فورة الشباب».

وفى شهر حزيران – يونيو – ، فى ظهيرة قائظة ظهر موكب على الضفة الثانية للبحيرة. وعندما اقترب الموكب من الاصلاحية رأينا هذا المشهد المريع: كان فلاحان يقودان اوبريشكو وسوروكا موثقين بالحبال.

كان اوبريشكو في جميع الاحوال شخصا بطلا ، ولم يكن يخشى احدا في الاصلاحية غير انطون براتشنكو؛ وكان يعمل تحت امرته وكان يتلقى مرات عديدة ضربات من كفه. انه كان اكبر واقوى من براتشنكو ، ولكن الود الذى لا سبيل الى تبريره والذى ادخله فى روعه رئيس المشرفين على خدمة الخيل وحظه الطيب ، كل ذلك كان يمنعه ان يعتد بنفسه وبمآثره ويزهو عليه. بيد ان اوبريشكو كان مع سائر اولاد الاصلاحية يقف موقف الاباء والانفة؛ فلا تلين له قناة او تخضد له شوكة. كانت شخصيته البارزة تساعده على ذلك: فقد كان مرحا على الدوام ويحب ان يكون فى صحبة مرحة ولهذا السبب ماكان يتردد علينا ويعاشرنا الا فى المجالات التى لا توافقه الصدفة فيها بان يقابل وجها ممطوطا او سحنةً متجهمة. وفى مركز التوزيع رفض رفضا قاطعا ان يذهب الى الاصلاحية؛ فكان علي ان اذهب بنفسى لاحضره اليها؛ فاستقبلنى مضطجعا على سريره بنظرة ازدراء قائلا:

ــ هيا بلط البحر؛ لن أتحرك من هنا.

كنت على علم بصفاته البطولية فاستعملت معه في الكلام لهجة خاصة تماما:

ــ انا متأثر لازعاجك ايها السيد المحترم ولكن لا بد لي من القيام بمهمتي؛ فانا ارجوك ملحا ان تتفضل بركوب العربة التي تنتظرك.

وقد اندهش اوبريشكو للوهلة الأولى متأثرا من هذا اللقاء المهذب فنهض من السرير، ولكن نزوة عناده عادت الى حدتها فاعاد رأسه متهاويا على الوسادة قائلا:

ــ لا... قلت لا! هذا يكفي!

ــ في هذه الحالة، ايها السيد المحترم، سأكون مرغما مع الاسف الشديد على ان استعمل العنف معك.

فرفع اوبريشكو رأسه الملتوي من على الوسادة ونظر الي بدهشة لا زيف فيها او تصنع. وقال:

ــ انظر معي الى هذا، من اين جاء هذا؟ اتحسب انه من اليسير عليك ان تستعمل العنف معي؟!

ـ تفضل وتبصر.

وقويت النبرة الحانقة لصوتى واردفت اليه شيئا من التهكم قائلا:

ـ ...يا عزيزى اوبريشكو..

وفجأة رفعت عقيرتى صائحا وقلت له:

ـ هيا.. امش ايها الشرير انهض...

ووثب من السرير صوب النافذة قائلا:

ـ سأقفز والله.

فقلت له بازدراء:

ـ اما ان تقفز فورا واما ان تذهب وتركب العربة؛ فليس لدي الوقت لاضيعه فى الجدل معك.

كنا فى الطابق الثالث وهذا ما يفسر سبب ابتسام اوبريشكو وقد بدا عليه المرح والصراحة قائلا:

ـ حسنا. ها أنذا قد حضرت... وليس فى وسعى ان اصنع شيئا. أأنت مدير اصلاحية غوركى؟

ـ نعم.

ـ اذن كان يجب ان تقول ذلك؛ انها لصدفة جميلة ان نذهب...

وسارع بنشاط يقوم بالاستعداد للسفر.

وقد كان يشترك فى الاصلاحية اشتراكا مطلقا فى جميع اعمال رفاقه ولكنه ما كان قط ليأخذ الدور الاول فى العمل فكان على ما يبدو يؤثر ان يجد فيه تزجية للوقت وتسلية بدلا من مناسبة للربح.

اما سوروكا فكان اصغر من اوبريشكو؛ كان له وجه مستدير حلو؛ وكان ابله يتلعثم فى الكلام وكان سئ الحظ بشكل غريب ولم تحدث اية مغامرة اشترك فيها وانتهت بنجاح؛ وحالما رآه اولاد الاصلاحية مربوطا الى جانب اوبريشكو انزعجوا كثيرا واستاءوا قائلين:

ـ ماذا خطر لديمترى ليفعل مع سوروكا...

كان يخفرهما رئيس مجلس السوفييت الريفى وصاحبنا القديم موسى كاربوفيتش.

وكانت هيئة موسى كاربوفيتش تبدو اذ ذاك كأنها هيئة ملاك مجروح النفس؛ اما لوكا سيميونوفيتش

فكانت له هيئة السلطة العظيمة ووجاهتها. فقد كانت لحيته الشقراء ممشوطة مشطا دقيقا؛ وكان يرتدى تحت جاكيته قميصا مطرزا نظيفا ــ فمن الواضح أنه ذهب منذ وقت قريب الى الكنيسة.

وابتدأ الرئيس قائلا:

ــ انك تحسن تربية اولادك!

ــ وماذا يهمك هذا؟

ــ ان هذا يهمنى ويعنينى بان اولادك جعلوا حياة الناس جحيما لا تطاق؛ فهم يقطعون الطريق ويسرقون كل شئ.

وتعالت اصوات من جمهرة الاولاد تصيح:

ــ باى حق ايها الجد قد اوثقت رباطهما؟..

ــ انه يظن ان النظام القديم لا يزال...

ــ يجب ان نجعله يرى قليلا...

فقلت لهم:

ــ اسكتوا... ماذا تريد؟ قل.

فأخذ الكلام موسى كاربوفيتش قائلا:

– لقد نشرت زوجتى ثوبا ولحافا على السياج ومر هذان الاثنان ورأيتهما يسرقان. فعدوت وراءهما فأطلقا ساقيهما للريح؛ وركضت لامسك بهما؛ ولحسن الحظ كان لوكا سيميونوفيتش فى طريقه من الكنيسة وبهذا الشكل قبضنا عليهما.

وارتفع صوت من جمهرة الاولاد بصرخ:

– ولماذا قيدتماهما؟

–– كيلا يهربا... وبعدئذ...

فقال الرئيس:

– لسنا بصدد هذا الآن هيا لنكتب محضر ضبط بذلك.

– يمكن الاستغناء عن ذلك. ألم يعيدوا الاشياء؟

– هذا لا يكفى. لا بد من كتابة محضر ضبط.

وقد عزم الرئيس مصمما على ان يتباهى متعجرفا؛ والحق يقال: لقد وجد افضل الاسباب لذلك: فلاول مرة ضبط اولاد الاصلاحية بالجرم المشهود.

كانت الأمور تنقلب على هذا النحو بشكل مزعج

كل الازعاج لنا. لقد كان محضر ضبط سيؤدى بالولدين حتما الى السجن؛ ويصم الاصلاحية بعار لا يمحى.

قلت:

ـ لقد ضبط هذين الولدين لاول مرة؛ وبين الجيران يحدث اشياء كثيرة. فلا بد لاول مرة الصفح والمغفرة.

فقال الرجل الاشقر:

ـ لا. لنصعد الى المكتب لكتابة ضبط بالحادث.

وذكر موسى كاربوفيتش ايضا:

ـ أتذكر عندما امسكتنى ذات ليلة؟ ان فأسى لا تزال عندكم. وكم دفعت غرامة!

ما من مجال للرد عليهما، لقد ضبطنا ضبطا كاملا: فأريت الرجلين الظافرين طريق المكتب وقلت للولدين ساخطا:

ـ ظللتما تبحثان حتى وجدتما الحبل الذى يشنقكما. هل أنتما بحاجة الى ثوب. لقد شاعت الفضيحة... وسوف اسوقكم بالعصا ياعصابة اللصوص. اما هذان الابلهان فليذهبا الى السجن.

وكان الاولاد ساكتين لانهم فعلا قد حصدوا ما زرعوا.

وذهبت بعد هذا الحديث التربوى للغاية الى المكتب.

وظللت طيلة ساعتين ارجو واقنع الرئيس، واعده بان مثل هذا الحادث لن يقع بعد اليوم ابدا. وقبلت ان اصنع لمجلس السوفييت الريفى مجموعة جديدة من الدواليب بما تكلفه من ثمن. ثم وضع الرئيس فى نهاية الامر شرطا وحيدا:

– يجب ان يطلب الاولاد جميعهم منى الصفح والمغفرة.

وقد تعلمت خلال هاتين الساعتين ان اكرهه ما عشت. وكانت هذه الفكرة الدموية تجول فى خاطرى اثناء محادثتنا: اذا امسكوا به مرة فى مكان مظلم واوسعوه ضربا فلن انقذه من بين ايديهم.

ومهما يكن من امر فقد كان لا بد لنا من ان ننتهى. فامرت أولاد الاصلاحية ان يشكلوا صفا امام الدرج

ليستعرضه ممثل السلطة ويخرج عليه. ورفعت يدى الى حافة قبعتى بالتحية واعلنت باسم الاصلاحية باننا مستاءون من الخطيئة التى اقترفها رفيقانا، ونحن نطلب الصفح ونعد بان مثل هذه الحوادث لن تقع فى المستقبل.

والقى لوكا سيميونوفيتش هذا الخطاب:

– يجب ان يكون العقاب على امثال هذه الاعمال من دون شك وباقسى ما ينص عليه القانون من عقوبة؛ لان الفلاح انما هو من دون شك شغيل كادح. ولنفترض ان مواطنا نشر ثوبه فسرق؛ ان هؤلاء السارقين الذين قاموا بهذا العمل انما هم اعداء للشعب، وللبروليتاريا. وانا اذ اقوم باعباء السلطة السوفييتية فلن اتساهل واتسامح مع هذه الاعمال غير المشروعة التى يقوم بها اى لص او مجرم. اما رجاؤكم انتم ايها الحاضرون من دون شك ووعدكم فسوف يبقى هذا موضع نظر. ولكن لما كنتم تطلبون ذلك بضراعة مع مدرركم الذى ينبغى له ان يربيكم ليجعل منكم مواطنين شرفاء لا قطاعا للطرق، فاننى اصفح عنكم من دون شك.

كنت ارتعد من المهانة والغضب؛ وكان اوبريشكو وسوروكا يقفان اصفرى الوجهين فى صفوف اولاد الاصلاحية.

وصافحنى ممثل السلطة وموسى كاربوفيتش وهما يقولان لى اشياء مليئة بالتعاظم والشهامة. بيد اننى لم اسمعها. وقلت للاولاد المصطفين:

ـ تفرقوا!

كانت الشمس تصب اشعتها المحرقة على الاصلاحية؛ ونبات السعتر البرى ينشر روائحه فوق سطح الارض؛ وتيارات الهواء الزرقاء تتجمد فوق الغابات.

ونظرت فيما حولى؛ فوجدت الاصلاحية على حالها؛ بابنيتها الحجرية المكعبة وأولادها انفسهم؛ وغداً سيكون على الدوام الشئ نفسه: ثياب تسرق؛ ومجئ الرئيس وموسى كاربوفيتش؛ واسفار الى المدينة المنهكة والملطخة ببراز الذباب. كان باب غرفتى مفتوحا امامي وفيها سرير وطاولة من الخشب غير المصقول، وفوق الطاولة صرة من التبغ المفروم.

«اين ازج نفسى؟ وماذا يجب عليّ ان اعمل؟
وماذا يمكننى ان اعمل؟»

واتجهت بخطاى صوب الغابات.

ليس لغابة اشجار الصنوبر ظل عند الظهر؛ غير ان كل شئ هناك واضح دائما بشكل كبير؛ فالنظر يمتد منعتقا؛ واشجار الصنوبر الممشوقة تحسن الانتصاب فيها تحت السماء فتشكل تزيينات متناسقة جدا بدون تصنع زائف.

كنا نعيش فى حضن الغابات؛ ومع ذلك فلم تكن لديّ الفرصة لأتغلغل فى اعماقها. كانت الاعمال الانسانية تقيدنى الى طاولات النجارة والسقائف والمهاجع. كان السكون ونقاء اشجار الصنوبر والهواء المشبع بالروائح الصمغية يسحر النفس ويأسرها. واردت ان لا اخرج منها ابدا. وودت لو اننى اصبحت واحدة من هذه الاشجار العابقة الجميلة والحكيمة لاظل هكذا بصحبتها اللطيفة الممتعة منتصبا تحت السماء الزرقاء.

وضوضى غصن ورائى؛ فنظرت فيما حولى: الغابة باسرها من ابعد حد ممكن كانت تعج باولاد الاصلاحية. كانوا يتنقلون بحركات متوجسة مع صف الاشجار وذلك ليجتازوا المسافات المضيئة ويصلوا متجهين الىّ.

ووقفت وقد اخذتنى الدهشة. وتجمدوا هم فى اماكنهم ينظرون الي بعيون حادة مليئة بنوع من الانتظار الجامد المرتاع.

ــ ماذا تصنعون هنا؟ ولماذا لحقتم بي؟

فقال زادوروف بصوت اجش وقد ابتعد عن جذع وكان اقربهم الي:

ــ فلنعد الى الاصلاحية.

فشعرت كأن وخزة فى قلبى قد انتابته:

ــ ماذا حدث هناك؟

لا شىء... هيا فلنذهب.

ــ تكلم... هل قررتم اليوم ان تجعلونى مطية لكم؟

خطوت مسرعا الى لقائه؛ فاقترب منى اثنان أو ثلاثة منهم وظل الباقون بعيدين عني. فهمس لى زادوروف قائلا:

– سنذهب ولكن اسمح...

– ماذا تريد؟

– اسمح لى بمسدسك.

– بمسدسى؟

وفهمت على الفور ماذا يقصد، فطفقت اضحك:

– آه! المسدس! خذوه! ما اسخفكم. ولكن هناك وسائل اخرى يمكننى القيام بها. يمكننى ايضا ان اشنق نفسى او ارمى بنفسى فى البحيرة.

فانطلق زادوروف فجأة بضحكة دوت لها ارجاء الغابة.

– لا... لا... احتفظ به. لقد خطر لنا خاطر... أأنت فى نزهة؟ حسنا تابع نزهتك. اما انا فساعود والاولاد!

وماذا كان قد حدث اذن؟

حينما توجهت في طريق الغابة طار سوروكا الى المهجع قائلا:

– ايها الاولاد ايها الاصحاب هيا الى الغابة فورا. ان انطون سيميونوفيتش سيقوم باطلاق النار على نفسه...

وما كاد ينتهي من كلامه حتى انطلقوا خارج المهجع.

وفي المساء كان جميعهم بحالة اضطراب غير عادي؛ ما خلا كارابانوف الذي كان يتغابى ويدور كابليس بين الاسرة. وكان زادوروف يرى جميع اسنانه بضحكة لطيفة صامتة؛ وكان بدون داع يلصق نفسه الصاقا دائما بوجه شيلابوتين الصغير المتورد. اما بورون فما كان لينفصل عني وقد التزم صمتا عميقا خفيا. اما اوبريشكو فكان في حالة هيسترية: كان مضطجعا في غرفة كوزير يطلق اصواتا غريبة على الوسادة الوسخة؛ وكان سوروكا قد تجنب سخرية الآخرين فذهب يختبىء في احد الامكنة.

فقال زادوروف:

– لعلنا نلعب الرهان.

ولعبناها. وفى التربية بعض الاحيان اشياء تضحك: اربعون ولدا عراة جياع يلعبون لعبة الرهان بمرح فائض على ضوء مصباح الكاز الضعيف؛ ولكن بدون قبلات...

٢٠. اشياء حية واشياء ميتة

حل الربيع وسدت علينا مسألة اللوازم الزراعية كل منفذ وأحرجتنا. فالجوادان: «الصبى» و«قاطعة الطريق» ما كانا يصلحان لشيء؛ وما من حيلة للعمل بهما. وفى كل صباح كان كالينان ايفانوفيتش يهب ليلقى فى الاصطبل خطابات معادية للثورة متهما السلطة السوفييتية باللامبالاة والقسوة تجاه الحيوانات فيقول:

– عندما يراد تكوين مزرعة تستغل؛ فلا بد من تجهيزها بجياد خاصة لا ان نعذب مخلوقا اعجم لا حيلة له بالكلام. فمن الناحية النظرية: هذا جواد... حقا انه كذلك، ولكنه من الناحية العملية يعانى سكرات الموت. ان مرآه ليثير الشفقة، ثم اننا لا سبيل لنا الى العمل على هذه الشاكلة.

وكان براتشنكو يلتزم سلوكا مستقيما. فقد كان يحب الجياد لانها مجرد جياد حية وان كل عمل زائد مفروض على اصدقائه الجياد كان يثير غضبه ويجرح شعوره. وكان يملك الرد على كل طلب وكل ملامة بهذه الحجة الواخزة :

— وانت... لو جعلوك تجر محراثا ؛ فما هى حالك؟ لسوف اكون تواقا الى السماع كيف ستغنى.

وكان يفسر خطابات كالينا ايفانوفيتش على انها تعليمات بان لا يسلم الجياد الى اى عمل كان. على اننا ما كنا لنرغب أن نطلبها منه. كان اصطبل الاصلاحية الثانية قد انجز العمل فيه ؛ وكان يقتضينا الامر منذ ان تحل بشائر الربيع أن ننقل الى هناك جوادين لاجل الحراثة والبذار. ولكننا ما كنا لنمتلك ذينك الجوادين اللذين يصلحان لهذه الاعمال.

وفى خلال محادثة مع تشيرننكو رئيس دائرة تفتيش العمال والفلاحين تكلمنا عرضا عن مصاعبنا وعن حاجتنا الى اعتدة نستأجرها كيفما كان الامر لنخرج من

هذا المأزق؛ فقد حل الربيع ولدينا اعمال وافرة، ولكن الجياد تنقصنا وهذه هي المصيبة. تصور قطعة كبيرة من الارض! فاذا لم نزرعها فماذا سيردد الفلاحون لنا باقوالهم شامتين؟

وفكر تشيرننكو لحظة، ثم وثب بغتة من فرحه قائلا:

— انتظر! عندنا هنا مصلحة للخدمات ولا تلزمنا الجياد في الربيع ابدا. فسوف اعيرك ثلاثة منها؛ فليس لدينا ما نغذيها به؛ وانت ستعيدها الينا بعد شهر ونصف. فاذهب وتحدث مع الوكيل بهذا الشأن.

وبدا وكيل مصلحة الخدمات لدائرة تفتيش العمال والفلاحين رجلا غير متساهل وعمليا جداً فطلب على اعارة الجياد أجراً ذا شأن وهو خمس بودات من القمح بالشهر ودواليب لعربتهم، قائلا:

— اعرف انه عندكم معمل لصنع الدواليب...

— ولكن أهذا ممكن؟ انك تطلب اجرا غاليا منا! أتفعل هذا معنا نحن؟ أهذا صحيح؟

— انا وكيل الشؤون الاقتصادية ولست رئيسا لجمعية

خيرية تعطى احسانا او صدقة، فانا لن اعطيها مجانا ابدا. وانني اعرف انكم سوف تنهكونها وترهقونها بالعمل. لقد قضيت عامين حتى وجدت امثالها. انها ليست جيادا، انها لاعاجيب الدهر!

على انه كان في وسعى ان اعده بمئة بود على كل جواد وبدواليب لعربات المدينة كلها فى سبيل الحصول عليها. فقد كانت تلزمنا الجياد.

وكتب الوكيل عقداً ذا نسختين؛ وكتب جميع شروطه بشكل مفصل يدعو للتأثر بالاعجاب:

«... فالاصلاحية المشار اليها آنفا... تعتبر هذه الدواليب مسلمة لمصلحة الخدمات لدى دائرة تفتيش العمال والفلاحين فى المقاطعة بعد أن تستلمها اللجنة الخاصة وتحرر الضبط اللازم... وفى حالة تأخر اعادة الجياد تتعهد الاصلاحية بأن تدفع الى مصلحة الخدمات لدى دائرة تفتيش العمال والفلاحين كمية من القمح قدرها عشرة أرطال عن كل يوم لكل رأس من الخيل. وفى حالة عدم تنفيذ هذا العقد من قبل الاصلاحية تتعهد

الاصلاحية المذكورة بدفع خمسة أضعاف قيمة الأضرار غرامة...»

وفى اليوم التالى دخل كالينا ايفانوفيتش وانطون الى الاصلاحية وهما يركبان العربة بنشوة الظافر، وقد وقف الاولاد منذ الصباح الباكر حرسا على الطريق. كانت الاصلاحية كلها حتى المربون يرتعدون من البرد بالانتظار؛ كان شيلابوتين وتوسكا اكثر حظاً من الجميع ، فقد قابلا الموكب على الطريق؛ وامتطيا على الفور صهوة الجياد. وما كان كالينا ايفانوفيتش ليبتسم او يتكلم لان كيانه كله كان مفعما بالوقار المهيب. ولم يلتفت انطون براتشنكو برأسه صوبنا: فقد كانت جميع المخلوقات الحية على العموم ليس لها اى قيمة بالنسبة اليه ما خلا الجياد الثلاثة السوداء المربوطة وراء عربتنا.

ونزل كالينا ايفانوفيتش من على صندوق العربة الذى يبدو كالتابوت ونفض قشة من فوق جاكيته وقال لانطون:

ــ يجب ان يكون لها مأوى مناسب ؛ فهذه الجياد ليست مثل الفرس «قاطعة الطريق».

وبعد ان اصدر انطون اوامره الى مساعديه زج جياده القديمة الكريمة عليه فى ابعد الاقسام واسوئها؛ وهو يتوعد مهددا بالضرب بحزام الجلد للفضوليين الذين كانوا يودون القاء نظرة على الاصطبل؛ ورد على العجوز بفظاظة ودودة:

ـ احضر اجهزة اخرى للجياد يا كالينا ايفانوفيتش. هذه الوساخة ما عادت لتجدى شيئا.

كانت الجياد سوداء كلها ذات رقبة طويلة وشكل جميل. وقد تركت لها اسماؤها القديمة التى تعطى لها فى نظر الاولاد نوعا من النبالة. كانت هذه الجياد تسمى: الوحش وصقر وماري.

على ان الوحش لم يلبث طويلا حتى خيب آمالنا: فقد كان جواداً جميلا ولكنه لا يلائم الاعمال الزراعية لانه كان يتعب بسرعة ولا يلبث حتى تبهر انفاسه. وقد كان صقر وماري على العكس من ذلك فكانا يبدوان فى جميع اشكال العمل: قويين وهادئين وجميلين. وان الامل الذى عول عليه انطون بالحصول على جواد عدّاء

بديع وبفضله سيكسف جميع الحوذية فى المدينة؛ ان ذاك الامل كان حلما مسطرا على ثبج الماء. ولكنهما كانا بديعين حقا: فى جر المحراث وآلة البذار. وقد كان كالينا ايفانوفيتش يرسل من صدره زفرات الارتياح منهما وذلك حينما كان يقدم إلي تقريرا فى المساء عن المساحات المحروثة والمبذورة. وقد كان الشيء الوحيد الذى يزعجه انما هو وضع اصحاب الجياد بين سلطات المقاطعة، هذا الوضع غير الملائم تماما بالنسبة لنا.

— كل شيء على ما يرام كما تعلم؛ ولكن اذا تورطنا فى حادث مع دائرة تفتيش العمال والفلاحين... هؤلاء الناس... فانهم سيصنعون ما يشاءون. والى أين سنقدم شكوانا فى هذا الحال؟ اليهم؟

واخذت الحياة تنبض فى الاصلاحية الثانية. فقد انجز احد الابنية واقام فيه ستة اولاد. كانوا يعيشون فيه بدون مربٍ وبدون طباخة؛ وانما تمونوا ببعض موادنا الغذائية من مستودعنا؛ فكانوا يطبخون الطعام لانفسهم

كيفما كان على موقد صغير فى البستان. كانت مهمتهم ان يحرسوا البستان والأبنية وان يؤمنوا المرور على النهر كولوماك وكذلك خدمة الاصطبل مع الجوادين حيث يقوم اوبريشكو بصفة نائب عن براتشنكو. وقد قرر براتشنكو ان يبقى فى الاصلاحية القديمة التى تعج بالاولاد والمرح. وكان يقوم بجولات التفتيش اليومية على الاصلاحية الثانية حيث كانت زياراته لايخشاها فقط اوبريشكو والمشرفون على خدمة الخيل، بل كان جميع الاولاد يخشونها.

كان عمل كبير يقوم فى حقول الاصلاحية الثانية. فالهكتار الستون قد بذر والحق يقال بدون خبرة علمية زراعية وبدون القيام بتناوب دورى منتظم فى زراعة الارض؛ وانما كان ينبت فيه حنطة الخريف والربيع والجودار والشوفان. وقد زرعت عدة هكتارات بالبطاطا والشوندر وكانت زراعة هذين النباتين تتطلب تعشيب الارض وتكويم التراب حول النبات فكان لا بد لنا لهذا الغرض من ان نعمل عملا مضنيا. وكان قد بلغ عدد الاولاد فى الاصلاحية فى ذلك الوقت ستين ولدا.

كانت حركة دائمة تقوم بين الاصلاحية الاولى والاصلاحية الثانية طيلة النهار حتى ساعات متأخرة من الليل. كانت جماعات من الاولاد تذهب الى العمل او تعود منه وكانت عرباتنا تمر محملة بالبذار والعلف او بمؤونة الطعام، وكذلك العربات التى استأجرناها لنقل اوائل البناء. وكان كالينا ايفانوفيتش يركب عربة صغيرة اخذها من احدى الجهات. اما انطون براتشنكو فكان يمتطى صهوة «الوحش» ويأخذه الزهو وهو على سرجه.

وقد كان الجميع تقريبا يذهبون فى ايام الاحد الى الاستحمام فى نهر كولوماك؛ سواء الاولاد او المربون؛ وعلى شاكلتهم الشبان والشابات اعضاء الشبيبة الشيوعية فى قرية بيرغوفكا وغونتشاروفكا، وكذلك اولاد الكولاك فى القرى المحيطة قد تعودوا شيئا فشيئا التجمع على ضفاف النهر اللطيف المرح... وكان نجارونا قد بنوا عليه مصطبة صغيرة ونصبوا فوقها علمنا يرفرف وقد كتب عليه الحرفان «إ. غ» — اصلاحية غوركى — .وبين المصطبة وضفتنا كان يمر طوال اليوم زورق اخضر يحمل العلم

نفسه وقد ركب الزورق ميتيا جيفيلي وڤيتيا بوغويافلانسكي.
واذ أدركت فتياتنا اهمية هيمنتنا على ضفاف نهر كولوماك، صنعن قميصين بحريين لميتيا وڤيتيا من مختلف حوائج المرأة. وكان كثير من الاولاد في الاصلاحية والانحاء المحيطة بنا من بعيد يبدون حسدا ضاريا لهذين الفتيين المحظوظين. واصبح نهر كولوماك نادينا المركزي.

كانت الاصلاحية تفيض بالمرح وبضوضاء العمل الشديد والهمة المستمرة؛ وكذلك كانت تفيض بزيارات زبائننا الفلاحين؛ وبتذمر انطون؛ وبخطابات كالينا ايفانوفيتش التوبيخية؛ وبالضحك الذي لا ينضب له معين وبتهريج كارابانوف وزادوروف وبيلوخين؛ وبالاحداث السيئة التي تقع لسوروكا وغالاتنكو؛ وبحفيف اشجار الصنوبر الموسيقي؛ وبالشمس والشباب...

وكنا قد نسينا في ذلك الوقت الوساخة والقمل والجرب. كل ذلك قد انقرض وزال اثره. كانت الاصلاحية تتلألأ بالنظافة وبالقطع الجديدة التي وضعت بعناية في كل مكان مريب، وعلى كل شيء مهما كان: السراويل

والسياج وجدار السقيفة او الدرج القديم. وكانت نفس الاسرة الخشبية مرصوفة فى المهجع؛ ولكن كان قد اصبح منذ ذلك الوقت ممنوعا الجلوس عليها طيلة النهار لانه اصبح لهذا الغرض مقاعد خشبية بيضاء. وكانت طاولات المطعم المصنوعة من خشب الصنوبر ايضا، تكشط كل يوم بالسكاكين الكاشطة التي صنعت خصيصا لهذا الغرض فى معمل الحدادة.

وقد شهد معمل الحدادة تغييرات اساسية تمت فيه فى هذا الوقت. فالمشروع الشيطانى لكالينا ايفانوفيتش قد تحقق تحققا كاملا: فقد طرد غولوفان لتعاطيه السكر ولاحاديثه المعادية للثورة مع الزبائن. ولكنه لم يحاول ان يسترجع اوائله: فالعمل لم يكن من امل فيه. فقد كان يقتصر على هز رأسه بهيئة اللائم الساخر وهو ذاهب:

ــ لقد اصبحتم سادةً كسائر الناس؛ وسلبتمونى اوائلى. وها انتم اصبحتم اولي الامر!

ولم يكن بيلوخين رجلا يتأثر من امثال هذه الاحاديث؛ فلم تضع سدى قراءته للكتب ورؤيته للعالم؛

فابتسم في وجه غولوفان ابتسامة الفرح والارتياح وقال له:

ـ انك لمواطن قليل الوعي يا سوفرون! لقد مضى عليك اكثر من عام وانت تعمل عندنا وما زلت لا تفهم الامر: هذه ادوات للانتاج.

ـ ولكن هذا ما اقول...

ـ والعلم يقول: ان ادوات الانتاج يجب ان تكون ملكاً للبروليتاريا؛ والبروليتاريا، انظر؛ الا تراها امامك؟

واراه اولئك الممثلين الحقيقيين الاحياء لطبقة البروليتاريا المجيدة: زادوروف وفيرشنيف وكوزما ليشي.

ان سيميون بوغدانينكو هو الذى يأمر فى معمل الحدادة؛ وهو حداد حقيقى من الاب حتى الابن.. وكان اسم عائلته يتمتع بشهرة قديمة فى مصانع سكك الحديد. كان يلتزم فى حقل عمله نظاما عسكريا ونظافة مثلى. فالمسنات والمطارق ترصف كل واحدة فى مكانها المعين، والارض المطروقة قد كنست كما يكنس مسكن امرأة مدبرة مرتبة؛ فما من ذرة من الفحم تسقط

من الموقد، واحاديثه مع الزبائن موجزة دائما وواضحة:

– انت لست فى الكنيسة هنا. لا سبيل الى المساومة.

كان سيميون بوغدانينكو مثقفا حليقاً ولا يتفوه بكلمات نابية جافية.

كان معمل الحدادة لديه اشغال تزيد على طاقته بتصليح عتادنا واعتدة القروين وكانت المعامل الاخرى فى ذلك الوقت قد توقفت تقريبا عن العمل؛ ولكن كوزير بمعونة اثنين من الاولاد كان يستمر – كما كان فى الماضى – بالعمل فى سقيفته الصغيرة لصنع الدواليب: ولم ينخفض طلب صنع الدواليب.

كانت مصلحة الخدمات لدى دائرة تفتيش العمال والفلاحين تحتاج لدواليب خاصة لاطارات المطاط ولم يكن كوزير قد صنع من امثالها قط. كانت نزوة الحضارة هذه تثير اضطرابه بشكل عنيف؛ وكان كل مساء يجلس بعد العمل كئيب النفس قائلا:

ـ نحن لا نعرف كيفية صنع هذه الاطارات من الكوتشوك. لقد كان سيدنا المسيح يمشي على رجليه سعيا وكذلك حواريوه... واليوم يستطيع الناس ان يكتفوا باطارات حديدية لعرباتهم.

وكان كالينا ايفانوفيتش يقول له بلهجة قاسية:

ـ والسكك الحديدية؟ والسيارة؟ ماذا تفعل بها؟ وما يجدينا اذا كان سيدك المسيح يمشي سعيا على قدميه. ان هذا يبرهن على انه كان رجلا جلفاً او انه كان قروياً من نوعك. ولو حاول احد ان يركبه في سيارته عندما كان يسير كالصعلوك، فان ذلك كان سيسره ما من شك في الأمر. ولكنك انت تستشهد قائلا: «كان يمشي سعيا على قدميه». انه لمعيب على رجل شيخ ان يتكلم كلاما من هذا القبيل.

كان كوزير تعلو فمه ابتسامة الخجل، ويهمس مضطرب الوجه:

ـ لو كان في وسعي ان ارى كيف تُركّب هذه الدواليب ذات الاطارات المطاطية لكان في الامكان

صنعها؛ والله يعين على ذلك؛ ولكن كم يلزمها من العيدان القطرية؟ علم ذلك عند الله؟

ـ اذهب اذن الى دائرة تفتيش العمال والفلاحين وانظر؛ واحص هناك عدد العيدان القطرية اللازمة.

ـ الله يعينني... وكيف سيعثر عجوز مسكين مثلي على هذا المكان؟

وفي منتصف شهر حزيران ـ يونيو ـ اراد تشيرننكو ان يبهج نفوس اولادنا:

ـ لقد تكلمت مع احد الناس هنا، وسوف تأتي اليكم فرقة راقصة لترقص امام الاولاد فنحن لدينا كما تعلم راقصات بارعات في فرقتنا للاوبرا؛ وسوف تأخذهن الى هناك مساءً.

ـ حسناً جداً.

ـ ولكن خذ حذرك من ان يقوم لصوصك بارعابهن؛ فهن من وسط رفيع... وبأي واسطة ستنقلهن؟

ـ لدينا عربتنا.

ـ لقد رأيتها... لا. لا. ارسل خيلكم الينا لنربطها الى عربتنا وتجرها، وبعدئذ تذهب لجانبهن. وهناك شئ آخر: ضع حرسا على الطريق ليقوموا بحراسته والا فهناك اناس يمكنهم ان يجوسوا عليه: فهن مثيرات للطمع...

ووصلت الراقصات في وقت متأخر من المساء بعدما اضطربن طيلة مرحلة الطريق؛ وكان انطون بدعابته يهدئ من روعهن:

ـ يجب ان لا ترتعبن؛ فليس لديكن شئ ليسرق منكن؛ ولسنا في فصل الشتاء لتسلب منكن معاطفكن.

وبرزت فرقة حرسنا من الغابة على حين غرة فارتاعت الراقصات ارتياعا شديدا حتى انهن حالما وصلن الى الاصلاحية كان لا بد لهن من تناول نقيع حشيشة الهر.

ورقصن بنفوس كواره فأثرن اشمئزاز الاولاد بشكل قوي. وقد استعملت صغراهن في خلال السهرة كل فصاحة لتبدى مدى تعاليها وعدم اكتراثها وازدرائها للاصلاحية كلها. اما كبراهن فكانت تتأملنا بفزع بادٍ عليها. كان شكلها يغيظ انطون على وجه الخصوص:

ـ قل لى ارجوك هل يستحق هذا العناء ان نرسل زوجاً من الخيل تعدو جيئة وذهابا الى المدينة؟ سأجلب لكم من هناك احسن منهن وسعيا على الاقدام على ما يرام.

فقال زادوروف ضاحكا:

ـ ان راقصاتك لن يرقصن!

ـ يا للعجب! لسوف سنرى!

كانت ايكاتيرينا غريغوريفنا جالسة الى البيانو الذى كان يزين منذ امد طويل احد مهاجعنا. وقد عزفت عزفا ضعيفا؛ ولم تكن موسيقاها لتتماشى مع الباليه؛ ولم يكن لدى الراقصات اللباقة الكافية ليتكلفن القيام بايقاعين او ثلاثة. فقد انهكن انفسهن بوجوه كالحة فى هذه المصاحبة الموسيقية المهلهلة والمقطعة الأوصال. زد على ذلك انهن كن مستعجلات كثيرا جدا للذهاب الى بعض السهرات الممتعة الجميلة.

وبين اضواء الفوانيس وشتائم انطون كانت الخيل تربط الى العربة لجرها، كانت الراقصات فى حالة

اضطراب شديد: فقد كن تأخرن حتما عن سهرتهن. وقد كان الانفعال والاحتقار لهذه الاصلاحية الغارقة في لجج الظلام ولهؤلاء الاولاد الصامتين ولهذا المجتمع الذى كان غريبا عليهن كل الغرابة قد افقدهن حتى قدرة التعبير بغير تنهدات ضعيفة وهن يتساندن على بعضهن بعضا. اما سوروكا فقد كان على مقعد العربة يقوم بصخب حول اعنة الخيل ويصرخ بانه لن يذهب. وكان انطون غير متضايق من وجود الراقصات يرد عليه قائلا:

ـ ماذا انت؟ أسائق عربة ام راقصة؟ لماذا اذن تتراقص على مقعد العربة؟ اذا لم تكن تريد ان تقوم بقيادة العربة فهلم وانزل.

واخيرا هز سوروكا الاعنة؛ وكانت الراقصات هادئات ينظرن بارتياع شديد الى البندقية التى تتدلى من بين كتفيه. وتحركت العربة ولكن صياحا تعالى من براتشنكو:

ـ ماذا فعلت ايها الغراب؟ الست مجنونا بربطك الخيل هكذا؟ اين وضعت الجواد «الاشقر»؟ وكيف

وضعته هكذا؟ هيا اعد ربطه من جديد. ضع «الصقر» تحت يدك؛ كم مرة قلت لك هذا!

وينزع سوروكا بندقيته ويضعها عند اقدام الراقصات وذلك دونما عجلة او اسراع. وتعالى من العربة صوت انتحاب مكبوت.

قال كارابانوف من وراء ظهرى:

ـ واخيرا قد ازعجناهن؛ انني كنت اعتقد اننا لن نزعجهن. مرحى لكم ايها الاولاد!

وبعد خمس دقائق سارت العربة فى طريقها من جديد. ورفعنا ايدينا الى حافة قبعاتنا لنأخذ لهن التحية؛ وما كنا لنتوقع اى رد على تحيتنا. وانطلقت العجلات ذات الاطارات المطاطية على الطريق؛ غير انه فى هذه اللحظة مر طيف مسرعا امامنا وهو يعدو وراء العربة وكان هذا الطيف يحرك ذراعيه صارخا:

ـ قفوا! قفوا بحق السماء! قفوا يا اصدقائى الطيبين!

وجر سوروكا الاعنة حانقا؛ ونهضت احدى الراقصات من مقعدها .

ـ لقد نسيته، سامحني اليه. دعوني أحصى عيدان العجلات...

ومال كوزير على الدولاب وعادت اصوات الانتحاب اشد في العربة، واردف صوت نسائي لطيف قائلا:

ـ هدئن روعكن، هدئن روعكن...

ودفع كارابانوف كوزير عن الدولاب قائلا:

ـ اذهب يا جدى الى...

على ان كارابانوف نفسه قد فرغ صبره، فقرقر بصوت كأنه الهر واندفع في الغابة.

وخرجت عن طوري انا ايضا وقد نفد اصطباري:

ـ اسرع يا سوروكا؛ كافي، أاستأجرت؟

وضرب سوروكا الجواد «الصقر» بالسوط. فانفجر الاولاد ضحكا بينما كان كارابانوف يئن من الضحك في احد الادغال الى ان ضحك انطون نفسه قائلا:

ـ سيكون الامر مهزلة اذا اوقفهن قطاع الطرق. وسيتأخرن هذه المرة حتما عن حفلتهن الساهرة.

ولبث كوزير وسط الجماعة منزعج النفس غير قادر على فهم مدى خطورة الظروف التى منعته من عد عيدان العجلات.

كانت متاعبنا المختلفة قد صرفتنا عن الملاحظة بان مهلة شهر ونصف قد انقضت وحضر وكيل دائرة تفتيش العمال والفلاحين الينا فى الوقت المحدد تماما.

— حسنا كيف حال الجياد؟

— على ما يرام.

— متى ستعيدونها؟

فاجاب انطون ممتقع الوجه:

— نعيدها لك؟ ومن سيشتغل محلها حينئذ؟

فقال الوكيل بصوت حاد:

— هذا ما ينص عليه العقد ايها الرفاق. والقمح متى يمكننا استلامه؟

— كيف؟ والقمح لا يزال فى الحقل ينتظر الحصاد.

— ودواليبى؟

ـ بالنسبة لهذا فان صانع الدواليب عندنا لم يتمكن من احصاء العيدان اللازمة للدولاب؛ وهو لا يعرف كم يلزمها. وما هي قياساتها؟

كان محدثنا يشعر في قرارة نفسه بانه شخصية كبيرة في الاصلاحية. وكيف لا يكون ذلك: انه وكيل دائرة تفتيش العمال والفلاحين.

ـ يجب عليكم ان تدفعوا الغرامة كما نص على ذلك العقد. انه لعقد بيننا! ومنذ اليوم ـ كما تعرفون ـ ينبغي لكم ان تدفعوا عشرة أرطال في اليوم، عشرة أرطال من الحنطة. كما تريدون.

وعاد من حيث أتى. واتبع براتشنكو عربة الوكيل بنظرة حانقة وقال بعبارة موجزة:

ـ يا له من حثالة!

كنا في حالة اضطراب وقلق شديدين. فقد كانت الجياد تلزمنا مهما كلف الثمن ولكن كيف نسلمه المحصول كله؟

وتمتم كالينا ايفانوفيتش قائلا:

— لن اسلم هؤلاء الطفيليين الحنطة. فكر في هذا: أنسلمهم خمسة عشر بوداً في الشهر ثم عشرة أرطال اخرى الآن. لقد كتبوا عليكم كل شئ بالكتابة النظرية؛ ولكن من الناحية العملية نحن الذين ننتج الحنطة. وبعدئذ يجب علينا ان نسلمهم الحبوب ونعيد اليهم الجياد ايضا. فليذهبوا لاخذه اينما شاءوا؛ اما من عندى فلن يأخذوا شيئا.

وكان الاولاد يعارضون تنفيذ العقد والوفاء به.

— اذا كان ينبغي لنا ان نسلمهم المحصول، فلعل الاحسن ان ندعه ييبس ويجف في ارضه. والا فليأخذوا الحنطة ويتركوا لنا الجياد.

وسوى براتشنكو الامر بشكل اكثر ارضاء:

— يمكنكم ان تقدموا إليهم القمح والجودار والبطاطا ايضا؛ ولكن الجياد لن اتخلى عنها. يمكنهم ان يجأروا ويصرخوا كيفما شاءوا ولكنهم لن يعودوا ليروا الجياد مرة ثانية.

وحل شهر تموز – يوليو – فحصد الاولاد القش من المرج وكان كالينا ايفانوفيتش منقبض النفس:

– ان الاولاد يتصرفون تصرفا غير صحيح. القش ليس بذى شأن. ولكن متى سننتهى من الجودار؟ انا لا اعرف شيئا ابدا عنه. لدينا سبعة هكتارت من الجودار وثمانية من القمح الخريفى، ومزيد من القمح الربيعى والشوفان. وما العمل؟ يجب ان نشترى آلة حاصدة.

– ولكن يا كالينا ايفانوفيتش! انك لا تفكر. من اين المال؟

– او حتى آلة حاصدة صغيرة وثمنها كان فيما مضى حوالا مئة وخمسين روبلا او مئتان.

وذات مساء، جلب الي حفنة من الجودار.

– انظر... لا بد من حصاده فى بحر يومين إلى ابعد حد.

واخذنا نستعد لحصاد الجودار بالمناجل؛ وقررنا ان نفتتح جمع المحصول بالاحتفال احتفالا رسميا بعيد اول

حزمة. لقد كان الجودار عندنا فى ارض رملية رطبة مبكرا جدا وهذا ظرف ييسر تنظيم الاحتفال العظيم العتيد. ووجهنا دعوات عديدة وهيأنا وليمة فاخرة ونصبنا الزينات الجميلة لحفلة الافتتاح. فكانت اقواس النصر والاعلام تزين الحقل؛ وبزات الاولاد الجديدة قد اعدت بيد ان كالينا ايفانوفيتش كان مضطربا كل الاضطراب.

ــ لقد اضعنا المحصول وفقدناه! ان الجودار سيسقط قبل ان يكون لدينا الوقت لحصاده. لقد اشتغلنا لاجل الغربان.

على ان الاولاد الذين كانوا يشحذون مناجلهم ويجهزونها فى السقائف كانوا يهدئون روع العجوز:

ــ لن تفقد شيئا يا كالينا ايفانوفيتش، سيتم كل شئ عندنا كأنما نحن فلاحون حقيقيون.

وعين ثمانية حصادين.

وفى يوم الاحتفال نفسه ايقظنى انطون باكرا.

ــ لقد جاءنا رجل ومعه آلة حصادة.

ــ اى آلة حصادة؟

ـ لقد جلب واحدة. وهي آلة جيدة ولها مناجل. وسألنا هل نريد ان نشتريها.

ـ دعوه يمضي الى غيرنا. من اين لنا المال؟

ـ ولكن يمكننا ان نقوم بالمبادلة ـ كما يقول هو ـ فهو يريد ان يبادلها مقابل جواد.

فارتديت ثيابي وذهبت الى الاصطبل. فرأيت وسط الباحة آلة حصادة ليست عتيقة كثيرا، وقد بدا انها مدهونة دهانا جديدا لاجل البيع خاصة. كان الاولاد يحيطون بها وكان كالينا ايفانوفيتش بينهم يلقي نظرات حانقة على الآلة وصاحبها وعليّ.

ـ ماذا يريد منا هذا الرجل؟ لعله جاء ليسخر منا! من جاء به الى هنا؟

حل صاحب الآلة الحاصدة جياده، لقد كان رجلا ذا هيئة مهيبة ولحية رمادية محترمة.

وسأله بورون:

ـ ولماذا تريد ان تبيعها؟

ونظر الرجل فيما حوله:

ـ ابيعها لازوج ابنى، وعندى آلة اخرى تكفينا؛ ولا بد لى من اعطاء جواد لابنى.

وهمس كارابانوف فى اذنى قائلا:

ـ انها لاكاذيب. اننى لاعرف هذا الرجل... ألست انت من ستوروجيفوى؟

ـ بلى من ستوروجيفوى كما قلت. وانت ألست سيميون كارابانوف ابن باناس؟

فقال سيميون وقد اشرقت نفسه:

ـ تماما. وعلى هذا ألست انت اوميلتشنكو؟ أتخاف ان تنتزع منك الآلة؟

ـ هناك شئ من هذا القبيل ثم هناك زواج ابنى.

ـ ولكن لم يعد فى عصابة الـ..؟.

ـ ماذا تقول، أعوذ بالله!

وقام سيميون باجراء جميع المفاوضات؛ وتحادث امام الجياد مع صاحب الآلة حديثا طويلا وهما يهزان برأسيهما ويربتان على كتفيهما وذراعيهما. وقد اتخذ

سيميون هيئة ملاك حقيقي وكان اوميلتشنكو يعامله على انه رجل ذو قدر وحول.

وبعد نصف ساعة عقد سيميون اجتماعا سريا عند درج كالينا ايفانوفيتش. وقد كان يحضره علاوة على وعلى كالينا ايفانوفيتش، بورون وزادوروف وبراتشنكو واثنان او ثلاثة ايضا من اولاد الاصلاحية القدماء. وفي خلال ذلك الوقت كان سائر الاولاد يقفون حول الآلة الحاصدة؛ وقد تملكتهم الدهشة والعجب من انه يوجد في الدنيا اناس سعداء في وسعهم ان يملكوا مثل هذه الآلات.

وشرح سيميون ان هذا الرجل كان يرغب ان يبادل آلته الحاصدة مقابل جواد لانه في ستوروجيفوى سيبدأ باحصاء الآلات الزراعية وانه يخشى ان تنتزع منه انتزاعاً مجردا دون دفع ثمن لها؛ بينما الجواد لا سبيل الى أخذه منه ما دام سيزوج ابنه.

قال زادوروف:

ــ سواء كان هذا صحيحا او لا فهذا لا يعنينا؛

ولكن تلزمنا الآلة الحاصدة. وسنبدأ بتشغيلها منذ اليوم.

فسأله انطون:

ـ ولكن اى جواد ستعطيه؟ ان الجواد «الصبي» و «قاطعة الطريق» لا قيمة لهما؛ فهل ستتخلى له عن الجواد «الاشقر»؟

فقال زادوروف:

ـ حتى الجواد الاشقر... ولم لا؟ فنحن بحاجة الى الآلة الحاصدة.

ـ الجواد «الاشقر»؟! ولكن انت...

وقاطع كارابانوف حديث انطون المتحمس قائلا:

ـ لا... من المستحيل ان نعطى الجواد الاشقر طبعا؛ فلا مثيل له فى الاصلاحية؛ ولماذا نعطيه هو بعينه؟ يمكننا التخلى عن الجواد «الوحش» انه ليبدو من حيث الظاهر رائعا ويصلح للتناسل.

ونظر سيميون الى كالينا ايفانوفيتش نظرة الخبث.

ولم يرد عليه كالينا ايفانوفيتش وانما ضرب موقد غليونه على درجة من درجات السلم ونهض قائلا:

ـ ليس لدي الوقت لاشغله معكم بمثل هذه التفاهات والحماقات.

وذهب الى غرفته.

وتبعه سيميون وهو يغمز بعينه وهمس قائلا:

ـ حقا يا انطون سيميونوفيتش اعطه الجواد «الوحش»؛ وكل شئ سيتدبر؛ وسوف نحصل على الآلة الحاصدة.

ـ ولكن المصير السجن!

ـ لمن؟ لك؟ لا ابدا. ان الآلة الحاصدة ثمنها اغلى من الجواد، وان دائرة تفتيش العمال والفلاحين لن يسعها الا ان تأخذها عوضا عن الجواد «الوحش». ماذا يضيرهم هذا ما داما متساويين في القيمة. أليس هذا صحيحا؟ فلن تصيبهم اى خسارة. ونحن نحصد المحصول. اما هذا الجواد فلا فائدة منه بشكل من الاشكال.

وانفجر زادوروف بضحكة تسرى الى سائر النفوس بتأثيرها قائلا:

ـ ما هذه الحكاية!

فتبسم بورون دون ان يقول شيئا؛ وكانت سنبلة من الجودار تتأرجح في زاوية فمه.

اما براتشنكو فقد قهقه وعيناه تبرقان:

ـ ان هذا الامر محرج لدائرة تفتيش العمال والفلاحين! هل ستكدن الآلة الحاصدة مكان الجواد «الوحش» لتسحب عربتهم؟

ونظر الي الاولاد بعيون ملتهبة، قائلين:

ـ والآن قرر يا انطون سيميونوفيتش؛ قرر فما من شئ رهيب في الامر. واذا اوقفوك فلمدة الاسبوع على الاكثر.

وقال بورون بصورة جدية:

ـ يجب ان نعطيه، والا فان جميع الناس سيحكمون علينا بالغباوة حتى دائرة تفتيش العمال والفلاحين نفسها.

فنظرت الى بورون وقلت له ببساطة:

ـ هذا صحيح. هيا اخرج الجواد يا انطون.

وهرع الجميع الى الاصطبل. واعجب الجواد «الوحش» للفلاح؛ وجذبني كالينا ايفانوفيتش من كمي وقال لي هامسا:

ـ ولكنك هل اضعت الصواب وفقدت رشدك؟ لعن الله الاصلاحية والجودار... فى اى ورطة حشرت نفسك؟

ـ دعنا يا كالينا... فهذا سيان! سوف نحصد بالآلة الحاصدة.

وبعد ساعة غادرنا صاحب الآلة بالجواد «الوحش». وبعد ساعتين ايضا وصل تشيرننكو ورأى الآلة الحاصدة فى الباحة.

ـ يا لكم من شجعان! من اين سلبتم هذه الآلة الحاصدة العجيبة؟

وسكت الاولاد بغتة ايذانا بالعاصفة. ونظرت الى تشيرننكو نظرة الحياء وقلت:

ـ انها لصدفة من الحظ.

وصفق انطون بيده وقفز:

ـ سواء سلبنا ام لا!.. ايها الرفيق تشيرننكو؛ فقد حصلنا على آلة حاصدة! أتريد ان تعمل اليوم قليلا؟

ـ بهذه الآلة؟

— اجل...

— لا بأس، كذكرى للعهود الخالية... هيا سوف نرى هل هى صالحة للعمل...

وحتى ابتداء الاحتفال كان الاولاد وتشيرننكو حول الآلة يدهنونها بالشحم وينظفونها ويدبرون هذا الشئ أو ذاك ويتثبتون من كل شئ.

وحالما انتهت مراسم الافتتاح صعد تشيرننكو الى الآلة الحصادة وشغّل الآلة فى السنابل. كان كارابانوف يكاد يختنق من الضحك ويصرخ صراخا شديدا:

— ها هو ذا صاحب الآلة فى الحال.

كان وكيل دائرة التفتيش يتجول فى الحقل وهو يسائل الجميع:

— انا لا ارى الجواد «الوحش». لماذا؟ اين هو؟

واشار انطون الى الشرق بسوطه قائلا:

— انه فى الاصلاحية الثانية. سنحصد به غدا. فلا بد له من ان ينال قسطا من الراحة.

كانت طاولات قد رصفت فى الغابة. ودعا الاولاد تشيرننكو ان يشترك فى هذه الوليمة الرسمية ويأخذ مكانا. وقدموا الاطعمة الفاخرة من فطائر وحلويات؛ واخذوا يجاملونه بالمحادثة. قال: — لقد احسنتم جدا بتدبير الآلة الحاصدة.

— هذا حسن، أليس كذلك؟

— حسن جدا!

— واى شئ احسن ايها الرفيق تشيرننكو: جواد ام آلة حصادة؟ — قال هذا براتشنكو وهو يلقى نظرات ملتهبة على الصف كله.

— هذا شئ نسبى؛ انه منوط باى جواد؟

— حسنا لنفرض على سبيل المثال انه الجواد «الوحش».

وخفض وكيل دائرة التفتيش ملعقته واصاخ باذنه مذعورا. فانفجر كارابانوف فجأة بالضحك وخبأ رأسه تحت الطاولة. وعلى شاكلته اخذت الاولاد نوبة من الضحك وراء الطاولة. فاندفع الوكيل منتصبا على قدميه

واخذ ينظر فى كل جهة فى الغابة كأنما ينشد النجدة والمعونة. وما كان تشيرننكو ليدرك شيئا:

ـ ماذا أصابهم؟ ولكن أتعتقد ان الجواد «الوحش» دابة سيئة؟

فقلت له بكل جد:

ـ لقد بدلنا به هذا اليوم مقابل الآلة الحصادة.

فانهار الوكيل على مقعده، وفغر تشيرننكو فاها عريضا. وصمت الجميع. وغمغم وهو ينظر الى وكيله قائلا:

ـ لقد بادلتم به على هذه الآلة الحصادة؟

ونهض الوكيل من على الطاولة منزعجا:

ـ انها لصفاقة من الاولاد. لا أكثر. انهم لأولاد اشرار لا يعملون الا على هواهم.

وفجأة افتر تشيرننكو عن ابتسامة قائلا:

ـ يا لكم من اشرار! أهكذا فعلتم؟ وماذا سنصنع بآلة حصادة؟

فقال وكيله حانقا:

ـ هذا هو العقد: انه ينص على ان الغرامة خمسة اضعاف الضرر.

فقال تشيرننكو بنبرة مستاءة:

ـ دع هذا! لن يكون في وسعك ان تصنع هذا الصنيع.

ـ انا؟

ـ نعم انت! لست قادرا على شئ مماثل؛ فسدّ فمك! اما هم فقادرون: انهم بحاجة لان يقوموا بحصادهم وانهم يعلمون ان الحب افضل من غرامتك .أفهمت؟ ولن يخيفهم احد لا انا ولا انت. هذا هو الشيء الحسن. وبعبارة موجزة: نمنحهم هذه الآلة الحصادة اليوم هبة.

واضطرب نظام الوليمة ونفس الوكيل، وحمل الاولاد تشيرننكو بنشوة الظفر على الاعناق وعندما وجد نفسه على قدميه وهو يضحك ويميل، تقدم انطون منه قائلا له:

ـ وبالنسبة «لماري» و «الصقر» كيف سنتدبر الامر؟

ـ ماذا؟ «كيف سنتدبر الامر»؟

فقال مشيراً برأسه الى الوكيل:

ـــ وهل سنعيدهما إليه؟

ـــ نعم، طبعا.

فقال انطون:

ـــ لا. لن اعيدهما.

فقال تشيرننكو منزعجا:

ـــ ستعيدهما واكتف بالآلة الحصادة!

ولكن انطون انتابه الغضب ايضا فقال:

ـــ خذوا آلتكم الحصادة؛ فليرم بها فى الجحيم؛ ماذا سنصنع بها؟ هل سنربط كارابانوف ليجرها؟

ومضى الى الاصطبل.

قال تشيرننكو بادى الاهتمام:

ـــ يا له من حيوان هذا الولد!

وصمت الذين يحيطون به والتفت تشيرننكو الى وكيله قائلا:

ـــ ها نحن فى قصة غريبة. بعهما اليهم، باى شرط كان. انهم جعلوا العرق يتفصد منى. اولاد طيبون وإن كانوا قطاع طريق. هيا لنرى رفيقكم الحانق هناك.

كان انطون متمدداً على ركام من التبن فى الاصطبل.

ـ هيا يا انطون لقد قررت ان ابيعك الجوادين.

فرفع انطون رأسه:

ـ ليس بثمن غالٍ؟

ـ ستدفعون الثمن على قدر طاقتكم.

فقال انطون:

ـ هذا شئ حسن. انك لرجل ذكى.

فابتسم تشيرنكو قائلا:

ـ اعتقد هذا ايضا.

ـ ولكنك اذكى من وكيلك.

٢١. العجائز الأراذل

امسيات الصيف بهيجة بديعة فى الاصلاحية. السماء ترسل حرارتها اللطيفة وتهدأ حافة الغابة عند الاصيل وتستريح نبتات دوار الشمس المتجمعة على حدود البساتين من حرارة النهار، اما السفح المنحدر الرطب الذى يؤدى

الى البحيرة فتغمره ظلمة المساء. وحديث جماعة من الاولاد جالسين على احد الادراج يصل الى الاسماع بشكل مبهم خافت دون ان يستطيع المرء ان يحدد عددهم ومن هم هؤلاء الاولاد.

انها لساعة لا يزال فيها النهار فيما يبدو ومع ذلك يجد المرء مشقة فى تمييز الاشياء والتعرف عليها. وفى هذه الآونة تبدو الاصلاحية خالية خاوية. ويتساءل المرء: اين مضى الناس؟ ولكنك ما عليك الا ان تجوب الاصلاحية وسوف تراهم كلهم. هاهم خمسة فى الاصطبل يعقدون اجتماعا قرب طوق للدابة معلق على الحائط؛ وان المخبزة لهى مكان لمؤتمر حقيقى؛ فالخبز سيكون جاهزا بعد نصف ساعة وان جميع الذين يشرفون على الخبز وطبخ الحساء والمناوب اليومى يجلسون على المقاعد فى القاعة المنظفة تنظيفا جيدا ويتحدثون بصوت خافت. وعند البئر هناك لقاء عرضى لاشخاص عديدين: هذا يسعى لجلب الماء بسطله وآخر يمر من هناك، وبعضهم اوقف الثالث لانهم بحاجة اليه منذ الصباح:

والكل نسوا الماء ليسترجعوا بالذاكرة شيئا عن غيره؛ ربما لا اهمية له. ولكن هل هناك شئ لا اهمية له فى امسية جميلة من امسيات الصيف؟

وفى آخر الباحة تماما عند ابتداء المنحدر نحو البحيرة، وعلى شجرة مقطوعة من اشجار الحور، قد فقدت قشرتها منذ امد بعيد، تجلس جماعة من الاولاد يقص عليها ميتياغين احدى حكاياته الرائعة:

— ... واذ ذاك وصل الناس صباحا الى الكنيسة ونظروا: ما من راهب واحد هناك! ما معنى هذا؟ اين ذهبوا؟ فيقول لهم الحارس: «قد يكون الشيطان قد اخذ اليوم رهباننا الى المستنقع. كان عندنا نحن اربعة منهم» — «اربعة رهبان» — «هذا كما قلت: ان ابليس قد اخذهم الى المستنقع اربعتهم كلهم وذلك خلال الليل...»

ويصغى الاولاد متجمعين وعيونهم تلتهب بالشوق لهذه الحكايات. وكان توسكا وحده هو الذى يطلق فى بعض الاحيان صيحة فرح، فليس الشيطان هو الذى

سحره بقدرما سحره الحارس الابله الذى يقوم على الحراسة طيلة الليل ولم يحسن النظر: هل كهان الكنيسة ام غيرهم الذين اخذهم الشيطان الى المستنقع. ان هذا الركام من الكهان المجهولى الاسم وأمثالهم ليس مأثرة صغيرة حملهم جميعا على كتفيه الى المستنقع. ففكر فى هذا! زد على ذلك عدم الاكتراث العميق بمصيرهم؛ شأنه فى ذلك شأن عدم الاكتراث الذى يشعر به المرء عند ابادة البقّ.

وفى اجمة البستان السابق تسمع ضحكة اوليا فورونوفا تنفجر فيرد عليها بسرعة الصوت الخافت ذى الانعكاسات المشاكسة قليلا من بورون والضحكة التى تتعالى من جديد ليست، ضحكة اوليا وحدها بل انها ضحك شكلته جوقة من البنات، وبورون يدلف راكضا من الغابة وقد امسك بقبعته «المجعلكة» على رأسه ولاحقته جماعة مرحة من الفتيات. ويقف شيلابوتين فى البرية مهتما ولكنه حائر فيما ينبغى له ان يصنع: أيضحك ام يولى الادبار لانه ما يزال بينه وبين البنات حساب قديم.

على ان هذه الامسيات ذات السحر الهادئ والتى تبعث التأمل والشاعرية لم تكن لتوافق دائما حالتنا الروحية. فمستودع الطعام فى الاصلاحية واقبية الفلاحين وحتى ابنية المربين كانت ما تزال مسرحا لنشاط اضافى غير انه اقل انتاجية من السنة الاولى فى اصلاحيتنا. وبصورة عامة اصبح افتقاد الاشياء المتنوعة ظاهرة قليلة الحدوث عندنا. وحينما كان يظهر اختصاصى جديد من هذا النوع فى الاصلاحية كان سرعان ما يبدأ بالفهم بانه يجب عليه ان يدبر امره مع الجماعة لا مع المدير. وقد كانت هذه الجماعة تبدى ردود فعل قاسية كل القسوة على هذه الاعمال. ونجحت فى مطلع الصيف بشق النفس لانتزاع ولد جديد من ايدى اولاد الاصلاحية الذين كانوا قد تلقفوه فى اللحظة التى همّ بها للدخول الى حجرة ايكاتيرينا غريغوريفنا من النافذة. كانوا يضربونه ضربا مبرحا لا هوادة فيه ولا رحمة. وعندما توسطت بينهم دفعونى دفعا حانقا وصرخ بى احد هؤلاء المسعورين من الغضب:

– دعنا يا انطون وامض لشأنك!

وفي هذا الصيف ارسل الينا كوزما ليشى من قبل اللجنة. وقد كان دمه من المؤكد نصفه غجرى. وكان وجهه الاسمر فيه عينان كبيرتان سوداوان سريعتا الحركة؛ كأنما وجهتهما الترصد وكأنما خلقتا للسرقة. وكان سائر اجزاء جسم ليشى ينفذ ادنى امر يصدر من هاتين العينين الغجريتين: فكانت رجلاه تحملانه الى مكان الشئ الذى لم يحرس حراسة جيدة؛ ويداه تمتدان طيعتين نحوه وينثنى جذعه بسلاسة ليحتمى من كل دفاع طبيعى واذناه تصيخان السمع الى الاصوات الخفيفة المختلفة وغيرها من الاصوات التى تنذر بالخطر. وانه لمن المستحيل على المرء ان يحدد الدور الذى يقوم به رأس ليشى فى جميع هذه العمليات. ان تاريخ الاصلاحية اللاحق يسمح بتقديره حق قدره بيد انه فى اوائل عهده كان هذا الرأس يبدو لجميع اولاد الاصلاحية فضلة لا فائدة لها فى جسمه.

ان ما كان يجعلنا نرى الفصول المضحكة والمزعجة

لهو ليشى! فما من يوم كان يمر الا ويقبض عليه فى شئ من الاشياء: فمرة يسرق قطعة من الشحم من العربة حالما تعود من المدينة او يسرق حفنة من السكر من تحت يدك من المستودع او يسطو على تبغ رفيق من جيبه او يخطف نصف رغيف فى الطريق من المخبز الى المطبخ او يأخذ سكين مائدة من مسكن مربٍ خلال الحديث عن شؤون الاصلاحية. وما كان ليشى ليضع اية خطة معقدة لسرقة من السرقات ولم يستعمل اية اداة بل سرعان ما كان يجعل يديه افضل اداة. وقد حاول الاولاد ان يضربوه فما كان منه الا ان يبتسم منهم:

– ما الفائدة من ضربى؟ فانا لا اعرف حتى كيف يحدث هذا. اود ان تروا ذلك لو كنتم محلى.

لقد كان ولدا مرحا جدا. ففى خلال الستة عشر عاما التى قضاها فى الدنيا، قد جمع تجربة عظيمة؛ اذ سافر كثيرا ورأى كثيرا من الاشياء، واقام مدة قليلة فى سجون جميع المقاطعات؛ وقد حصل على قسط من

التعليم والفكر وكان خفيفا بشكل يثير الدهشة وجريئا في عملياته وكان يرقص بشكل رائع رقصة الهوباك ولا يدع لنفسه ان تضطرب من شيء.

ونظرا الى هذه المزايا واكراما لها كان الاولاد يضربون صفحا عن كثير من الاشياء؛ ولكن ميله الشاذ للسرقة اخذ يزعجنا ويضايقنا. واخيرا حشر نفسه في حادثة مزعجة الزمته الفراش امدا طويلا. وذات ليلة تسلل الى المخبز، فتلقى ضربات مبرحة بالاحطاب. فقد كان خبازنا كوستيا فيتكوفسكي يشكو منذ امد طويل مما ينقصه من الخبز الذي ينبغي له تسليمه ومن نقص وزن الخبازه ومن الاحاديث المزعجة التي كانت تنجم عن ذلك مع كالينا ايفانوفيتش. وذات ليلة نصب كوستيا كمينا تكلل باعظم النجاح: وجاء ليشي في الليل يسعى مباشرة الى الفخ الذي نصب له. وفي الصباح ذهب الى ايكاتيرينا غريغوريفنا يطلب منها بعض الخدمات والعلاج، وقص عليها انه كان يتسلق شجرة من اشجار التوت ليقطف منها الثمار، فكشط

جلده وجرح. وقد دهشت دهشة عظيمة من ان مجرد وقوع من اعلى شجرة كان سببا لهذه العاقبة الدامية غير ان هذا كان لا يخصها او يعنيها فى شيء. وحسبها انها ضمدت رأس الضحية وقادته الى المهجع لانه بدون مساعدتها لم يكن له سبيل الى الوصول. وقد سكت كوستيا فترة من الوقت عن نشر تفاصيل تلك الليلة فى المخبز: وكان فى ساعات فراغه يقوم باعمال الاشراف على المريض عند سرير كوزما يقرأ عليه «مغامرات توم سوير».

وحينما ابلّ ليشى من مرضه قص بنفسه كل ما حدث وهو اول من يضحك من تلك الحادثة السيئة.

وقال له كارابانوف:

ــ سماع يا كوزما! لو كان لى نحسك وسوء حظك لكففت عن السرقة منذ زمن طويل لانك ستودى بحياتك فى يوم من الايام.

ــ انني لأسائل نفسى دائما: لماذا حظى قليل؟ لعل مرد هذا يعود الى انني لست لصا حقيقيا. يجب ان

احاول مرتين اخريين؛ فاذا لم ينجح ذلك فسوف اترك السرقة الى الابد. أليس هذا صحيحا يا انطون سيميونوفيتش؟

فاجبته:

– مرتين؟ في مثل هذه الحالة لا جدوى من التجربة والخبرة؛ حاول اليوم فسوف تبوء بالفشل على كل حال. انك لا تصلح لهذه الاعمال.

– أتعتقد هذا؟

– نعم! ولكنك تصلح لان تكون حدادا بارعا. هذا رأى سيميون بيتروفيتش الذى قاله.

– هل قال هذا؟

– تماما؛ غير انه قال ايضا انك سرقت له من المعمل اربيلين لا ريب انهما في جيوبك الآن.

فاحمر وجه ليشي احمرارا شديدا.

ودس كارابانوف يده في جيبه واخذ يضحك ضحكاً يستطيع وحده ان يفعله:

– حقا انهما في جيبه! ها هى لك المرة الاولى.

فقال ليشى وهو يفرغ جيوبه:

– يا للمصيبة!..

كانت هذه الاحداث وحدها التى من هذا النوع والتى تحدث فى داخل الاصلاحية. بيد ان الامور كانت تبدو اكثر سوءا فيما اتفق على تسميته بالوسط المحيط. فاقبية القرويين ظلت تتمتع بعطف اولاد اصلاحيتنا ولكن هذا الامر كان فى ذلك الحين قد نظم تنظيما كاملا وسما الى مستوى نظام مكين. على ان الاولاد القدماء وحدهم هم الذين كانوا يسطون على الأقبية وكانوا يبعدون عنها الذين يصغرونهم سنا؛ فكانوا يسددون اليهم – بلا رحمة ولكن بكل اخلاص – اتهامات جنائية فى أدنى تفاهة من النزول تحت الارض. لقد اكتسب الاولاد القدماء كفاءات عالية حتى ان ألسنة الكولاك لم تعد لتجرأ على اتهام الاصلاحية بجريمة الانغماس بهذه الاعمال المنحطة. زد على ذلك اننى كان لدى كل الحجج المقنعة على الاعتقاد بانه يوجد على رأس هذه العمليات خبير من صنف كبير مثل ميتياغين.

كان ميتياغين لصا بالفطرة، ولم يسرق شيئا من الاصلاحية تقديرا للذين يعيشون فيها؛ وعلما بانه اذا فعل خلاف ذلك فانه يكون قد اساء لرفاقه. ولكنه في اسواق المدينة وعند الفلاحين ما من حرمة لشئ عنده. كان يبيت كثيرا خارج الاصلاحية، وفي الصباح كنا نجد مشقة في ايقاظه لتناول طعام الفطور. وفي ايام الاحد كان يطلب بشكل منتظم اذنا للذهاب ويعود في ساعة متأخرة من الليل ومعه في بعض الاحيان قبعة جديدة او وشاح صوفي؛ ومعه دائما هدايا يوزعها على جميع الاولاد الصغار. لقد كان الصغار يحبونه حبا جما ولكنه كان يعرف كيف يخفي عنهم فلسفته اللصوصية.

وقد ظل يبدي تجاهي صداقة كبيرة؛ ولم تكن تجري بيننا احاديث عن السرقة. كنت اعلم حق العلم ان احاديث في هذا الموضوع لن تساعده ابدا.

غير ان ميتياغين كان يقلقني قلقا شديداً. فقد كان اذكى من كثير من اولاد الاصلاحية واكثر موهبة منهم؛

وكان يتمتع بتقدير واحترام عام. وكانت لديه موهبة بان يبدى طبعه اللصوصى بمظهر جذاب قوى. وكنا نراه دائما محاطا بهيئة اركان حرب من الكبار. وقد قامت هيئة اركان الحرب هذه بلباقة فى تنفيذ خطة ميتياغين وفى حق تقديره للاصلاحية وفى تبجيله للمربين. باى شئ كانت تنشغل هذه العصبة فى ساعات الليل المظلمة؟ هذا ما كان عسيرا على المرء معرفته. وكان من الواجب علي: إما ان اترصدهم او استجوب بعضهم، وكان يبدو لى ان هذا يسيء الى تطوير النسق الذى وجدنا مشقة كبيرة فى توليده عندنا.

فاذا علمت بمحض الصدفة باحدى مغامرات ميتياغين فقد كنت انفجر عليه مرعداً فى اجتماع من الاجتماعات؛ وكنت افرض عليه فى بعض الاحيان جزاءً فادعوه الى مكتبى واوبخه توبيخا قاسيا. كان يستمع الي دائما بصمت وهدوء بريء ظاهر على محياه المشرق بابتسامة حلوة لطيفة؛ وعندما كان يذهب كان يقول لى على الدوام بلهجة لطيفة رصينة:

– طابت ليلتك يا انطون سيميونوفيتش!

كان يراعي باخلاص شرف الاصلاحية ويؤيده؛ كان يحتد كثيرا ويغضب حينما يقبض على واحد من الاولاد. ويقول:

– انا لا افهم كيف يمكنكم ان تكونوا اغبياء الى هذا الحد؟ كيف تحاولون اذا لم تكن قدرة لكم على هذا الشيء؟

كنت اتدبر الامر بانه لا بد من فصل ميتياغين عنا. وكان مريرا علي ان اشعر بعجزي وكنت اشعر بمشقة بالنسبة له. ولعله هو ايضا كان يعتقد بانه ليس له اية فائدة في البقاء ولكنه ما كان ليرغب ابدا بمغادرة الاصلاحية التي كون له فيها عددا طيبا من الاصدقاء والتي كان الاولاد الصغار يلتفون حوله ملتصقين به كما يفعل الذباب على قطعة من السكر.

وقد كان الأدهى والأمرّ ان فلسفة ميتياغين اخذت تجد قبولا حسنا لدى الاولاد الطيبين – على ما يبدو – مثل كارابانوف وفيرشنيف وفولوخوف واما بيلوخين فكان وحده

الذى اخذ يعارض معارضة حقيقية ومكشوفة لميتياغين. انه لحادث مثير للاهتمام ان خصامهما ما كان يتخذ شكل نزاع عنيف؛ فلم يحدث قط ان تضاربا ولا تشاجرا. كان بيلوخين يعلن بصوت عالٍ في المهجع بانه ما دام ميتياغين يعيش فى الاصلاحية فان اللصوص لن يزول لهم اثر من عندنا. وكان ميتياغين يستمعه بابتسامة ويرد عليه بلطف:

ــ انك تعلم يا ماتفى ان جميع الناس لا يمكنهم ان يكونوا شرفاء؛ وما قيمة شرفك واستقامتك اذا لم يكن اناس امثالى؟ انك لتبدو ذا شأن على حسابى، هذا كل شئ!

ــ كيف؟ اننى ابدو ذا شأن على حسابك؟ ما هذه الاكذوبة؟

ــ اجل. هذا هو الواقع. فانا ــ مثلا ــ اسرق وانت لا تسرق؛ فلك الشرف والتقدير. ولكن اذا لم يسرق احد فان الناس يصبحون متساوين؛ واننى اقدر ان انطون سيميونوفيتش كان ينبغى له ان يأخذ عن عمد امثالى.

ولو لم يفعل كذلك فان الناس الذين هم مثلك لن يكون لهم اى اعتبار.

فقال بيلوخين:

ــ وهذه اكذوبة باطلة! هناك بلدان لا يوجد فيها لصوص: كالدانمرك والسويد وسويسرا. فقد قرأت عن ذلك فما من سارق واحد عند هم.

فتدخل فيرشنيف قائلا متعتعا:

ــ ك.. كل هـ.. هذا إ.. إنما هـ.. هو بـ.. بهلوانيات فـ.. فهناك.. تـ.. تحدث السرقة ايضا. وماذا هناك من خيرٍ حتى لا يكون لصوص؟ أما الد.. دانمرك و سـ... سويسرا فهما بـ.. بلدان صـ... صـ... صغيران.

ــ ونحن... ماذا نحن؟

ــ نـ.. نحن سـ.. سترى سـ.. سترى ما سنريهم و ثـ... ثورتنا سوف تدرك ذلك!

ــ ان اناساً مثلكم هم اول المعادين للثورة. هذا كل شئ!..

وفي خلال هذه المجادلات كان كارابانوف يحتد ويغضب اكثر من غيره فقد كان يُرى يقفز من سريره ويلوح بقبضته في الهواء ويصوب بحنق عينيه السوداوين تجاه وجه بيلوخين:

ـ لماذا انزعجت؟ هل تعتقد انني انا وميتياغين اذا اكلنا رغيفا من الخبز زيادة فهذا سيلحق الاذى والضرر بالثورة؟ انك ستقيس الآن كل شيء بمقياس الأرغفة.

ـ لماذا جئت انت ترمي خبزك في وجهي؟ ان هذه ليست هي المشكلة؛ على أنك كالخنزير تدس انفك تحت الارض.

وفي اواخر الصيف تطور نشاط ميتياغين وعصبته على اوسع نطاق في حقول البطيخ المجاورة؛ وفي ذلك العهد كانت زراعة البطيخ الاصفر والبطيخ الاحمر قد انتشرت في مناطقنا وقد خصص لها بعض الفلاحين الميسورين عدة هكتارات.

ان قصة البطيخ قد ابتدأت بغزوات منفردة على

الحقول. وهذا النوع من السرقة ما كان ليعتبر جريمة فى اوكرانيا فى زمن من الازمان. لهذا اباح اولاد القرى لانفسهم ان يقوموا بغزوات صغيرة من هذا القبيل على الجيران. وكان ملاك الارض يتساهلون و يضربون صفحا عنه؛ فمن رقعة هكتار كان فى الامكان جنى مقادير كبيرة من البطيخ الاحمر تعادل عشرين الف بطيخة بحيث ان سرقة مئة منها فى موسم واحد ما كان ليؤلف خسارة حقة. ومع ذلك فقد كان فى حقول البطيخ اكواخ يعيش فيها بعض الناس الشيوخ لا يهتمون كثيرا بحمايتها قدر اهتمامهم بتسجيل الزوار غير المرغوب فيهم.

وفى بعض الاحيان كان يأتينى احد هؤلاء الشيوخ ليشتكى الي قائلا:

ــ البارحة جاء اولادكم للسرقة. فلعلك تقول لهم ان هذا ليس امرا حميدا. من الافضل ان يأتوا الي فى كوخى؛ وفى الامكان آنئذ ان احسن اليهم دائما والله. لن يكلفهم ذلك سوى ان يقولوا لى؛ وانا سأنتقى لهم بنفسى اجمل بطيخة حمراء.

ونقلت الى الاولاد طلب الرجل الشيخ؛ وقد استفادوا من هذا الطلب فى اليوم ذاته؛ ولكن بعد ان ادخلوا على النظام المقترح من قبل الرجل العجوز بعض التعديلات الخفيفة. فبينما كانوا فى الكوخ يأكلون اجمل بطيخة انتقاها لهم الرجل العجوز بنفسه ويتبادلون حديثا وديا معه حول محصول البطيخ فى اخر موسم مقارناً مع عام الحرب اليابانية؛ كان الحقل كله فريسة نهب الضيوف اللاشرعيين الذين يملأون البطيخ فى قمصانهم والاكياس ولفائف المخدات. وقبل الذهاب فى الليلة الاولى هذه استفاد فيرشنيف من الدعوة اللطيفة التى وجهها العجوز فاقترح على بيلوخين بمرافقته. ولم يحتج الاولاد على هذا الايثار. وعاد ماتفى من حقل البطيخ مسرورا كل السرور:

– مثل هذا شىء جميل والله: فقد جرى حديث لطيف وسر الرجل العجوز.

كان فيرشنيف على مقعد يبتسم ابتسامة هادئة. واقتحم كارابانوف الغرفة.

ــ هيا يا ماتفي؛ ما رأيك في هذه الزيارة؟

ــ كنت قلت لك ذلك يا سيميون؛ ولعلك ترى، في الامكان العيش عيشة الجيران.

ــ بالنسبة لك هذا على ما يرام: فقد ظفرت بما تحب، ولكن نحن؟ ما حالنا؟

ــ انك لسخيف، هيا اذهب اليه وزره.

ــ ان هذا لثقيل! الا يعتريك الخجل؟ ان الرجل الطيب وجه دعوة، فذهب اليها الجميع فبالحرى ان في هذا لغلاظة وجفاء؛ فاننا ستون...

وفي اليوم التالي عرض فيرشنيف على بيلوخين من جديد ان يذهب معه الى الرجل العجوز. فرفض بيلوخين عرضه بكرم قائلا: هذا دور غيري.

ــ لماذا اذهب اسعى عن آخرين؟ هيا نحن اليه ماذا؟ ولست مضطرا للأكل من عنده، تذهب اليه وتتحدث.

ورأى بيلوخين ان فيرشنيف مصيب فقد أعجبته هذه الفكرة: وهي الذهاب لزيارة العجوز لجعله

يرى ان اولاد الاصلاحية لا يأتون اليه من اجل بطيخه فحسب.

غير ان الرجل العجوز قد استقبلهم استقبالا جافيا جدا. وما استطاع بيلوخين ان يريه شيئا؛ بل هو على العكس الذى اراهم بارودته قائلا:

ـ البارحة بينما كنتم انتم جالسين قامت عصابتكم من اللصوص بالسطو على نصف حقل البطيخ. أفي الامكان ان يكون الامر على هذه الحال؟ انني ارى انه يجب علي ان اسلك غير هذا السلوك معكم. سوف اطلق النار.

وعاد بيلوخين الى الاصلاحية خزيان خجلا؛ وحالما دخل المهجع انفجر كالعاصفة. كان الآخرون يضحكون؛ وقال له ميتياغين:

ـ هل وكلك العجوز محاميا عنه؟ لقد قدم اليك البارحة اجمل بطيخة عنده وماذا تريد اكثر من ذلك؟ نحن ربما نكون محرومين مما تأكل. هل لدى العجوز برهان؟

ولم يعد يأتي العجوز لمواجهتي ولكن دلائل عديدة كانت تظهر ان سطوا شاملاً حقيقيا على البطيخ قد ابتدأ.

وذات صباح بينما كنت القى نظرة على المهجع رأيت الارض مليئة بقشر البطيخ فسارعت الى المناوب وجازيت بعضهم وطلبت ان لا يعود هذا الامر الى الحدوث وفعلا سادت النظافة المعتادة جميع المهاجع فى الايام التالية.

ان سهرات الصيف الهادئة الرائعة المليئة بهمسات الاحاديث والمزاح والصداقة وقهقهات الضحك الداوى كانت بهيجة زاهية.

كانت ترفرف على الاصلاحية الهاجعة الاحلام وتغمرها روائح اشجار الصنوبر والسعتر وزقزقة العصافير وأصداء عواء كلب كان يبدو صادرا من مملكة بعيدة. كنت أخرج الى الدرج؛ فيبرز الولد الحارس من احد الاركان ويسأل عن الساعة. وعند رجليه الكلب «بوكيه» وقد غلبه النعاس وغمر شعره المبقع فى رطوبة الجو.

فاري انه فى الامكان لى ان اذهب لانام نوما هادئا.

ولكن هذا الهدوء كان يخفى احداثا معقدة بقدر ما هى مقلقة.

وذات يوم يسألنى ايفان ايفانوفيتش:

ـ هل كان بأمرك ان تتجول الخيل فى الباحة طيلة الليل؟ ألم تخف أن تسرق؟

ويتملك براتشنكو الغضب:

ـ الا يحق للخيل ان تتنفس هواءً نقيا رطبا؟

وبعد يومين قال كالينا ايفانوفيتش مستفسرا:

ـ ما الذى يدعو الخيل إلى أن تنظر ماذا يجرى فى المهاجع؟

ـ ماذا؟

ـ ليس عليك الا ان ترى: فمنذ الصباح الباكر، تقف الخيل تحت النوافذ، وماذا تعمل هناك؟

وقد تثبت من ذلك: فعلاً منذ الفجر كانت جميع خيلنا وكذلك الثور غافريوشكا الذى اهدتنا اياه مصلحة الخدمات لدى ادارة التعليم العام لانه لا حاجة لها به

بسبب كبر سنه، فكانت تأتي وتقف امام نوافذ المهاجع في ادغال اشجار الليلاك حيث تبقى ساعات ساكنة تنتظر حتما شيئا لذيذا بالنسبة لها.

وسألت اولاد المهاجع:

ــ لماذا ترقب الخيل نوافذكم؟

فنهض اوبريشكو من السرير والقى نظرة الى خارج الغرفة وانفجر بالضحك وصاح باحدهم:

ــ يا سيريوجا، هيا اسأل هذه البهائم لماذا تقف قبالتنا؟

ضحك الاولاد تحت شراشفهم. وتمطى ميتياغين ثم قال بصوت عالٍ:

ــ كان من الواجب ان لا تأتوا الى الاصلاحية بحيوانات فضولية كيلا تقوم بهذه الجلبة الآن.

وانقضضت على انطون:

ــ ما هذه الاسرار؟ لماذا تقف الخيل كل صباح هناك؟ بأي شئ تجتذبونها؟

ونحى بيلوخين لانطون جانبا:

ـ لا تقلق نفسك يا انطون سيميونوفيتش: ما من داع إلى الخوف على الخيل. فانطون هو الذى جعلها تأتى الى هنا عمدا لانه توجد اشياء طيبة لها.

قال كارابانوف له:

ـ ما بالك أخذت تثرثر؟

ـ اجل سأقول لك ذلك: لما منعت رمى القشر على الارض، ولما كان ايضا ان احدهم لا بد ان يكون معه بطيخة بالصدفة...

ـ كيف «بالصدفة»؟

ـ ولم لا؟ هدية من العجوز كثيرا ما يقدمها، او رجال القرية الذين يحملون منه...

ـ هل يقدم إليكم الرجل العجوز هدايا الآن؟ ـ سألته هذا السؤال بملامة.

ـ هو... لا! اعترف بذلك ولكنه قد يحدث بشكل آخر. وحينئذ اين نضع القشور؟ لهذا السبب جلب انطون الخيل الى هنا لتتنزه؛ فاحسن الاولاد ضيافتها.

وخرجت من المهجع.

وبعد الطعام جلب لى ميتياغين الى مكتبى بطيخة حمراء كبيرة وقال:

ـ تذوق طعمها يا انطون سيميونوفيتش.

ـ من اين جئت بها؟ نظف الارض!.. وسوف اهتم بكم اهتماما جادا.

ـ انها لبطيخة شريفة كل الشرف. وانتقينا هذه خاصة لك. فهذه البطيخة قد اشتريناها من العجوز من جيبنا الخاص. اما امر اهتمامك بنا فمن المؤكد ان هذا وقته ولسنا ساخطين عليك.

ـ اغرب من وجهى وامض ببطيختك واحاديثك...!!

وبعد عشر دقائق قدم الي وفد كامل مع هذه البطيخة. وقد عجبت ان كان المتكلم عنهم بيلوخين الذى كان يقطع كلامه عند كل كلمة للضحك:

ـ هذه الحيوانات يا انطون سيميونوفيتش ليتك رأيتها كل ليلة كم تأكل من البطيخ فما الفائدة من اخفاء ذلك؟.. فما من احد غير فولوخوف... وهذا قليل الاهمية. كيف يحصلون عليها؟ هذا سر فيما بينهم وبين

ضمائرهم، ولكن لا سبيل إلى الانكار بأن هؤلاء اللصوص كانوا يطعموننى منها؛ فقد لمسوا ضعف نفسى وهو حبى للبطيخ؛ حتى الفتيات كن يتناولن حصتهن، وكانوا يعطون منه لتوسكا ايضا وينبغى القول: إن قلوبهم كانت تكن عواطف كريمة. وإننا لنعلم أنك لن تتناول منها شيئا لأن هذه البطيخات اللعينة ستسبب لك ازعاجا كبيرا. ولكن لعلك تقبل منها هذه الهدية المتواضعة. فأنا انسان شريف ولست مثل فيرشنيف وفى وسعك ان تصدقنى عندما أقول لك أننا دفعنا ثمنها للرجل العجوز. ولعل هذا أكثر من العمل الانسانى الذى يثاب على انتاجه المرء كما يقول علم السياسة الاقتصادية.

وهكذا ختم بيلوخين كلامه ووقف موقفا جادا رصينا مفاجئا. ووضع البطيخة على الطاولة وابتعد بعد ذلك برصانة.

كان فيرشنيف كعادته أشعث الشعر ممزق الثياب ينظر إليّ من فوق كتف ميتياغين:

– إنه الاقتصاد السياسى وليس السياسة الاقتصادية.

فقال بيلوخين:

ـ نفس الشيء...

وسألت:

ـ كيف دفعتم الثمن للرجل العجوز؟

فثنى كارابانوف اصبعا:

ـ قد لحم فيرشنيف أذنا لجرته، ورقع غود حذاءه، وقمت أنا بالحراسة مكانه حتى منتصف الليل.

ـ انني لأتصور كمية البطيخ التي أضفتموها الى هذه البطيخة خلال تلك السهرة.

فقال بيلوخين:

ـ صحيح صحيح؛ انني استطيع أن أشهد على ذلك وأؤيده؛ نحن الآن على صلة بهذا العجوز، غير أنه يوجد عند طرف الغابة حقل للبطيخ يحرسه رجل عجوز رذيل! انه يطلق النار طوال الوقت.

ـ وأنت أيضا شرعت تذهب؟

ـ لا، أنا لا أذهب للسرقة. وإنما أسمع طلقات نارية، هذا يحدث عندما نمر من هناك.

وشكرت الاولاد على بطيختهم البديعة.

وبعد عدة أيام رأيت «العجوز الرذيل» إذ جاء لمقابلتى وهو مضطرب اضطرابا شديدا:

ـ ماذا سنصبح؟ فقبل هذا الوقت كانوا يأتون على الأخص فى الليل للسرقة ولكنهم اليوم لا تعرف فى أى وقت يأتون. وعلى أى حال؟ انهم يأتون عصابات كاملة فى ساعة الأكل ويا للبؤس! ويا للويل! فحينما اعدو وراء أحدهم يكون الباقون يعيثون فسادا فى الحقل ويصنعون ما يشاءون.

وهددتهم بالذهاب بنفسى للمساعدة فى حراسة حقل البطيخ أو باستئجار حراس على حساب الاصلاحية.

فقال ميتياغين:

ـ إنك مخطئ فى تصديق هذا الفلاح؛ فالمشكلة ليست مشكلة البطيخ انما هى مشكلة استحالة المرور بهذا الحقل.

ـ ولكن ما حاجتك فى عبور الحقل هناك؟ أهناك طريقك؟

ـ أيعنيه إلى أين نذهب؟ لماذا يطلق النار؟
وبعد يوم أيضا أنبأني بيلوخين قائلا:
ـ لن تكون النتيجة على خير مع هذا العجوز.
فالأولاد ينزعجون جدا منه. فالآن بما أنه يخاف من البقاء وحيدا فى كوخه فهناك اثنان أيضا يقومان بأعمال الحراسة معه وجميعهم معهم بندقيات. والاولاد لم يعد فى وسعهم ان يحتملوا هذه الحال.

وفى هذه الليلة ذاتها هجم الاولاد على هذا الحقل بصورة منتظمة وقد افادتهم تمارينى العسكرية. وعند منتصف الليل كان نصف الاصلاحية فى وضع انبطاح على تخوم حقل البطيخ؛ ارسلوا أمامهم طليعة كشافة. وحينما أطلق العجائز اشارة تحذير صرخ الاولاد صوتا واحدا «هورا!» وهبوا بالهجوم. فالتجأ الحراس الى الغابة ناسين بنادقهم من شدة الرعب وانهمك قسم من الاولاد باستغلال الظفر بدحرجة البطيخ من حافة الحقل الى السفح؛ وقام الباقون بالانتقام فاحرقوا الكوخ الكبير.

وسارع احد الحراس راكضا الى الاصلاحية ليوقظني. وبلغنا على جناح السرعة ساحة المعركة.

كان الكوخ يحترق ويلقى وهجا شديدا حتى ان المرء ليحسب أن قرية بكاملها تلتهب. وعندما وصلنا الحقل كانت عدة طلقات نارية تسمع ورأيت أولاد الاصلاحية منبطحين بتشكيلات منتظمة داخل نباتات البطيخ. وفى بعض الأحيان كانت احدى هذه التشكيلات المقاتلة تنتصب على أرجلها وتركض صوب الكوخ الملتهب؛ وفى الطرف الأيمن من الجبهة كان ميتياغين يصدر الأوامر:

ـ لا تتقدم انحرف جانبا...

فسألت العجوز:

ـ ولكن من يطلق النار؟

ـ لا أعرف. ما من أحد هناك. لعلها بارودة نسيها واحد. لعلها تطلق النار من تلقاء نفسها.

والعملية كانت فى الحقيقة قد انتهت ولدى رؤيتى غاب الاولاد كأنما اختفوا تحت الأرض؛ فتنهد العجوز وذهب

إلى بيته. ورجعت الى الاصلاحية. كان سكون كأنه سكون المقابر يسود المهاجع. ولم يكتفوا بالنوم بل بدأوا بالشخير. انه لشخير لم أر له مثيلا فى حياتى. فقلت بصوت غير مرتفع :

ـ كفاكم تتظاهرون بالبلاهة. انتصبوا قياما.

وانقطع الشخير ولكنهم جميعهم استمروا فى النوم.

ـ قلت لكم انتصبوا قياما.

وارتفعت رؤوس شعثاء من فوق الوسائد. وكان ميتياغين ينظر الي كأنما لم يحدث له أن عرفنى.

ـ ماذا يوجد؟

غير ان كارابانوف لم يملك صبرا فقال :

ـ حسبك يا ميتياغا ماذا يجدى؟

وأحاط بى الجميع وبدأوا يقصون عليّ وقائع هذه الليلة المجيدة. وقفز تارانيتز فجأة كأنما غطسه أحد فى ماء يغلى :

ـ والبواريد التى هناك!

ـ احترقت...

ـ لقد احترق الخشب ولكن الباقى ما زال صالحا.
وطار خارج الغرفة.
وقلت :
ـ لعل كل هذا شئ مضحك ولكن لا بد من الاعتراف بان هذا سلب مجرد بسيط. لم يعد فى وسعى التساهل به أكثر من ذلك. فاذا رغبتم الاستمرار فى هذا السبيل فسوف أدعكم. ولكن أخيرا: أهذه حياة؟ أسألكم عن هذا؟ لا فى الليل ولا فى النهار ما من راحة لمخلوق لا فى الاصلاحية ولا فى البلد باكمله.
واخذنى كارابانوف من ذراعى :
ـ لقد انتهى كل شئ. فنحن ايضا نرى ان هذا يكفى. أليس صحيحا أيها الاولاد؟
وأرسل الاولاد نوعا من الغمغمة بالايجاب.
فقلت أنا :
ـ كل هذا كلام؛ أريد ان أنذركم : اذا عادت حوادث السلب هذه فسوف أطرد بعضكم خارج الاصلاحية. اعرفوا هذا لأننى لن اكرره.

وفى اليوم التالى دخلت عربات الى الحقل المنكوب وبعد أن حمل فيها كل ما تبقى عادت ادراجها.

وكانت على طاولتى مواسير البواريد المحروقة وبقية الاجزاء الصغيرة منها.

٢٢. عملية بتر

لم يف الاولاد بوعدهم ولم يكف كارابانوف ولا ميتياغين ولا سائر اعضاء العصابة عن غزواتهم لحقول البطيخ ولا عن تسللهم الى اقبية القرويين ومستودعاتهم. وأخيرا صمموا مشروعا جديدا معقدا كل التعقيد نجم عنه خليط عجيب من العواقب، منها المضحك ومنها المؤسف.

فقد تسللوا ذات ليلة إلى مكان خلايا النحل التى للوكا سيميونوفيتش وسرقوا منها خليتين بنحلهما وعسلهما، ونقلوهما الى الاصلاحية ووضعوهما فى معمل الأحذية الذى لم يكن يشتغل فى ذلك الحين. ثم نظموا وليمة

واشترك فيها عدد كثير من اولاد الاصلاحية. وقد كان في الامكان في اليوم التالى صباحا إعلان لائحة المدعوين لأنهم كانوا يتجولون جميعا ووجوههم حمراء متورمة. أما ليشي فقد اضطر أن يلجأ إلى خدمات ايكاتيرينا غريغوريفنا.

ودعوت ميتياغين الى مكتبى واعترف حالا بانه المسؤول الأول عن هذا العمل؛ فرفض ان يسمى شركاءه وعلاوة على ذلك تملكته الدهشة فقال:

ـ هذه هفوة لا تستوجب العقاب! فنحن لم نأخذ الخليتين لأنفسنا وانما لأجل الاصلاحية. فاذا رأيت انت أنه لا حاجة لنا الى تربية النحل ففى الامكان اعادتهما.

ـ ماذا ستعيد؟ لقد أكلتم العسل؛ وهرب النحل.

ـ ليكن كما تشاء. فأنا وددت أن افعل من أجل الأفضل.

ـ لا... يا ميتياغين: إن الأفضل أن تدعنا نعيش بامان وسلام... انك أصبحت رجلا؛ وانك لن تتفاهم أبداً معى. فلنفترق.

ــ وهذا ايضا ما اعتقده.

كان من الضرورى ابعاده بأسرع ما يمكن. فقد كنت أرى رؤية جلية أننى عملت على سحب هذا القرار بشكل لا سبيل إلى التكفير عنه؛ وتركت الوقت يفوت ليزيد فى تطور تفكك جماعتنا الذى كان طيفه يرتسم منذ أمد بعيد. ولربما لم يكن هناك من شئ فاسد بشكل خاص فى حوادث البطيخ هذه أو فى نهب خلايا النحل ولكن الاهتمام المستمر الذى كان أولاد الاصلاحية يعيرونه لها فى ليلهم ونهارهم وهم مشغولون فى نفس الأعمال ونفوسهم مليئة بنفس الانطباعات كان ينذر بالتوقف الكامل لتطور الروح الجماعية وبعبارة أخرى كان ينذر بالركود والجمود. وفى هذا الدرك كانت كل عين بصيرة تميز تمييزا واضحا ملامح قليلة الجاذبية والسحر: كأساليب الاولاد البذيئة؛ والوضع المبتذل الذى يبدونه تجاه الاصلاحية والعمل؛ والعبث المضنى الفارغ ثم عناصر الرذالة التى لا سبيل إلى التغاضى عنها. وكنت أرى أيضا أن اولادا مثل بيلوخين وزادوروف اللذين

ما كانا ليشتركا فى أى عمل اجرامى؛ قد اخذوا يفقدون النضارة الأولى ويفقدون شخصيتهم. أما مشاريعنا ومناقشة كتاب ممتع أو أسئلة سياسية فقد اخذت فى مجتمعنا تتوارى بعيدا لتبرز مكانها المغامرات الطائشة والورطات المزعجة وكذلك المناقشات الكثيرة التى كانت تثيرها. كان كل هذا ينعكس على مظهر الاولاد الخارجى وعلى الاصلاحية كلها؛ فيبدو اضطرابا غير منتظم وطياشة فكر منحرف انحرافا سيئا؛ وهنداما مهملا ووساخة قابعة فى الأركان.

كتبت لميتياغين إجازة الخروج وأعطيته خمسة روبلات من أجل الطريق: كان يقول انه قاصد الى أوديسا — وتمنيت له سفرا سعيدا.

— هل فى وسعى أن أودع الاولاد؟

— كما تريد. تفضل!

كيف انقضى الوداع؟ هذا شئ لا أعرفه. فقد ذهب ميتياغين قبل انقضاء النهار. وودعته الاصلاحية كلها تقريبا.

وكان الجميع فريسة الحزن مساء. فقد كان الصغار كئيبى النفس، قد خمدت فيهم الحركة كأنما اعضاءهم القوية المحركة قد طرأ عليها عطل. أما كارابانوف فكان جالسا على صندوق مقلوب قرب المستودع ؛ ولم يتحرك حتى الليل.

ودخل ليشى الى مكتبى وقال:

ـ مسكين ميتياغا.

وانتظر طويلا جوابى الذى لم يأته؛ فانصرف.

واشتغلت حتى وقت متأخر. وحوالى الساعة الثانية عندما كنت أهم بمغادرة المكتب أبصرت ضوءا فى سقيفة الأصطبل. فأيقظت أنطون وسألته:

ـ من فى السقيفة؟

فهز كتفيه منزعجاً واجاب منقبض الوجه:

ـ انه ميتياغين.

ـ ماذا يفعل هناك؟

ـ وما يدرينى؟

وصعدت الى السقيفة فرأيت جماعة جالسة حول

فانوس الأصطبل: كارابانوف وفولوخوف وليشى و بريخودكو وأوسادتشى. ونظروا إليِ ساكتين. كان ميتياغين فى ركن ــ منهمكا فى شئ من الأشياء؛ وقد رأيته فى الظلمة بصعوبة.

ــ احضروا جميعا الى مكتبى.

وبينما كنت افتح الباب أمر كارابانوف:

ــ لا لزوم لندخل جميعا؛ ميتياغين وانا هذا يكفى.

فلم اعترض.

ودخلنا. وارتمى كارابانوف من غير كلفة على الأريكة ووقف ميتياغين فى ركن قرب الباب.

ــ لأى سبب عدت إلى الاصلاحية؟

ــ لأجل شغل.

ــ ما هذا الشغل؟

ــ شغل فيما بيننا.

ورمقنى كارابانوف بنظرة حادة. وفجأة انتفض كأنه نابض بحركة رشيقة ملتوية، قوس جسمه فوق طاولتى؛

وهو يصوب عينيه الملتهبتين اللتين تكادان تلتصقان بعدستي نظارتي.

ــ أتعرف ماذا يا انطون سيميونوفيتش؟ أتعرف ما سأقوله لك؟ سوف أذهب مع ميتياغا.

ــ ماذا تدبرون في السقيفة؟

ــ عملا ليس بذي شأن في الحقيقة؛ ولكنه مع ذلك ليس شيئاً يتناسب بالاصلاحية. وأنا سأمضي مع ميتياغا؛ ما دام الأمر بيننا وبينك ليس على ما يرام، فعلينا أن نمضي لنجرب حظنا. وعساك تجد اولادا أفضل منا.

كان على الدوام يقوم بشيء من الدلع ويتخذ آنئذ مظاهر امتعاض؛ ولعله كان يفعل ذلك آملا ان يعتريني الخزي من قسوتي واحتفظ بميتياغين.

فنظرت في عينيه وسألته مرة أخرى:

ــ ماذا دبرتم هناك؟

ولم يرد كارابانوف شيئا وانما القى نظرة استفهام على ميتياغين.

وتركت كرسى وقلت لكارابانوف :

ـ هل معك مسدس؟

فأجاب بحزم : ـ لا .

ـ ولكن أرنى جيوبك.

ـ أتفتشنى يا أنطون سيميونوفيتش؟

ـ أرنى جيوبك.

فصاح كارابانوف بحالة شبه هيسترية : ـ إليك أنظر! ـ وقلب جميع جيوب بنطلونه وجاكيته، ونشر على الارض تبغا وفتات خبز الجودار.

واقتربت من ميتياغين قائلا :

ـ أرنى جيوبك.

وشرع ميتياغين ينبش جيوبه. واخرج منها كيسا صغيرا للدراهم وحزمة مفاتيح وعقفات لفتح الاقفال، وابتسم ابتسامة مرتبكة وقال :

ـ لا شئ غيرها.

ودسست يدى تحت حزام بنطلونه وأخرجت منه مسدسا متوسط العيار. وكان فيه ثلاث خرطوشات.

ــ لمن هذا؟

فقال كارابانوف:

ــ هذا مسدسي.

ــ لماذا اذن كذبت وقلت انه ليس معك شيء، وانتما... ما شغلكما أخيرا. خلصوني واذهبوا الى قرارة الجحيم، وعلى الفور. لا اريد ان أراكما في الاصلاحية! هل فهمتما؟

وجلست لأكتب اجازة لكارابانوف. وتناول الورقة صامتا والقى نظرة ازدراء على قطعة الروبلات الخمسة التي مددت يدي بها اليه وقال:

ــ أنا في غنى عنها. وداعا.

ومد الي يده بحركة عصبية وشد على اصابعي وأراد ان يقول شيئا ثم اندفع صوب الباب وتوارى في هربه عن النور الذي يشق الظلمة. أما ميتياغين، فلم يمد لي يدا ولم يقل وداعا وانما زر جاكيته بهدوء وتبع كارابانوف بخطاه الساكنة كخطى اللصوص.

وخرجت إلى الدرج الخارجي فرأيت الأولاد متجمهرين

في أسفله؛ وانطلق ليشي وراء رفيقيه الذاهبين ولكنه ما إن وصل أول الغابة حتى عاد ادراجه. أما أنطون فكان في اعلى الدرج يهمهم همهمة غامضة. وقطع بيلوخين السكوت بغتة.

— أجل انني أقبل هذا على انه صحيح وعدل.

فقال فيرشنيف:

— قد يكون هذا صحيحا وعدلا؛ بيد انه سوف يسبب مشقة مع ذلك.

فسألته:

— لمن؟

— لسيميون وميتياغا؛ وأنت قل: ألن يسبب لك مشقة؟

— إنني أتألم لك يا كولكا.

وبينما انا عائد الى حجرتي، سمعت بيلوخين يقنع فيرشنيف:

— انك أبله غبي لا تدرك. انك تقرأ، ولكن ما تقرأه لا يرسخ في ذهنك.

لم يصلنا أى نبأ عن المنفيين المبعدين طيلة يومين. لم يكن يتملكنى شئ من القلق على كارا بانوف. كان له أب في ستوروجيفوى. فكنت اقدر هذا التقدير: لعله بعد ان يجوس أسبوعا في المدينة يقصد بيته الأبوى. أما •صير ميتياغين فما كان يجعلنى أتوجس عليه أى ارتياب. لعله يقضى قرابة عام يتسكع فى الشوارع ويحل ضيفا بعض المرات على السجون؛ ثم قد يلقى القبض عليه في عملية سرقة ذات شأن فيرسل إلى مدينة أخرى تفرض عليه اقامة اجبارية فيها؛ وبعد خمس سنوات أو ست قد يخر بصدفة القدر صريعا بسكين أمثاله أو تسوقه قدماه الى حيث يعدم رميا بالرصاص جزاء على لصوصيته. وما من سبيل آخر أمامه. ولربما ساق معه كارابانوف أيضا. فقد سبق أن ترك كارابانوف فزلت قدمه عن سواء السبيل، وطفق يسلب بقوة السلاح.

وبعد يومين بدأ همس فى الاصلاحية:

— سمعنا أن سيميون وميتياغا يهاجمان الناس على الطريق فقد سلبا البارحة جزارين من ريشيتلوفكا.

ــ من قال هذا؟

ــ بائعة حليب قدمت الى آل أسيبوف، وقالت انهما هما اللذان فعلا ذلك.

وكان الأولاد يتهامسون فى الزوايا ويسكتون اذا ما اقترب أحد منهم. وكان الأولاد القدماء ينظرون نظرات زائغة ولا يريدون أن يقرأوا أو يتحدثوا وفى المساء كانوا يتجمعون اثنين أو ثلاثة ويتبادلون باصوات خافتة بعض الأحاديث.

وكان المربون يحترسون ولا يتحدثون معى عن الغائبين؛ ما عدا ليديا بيتروفنا، قالت لى ذات مرة:

ــ ألا تأخذك الشفقة على هذين الولدين؟

فأجبتها:

ــ حسنا، يا ليديا فلنتفاهم. إنك قد استسلمت للشفقة كما أملى عليك قلبك؛ ولكن هذا ليس شأنى.

فقالت ليديا بيتروفنا منزعجة ممتعضة:

ــ اذا كان الأمر هكذا فلن نعود الى الحديث عن ذلك.

وبعد خمسة ايام كنت عائدا من المدينة بالعربة. كان الجواد «الأشقر» المنتعش بصيف وفير الخيرات، يعدو بخفة الى البيت. وكان أنطون جالسا الى جانبى ورأسه مائل يفكر فى شىء ما. كنا قد اعتدنا على طريقنا المقفر، فلم نعد نتوقع أن نجد فيه شيئا مثيرا للاهتمام والمتعة.

وفجأة قال أنطون:

ـ انظر أليس هما؟ نعم! ها هو سيميون وميتياغين!

كان شبحان ينتصبان على الطريق. كانت عينا انطون تلزمانى لأستطيع أن أميز جيدا أن ذاك ميتياغين ورفيقه. وكان الجواد «الاشقر» يجرنا مسرعا للالتقاء بهما وتملك انطون القلق فألقى نظرة متحفظة على مسدسى.

ـ ضعه مع ذلك فى جيبك كى يكون تحت متناول اليد.

ـ لا تفكر بحماقات وتقولها.

ـ كما تريد.

وسحب أنطون أعنة الخيل.

قال سيميون:

ـ إنها لصدفة حسنة أن نلتقى بكما. ففى ذلك اليوم ـ كما تعلم ـ لم نغادر الاصلاحية كما يقتضى الأمر.

كان ميتياغين يبتسم ابتسامة لطيفة كعادته.

ـ ماذا تعملان هنا؟

ـ نود أن نلتقى بك. فكما قلت لنا: إنك لا تريد ان نضع مرة ثانية رجلنا فى الاصلاحية فلم نذهب إليها.

فسألت ميتياغين:

ـ لماذا لم تذهب إلى أوديسا؟

ـ فى وسعى الآن أن أعيش هنا؛ وفى الشتاء سأذهب الى هناك.

ـ ألن تشرع بالعمل؟

فقال ميتياغين:

ـ سوف نرى كيف تجرى الأمور. على أنه يا أنطون سيميونوفيتش صدّقنا أننا لسنا واجدين عليك. فلكل حياته!

كانت نفس سيميون تشرق بهجة وفرحا.

ــ هل سوف تظل مع ميتاغين؟

ــ لا أعرف حتى الآن. لقد أرهقته ــ هيا بنا الى البيت الى ابى ، ولكنه لا يريد ان يعرف شيئا.

ــ نعم ان والده فلاح، وربما لا أعرف ما هو؟

واصطحباني حتى منعطف الاصلاحية.

قال سيميون:

ــ وداعا ولا تغضب علينا، دعنا نتعانق!

فطفق ميتياغين يضحك:

ــ إن قلبك لحنون رقيق يا سيميون ولن تستطيع ان تقوم بشيء ذى شأن.

ــ وأنت أحسن؟

وذهب كلاهما يضحكان ضحكة جعلت عصافير الغابة تتطاير؛ ولوحا بقبعتيهما. وانطلق كل منا فى وجهته...

٢٣. البذار الممتاز

كان آخر الخريف فى الا صلاحية أشد فترة كئيبة مظلمة من تاريخنا. كان طرد كارابانوف وميتياغين عملية أليمة. فقد طردنا بشخصهما بطلين للاصلاحية كان لهما حتى ذلك الحين اكبر التأثير فيها؛ فذهبا وتركا رفقاءهما حائرين ضالين.

كان كارابانوف وميتياغين شغيلين رائعين. وكان كارابانوف يحسن الانصراف بكليته وبشغف إلى العمل: ويجد فيه بهجته ويشيعها فى نفوس الآخرين وكانت يده يتطاير منها — بكل معنى الكلمة — شرر القوة والنشاط ويكفيه ان يطلق صرخة فى وجه الكسالى والمتوانين حتى يملأ أكثر المتقاعسين بالخزى والخجل. وكان ميتياغين يكمله بشكل عجيب؛ فكانت حركاته تمتاز بخفة رشيقة تؤهله لأن يكون لصا، غير أنه كان يفعل كل شئ بيسر وجودة ومرح. زد على ذلك ان كلاهما كانا يقومان برد فعل فيه حساسية وقوة على كل حادث أو مسألة تبلبل الاصلاحية.

فأصبحت حياتنا بذهابهما كئيبة مملة. وانغمس فيرشنيف أكثر من ذى قبل فى لجة الكتب؛ أما نكات بيلوخين فقد اتخذت شكلا مبالغا فيه من الجد والسخرية؛ وكان اولاد أمثال فولوخوف وبريخودكلو وأوسادتشى يبدون رصانة وأدبا بالغين؛ وسيطر الضجر والملل على الصغار فانطووا على أنفسهم وانزووا. واتخذ مجموع الاصلاحية مظهر مجتمع الكهول. كان من العسير فى المساء ان تجمع جماعة مرحة؛ فقد كان كل واحد منهم يجد له عملا يعمل به؛ وكان زادوروف هو الوحيد الذى لم يفقد اشراق نفسه ولم يكن يخفى بسمته المشرقة. ولكنه لم يكن هناك من أحد يود أن يشاطره حيويته؛ فكان يبتسم فى زاويته جالسا يقرأ أو يعمل فى نموذج ماكينة بخارية ابتدأ بها فى الربيع .

وقد كان نجاح زراعتنا القليل يساهم أيضا فى هذا التضعضع. كان كالينا ايفانوفيتش خبيرا زراعيا رديئا. كانت لديه أسخف المعلومات حول تسوية الأرض وتكنيك البذار، زد على ذلك اننا ورثنا من الفلاحين حقولا

قد عاثت بها الأعشاب فسادا فأنهكتها. ولهذا على الرغم من العمل الضخم الذى كان الأولاد يقومون به فيها خلال الصيف والخريف فقد كان محصولنا نزراً ضئيلا جدا. وكانت حنطة الخريف تبدى زوانا أكثر من السنابل؛ وكان مظهر حبوب الربيع سيئا؛ وكان الشمندر والبطاطا يبدوان بشكل أسوأ أيضا.

وكان نفس الركود يخيم على مأوى المربين.

لربما كنا متعبين: فمنذ افتتاح الاصلاحية ما من واحد منا أخذ اجازة عطلة. ولكن المربين ما كانوا يتململون من التعب. وعادت احاديثنا القديمة ادراجها حول ما نكرسه من جهد لا أمل له؛ وان «التربية الاجتماعية» أمر مستحيل مع «هذا النوع» من الأولاد واننا أنفقنا قوة روحنا بلا طائل.

قال ايفان ايفانوفيتش:

— كل هذا لا بد من الاقلاع عنه. انظر الى كارابانوف الذى كان موضع فخرنا واعتزازنا؛ قد اضطررنا الى طرده. وكذلك ما من امل خاص بالاعتماد على فولوخوف أو

فيرشنيف وأوسادتشى وتارانيتز وأمثالهم. هل يستحق ان نتجشم مشقة الحفاظ على الاصلاحية بسبب بيلوخين وحده؟

وايكاتيرينا غريغوريفنا نفسها قد طعنت تفاؤلنا المشترك طعنة نجلاء وهذا التفاؤل نفسه هو الذى جعلها صديقة لى وساعدى الأيمن؛ فقد عقدت حاجبيها مستغرقة فى تأمل طويل كانت نتائجه غريبة بالنسبة الي بقدر ما هى غير متوقعة:

– لعلك تعلم – على ما يبدو لى – أننا نرتكب خطأ جسيما؛ فما من مجتمع لدينا؛ إنه لا يوجد ونحن نتحدث دائما عن مجتمع؛ لأننا تركنا لأنفسنا أن يدغدغها الحلم وننام عليه كأننا فى الواقع...

فقاطعتها قائلا:

– اسمحى لى؛ انك تقولين ان مجتمعنا «لا وجود له» وماذا تصنعين أنت بستين ولدا، بجهدهم وحياتهم المشتركة وصداقتهم؟

– ألا ترى ما هذا كله؟ انه للهو ممتع اذا اردناه؛

فيه موهبة. فقد انغمسنا به نحن والأولاد ايضا. ولكن كان هذا إلى أمد. وعلى ما يبدو ها قد أصبح هذا اللهو مملا مضجرا - فقد اكتفى منه الجميع وتعب؛ ولسوف يصدفون عنه ويقلعون عما قريب؛ وتتحول الاصلاحية بيتا للأطفال عاديا: وسيئ النجاح.

قالت ليديا بيتروفنا لتصلح الأثر السيئ الذى احدثه كلامها:

- عندما يتضجر المرء من لعبة فانه ينتقل الى أخرى.

وضحكنا ضحكة كئيبة: ولكننى لم يكن لدىّ أية نية للاستسلام.

- ان الذى يتكلم فيك يا إيكاتيرينا غريغوريفنا انما هو العجز المألوف الشاكى لدى المثقفين، فما من شئ يستنتج من احكامك الخاصة فهى عرضية؛ كنت تتمنين بشغف ولهفة لو نتغلب على ميتياغين وكارابانوف. انه ليحدث دائما هكذا. فالأمور التى تدفع إلى مداها بدون أى تبرير وهوى النفس والطمع كل هذا يسوق

بعدئذ إلى الشكوى والاغفال والاستسلام. وسواء كان كل شئ أو لا شئ؛ فهذا عادة هو فلسفة العصبيين.

كل هذا قد قلته وأنا اكبت في نفسي هذا العجز الذي يميز المثقف. وقد كنت انا بنفسي افكر في بعض الأحيان بأفكار يائسة عقيمة: كنت أرى أنه لا بد من الاستسلام؛ ان شخصا مثل بيلوخين أو زادوروف لا يستحقان التضحيات التي تقدم الى الاصلاحية؛ وكان يخطر في بالي اننا قد تعبنا وفي النتيجة ان النجاح أمر مستحيل.

غير ان عادتي القديمة بالعيش في جهد دائب صامت صابر ما كانت لتفارقني أبدا. كنت أجهد لأكون قويا واثقا من نفسي أمام الاولاد والمربين وكنت أؤنب المربين حينما كانوا يظهرون بمظهر الجبن والوجل؛ وكنت أحاول ان أقنعهم ان هذه المتاعب التي كانت تمر، هي سحابة صيف لا بد أن تنقشع. واني لاقدر الحزم والنظام الخارق اللذين كان المربون يبرهنون عليهما في تلك الأوقات العصيبة.

كانوا يظلون دائما دقيقين جدا ونشيطين و صارمين تجاه كل ظاهرة سيئة فى الاصلاحية؛ ومتبعين التقاليد الرائعة التى تكونت لدينا؛ فكانوا يمضون الى نوبتهم بهندام سليم من أجمل ثيابهم.

كانت الاصلاحية تمشى الى الأمام. بدون ابتسامة أو فرحة ولكنها كانت تسير بوتيرة واضحة قوية كالآلة الجيدة المنتظمة. وقد لاحظت النتائج الطيبة ايضا التى أحدثتها العقوبة التى اتخذتها ضد اثنين من اولادى: فقد توقفت تماماً الغزوات للقرية وأصبحت عمليات السطو على الأقبية وحقول البطيخ شيئا غير محتمل الحدوث. وتظاهرت بأننى لا ألاحظ الانحطاط المعنوى للأولاد وبأننى لا أرى شيئا خاصا فى احترامهم الجديد للنظام واستقامة سلوكهم تجاه القرويين كأنما كان كل شئ يحدث ويسير بصورة عامة إلى الأمام كما فى الماضى.

وحدثت مجموعة كبيرة من الأعمال الجديدة الهامة. فقد بدأنا بناء قفص زجاجى لانضاج النباتات فى الاصلاحية الثانية واخذنا نشق طرقات ونسوى الباحات

بعد تصفية الخرائب البائدة؛ وغرسنا سياجات ورفعنا قناطر؛ وبدأنا ببناء جسر على نهر كولوماك في أضيق أماكنه وأخذ معمل الحدادة يصنع أسرة حديدية لأجل الاولاد؛ وكنا نصلح الاوائل الزراعية وانجزنا بسرعة فائقة إصلاح مساكن الاصلاحية الثانية؛ وكلفت الاصلاحية بحزم ببرنامجنا من الأعمال التي كانت تتزايد دائما؛ وطلبت من كل المجموعة نفس الدقة والانضباط في العمل.

ولست أدرى لماذا اندفعت في القيام بتمارين وتدريبات عسكرية؟ قد يكون هذا بدافع غريزة تربوية مجهولة.

كان قد سبق لى فيما خلا من الزمن، أن اعطيت الاولاد دروسا في التربية البدنية والاعداد العسكرى. ولم أكن قط مدربا ذا كفاءة وافية، ولكننا لم تكن لدينا الأموال الكافية لاستحضار مثل هذا الاختصاصى. كنت أعرف فقط تدريب الجندى والجمباز العسكرى وأعرف تماما ماذا يلقى على السرية من الواجبات ، فدربت الاولاد على هذه الأشياء النافعة كلها ولم أدع لنفسى ان

تدخل فی محاكمات ومحاججات فتضيع فيها ولا ان يساورها أى أزمة ضمير تربوية.

وانصرف الاولاد الى هذا العمل بمسرة وفرحة وكانت الاصلاحية كلها تقوم كل يوم بعد العمل بالتمارين مدة ساعة أو ساعتين فی ميدان التدريب الذی كانت باحتنا الواسعة المربعة تؤلفه. وكانت معارفنا كلما نمت وتطورت ازددنا فی توسيع مضمار نشاطنا. وفی الشتاء كانت فصائلنا تقوم بمناورات ممتعة ومعقدة على أرض القرى المجاورة كلها. كنا نقوم بشكل صحيح حسب قواعد الفن بمهاجمة أهداف معينة: كالمنازل والأهراء ثم نختتم هذا الهجوم بالحراب فيستولی الذعر على نفوس سكان تلك المحلات. فيلتجئون وراء جدرانهم البيضاء كالثلج ويستمعون صيحاتنا الحربية ثم يسارعون ليغلقوا بسرعة الأقبية والسقائف ويلتصقون الى الأبواب ويتتبعون من هناك بنظراتهم المليئة بالغيرة والروع ، تناسق حركاتنا الجميل.

كان هذا كله يسر الأولاد مسرة لا حد لها. وبعد أمد قليل ظهرت لدينا بندقيات لأننا قد قُبلنا بفرح فى صفوف التدريب العسكرى العام متجاهلين ماضينا الإجرامى.

وقد كنت خلال هذه التمارين أبدى مظهر القائد الحقيقى الحازم الذى لا سبيل له إلى التحيز مما كان داعيا استحسان الاولاد جميعهم بدون تحفظ. وعلى هذه الشاكلة كانت لدينا بداية الألعاب الحربية التى أصبحت بعدئذ أحد الدوافع الرئيسية لحياتنا المنسجمة.

وقد لاحظت قبل كل شىء التأثير الطيب للمشية العسكرية؛ فقد تغير مظهر الأولاد تغيرا كاملا: فأخذوا وضعا أكثر طلاقة ورشاقة. وكفوا عن الانحناء على الطاولات والاستناد بظهورهم على الجدران وأصبحوا قادرين على الحفاظ بهيئة طلقة جميلة بدون سند. وصاركل ولد جديد يتميز عن اولادنا القدماء وأصبحت مشية الأولاد أكثر اتزانا ومرونة فكانوا يمشون رافعى الرؤوس؛ وتركوا عادة دس الايدى فى جيوبهم.

ونتيجة شغفهم بالأمور العسكرية قد أدخلوا كثيرا من التجديدات التى الهمتهم اياها نوازع حبهم الطبيعية لحياة البحرية والجندية. وفى هذه الفترة بالضبط طبق النظام فى الاصلاحية وذلك بالافصاح–كما فى الجيش– أنهم قد فهموا وأنهم مستعدون لتنفيذ كل أمر بكلمة «سمعا وطاعة!» ثم تأدية تحية الأحداث الطلائع لتشير إلى هذا الجواب الجميل؛ وفى ذاك الحين أيضا ظهرت فى اصلاحيتنا الابواق.

كان النداء فيما خلا من الزمن يعلن بالجرس؛ وهو من بقايا الاصلاحية القديمة. اما الآن فاشترينا بوقين وأخذ ولدان كل يوم يذهبان إلى أستاذ للموسيقى فى المدينة ليتعلما العزف بهما. ثم لحنت الحان النداءات (نفائر). لكل ظرف من حياتنا، وفى الشتاء نزعنا الجرس. كان عازف البوق يخرج منذ ذلك الحين إلى الدرج الملاصق لمكتبى ويطلق فى فضاء الاصلاحية نداءه الداوى القوى.

وفى هدأة المساء وسكونه كانت معزوفة البوق تحدث دويا مؤثرا وهى تمر فوقنا وفوق البحيرة وسقوف القرية.

فكانوا يسمعون من نافذة المهجع المفتوحة صوتا صداحا مهتزا فتيا لا يكاد ينتهي لحنه حتى يستأنفه أحدهم بالعزف على البيانو.

وحينما عرفت ميولنا العسكرية لدى مكاتب التعليم العام أصبحت كلمة «ثكنة» لقبا هازلا لنا مدة طويلة. وماذا كان يهمنى لطالما تجرعت كثيرا من المرارة. ان هذا العذاب الضئيل ما كان ليلقانى قط على استعداد للاضطراب منه؛ ناهيك عن أننى ما كان لدىّ الوقت لذلك.

وفى شهر آب أغسطس – جلبت خنزيرين صغيرين من مزرعة للتجارب. كانا من عرق انكليزى أصيل؛ وهذا يفسر القوة الشديدة التى كانا يقاومان بها خلال الطريق نقلهما لى الاصلاحية؛ فيحاولان فى كل لحظة أن يندسا فى منفذ من العربة. كانا يثوران حتى درجة الهيستريا مما كان يحمل أنطون على الحنق:

– ألا تكفينا الصعوبات؟ يجب ان نضيف اليها الخنازير!..

وأرسلنا «الانكليزيين» إلى الاصلاحية الثانية حيث أصبحا بين جماعة من الصغار يعتنون بهما أكثر مما يقتضيه الأمر. كانت الاصلاحية الجديدة يقطنها في هذا الحين حوالا عشرون ولدا يعيش معهم مرب لا يصلح لشيء يحمل اسما غريبا «روديمتشيلك». وكان البناء الكبير المرموز إليه لدينا بحرف ـ آ ـ، قد أنجز ترميمه. وخصص للمعامل والصفوف. بيد أنه قد أسكن الأولاد فيه بشكل مؤقت. أما الأبنية والأجنحة الأخرى فكانت قد أنجزت أيضا. وكان لا يزال باقيا كثير من العمل للانجاز وذلك لجعل البناية ذات الطابقين والطراز الامبراطورى صالحة للسكن؛ حيث كان ينبغى أن نجعل المهاجع فيها. وكان العمل في السقائف والاصطبلات والاهراء على قدم وساق؛ تُسمّر الواح خشبية جديدة؛ وتنتصب جدران وتقوم ابواب...

أما زراعتنا فقد تلقت تعزيزا قويا. فقد كنا طلبنا مهندسا زراعيا وبدا ادوارد نيكولاييفيتش شيرى على أراضى الاصلاحية: مخلوقا غير مفهوم اطلاقا في نظر

الأولاد الذين لم يروا قط نظيرا له. كان واضحا لكل فهم ان شيرى ينبغي أن يكون خارجا من بعض البذور الممتازة من جنس خاص لم تسقها شآبيب أمطار السماء وانما سقاها رحيق صنع واخترع خاصة لأجل المنتجات من نوعه.

وقد كان على نقيض كالينا ايفانوفيتش، فما من شيء يملأ نفسه بالسخط والحنق، أو يأخذها بطفرة الحماسة: كان مزاجه على الدوام سواء، تشع منه روح المرح الى حد ما. كان يتوجه الى جميع الأولاد حتى غالاتنكو الأحمق من بينهم، بتواضع جم دون أن يدفع صوته أبدا بهم ولكنه لم يعقد صداقة مع أحد. وقد ظل الأولاد متأثرين من وضعه حينما رفض بريخودكو بفظاظة قائلا: «انني أحتقر أشجار عنب الثعلب! فأنا لا اريد أن أشتغل بها!» فأجابه شيرى مبديا استغرابا لطيفا كريما بدون تصنع أو سخرية:

— يا للعجب! انك لا تريد؟ ما دام الأمر هكذا فأعطني اسمك حتى لا أعينك فى مرة ثانية لعمل ما.

ـ أنا أصنع أى شيء ولكن ما عدا هذا.

ـ لا تخف، سوف أستغنى عنك، صدقنى بهذا. أما أنت فلسوف تجد لك عملا فى حقل آخر.

ـ ولماذا؟

ـ ارجو أن تتلطف بأن تعطينى اسمك، فليس لدىّ الوقت لأضيعه بأحاديث لا جدوى لها.

وسار بريخودكو بهيئة اللص الأفّاق الذى انكمش غروره واتجه صوب تلك الاشجار وهو يبدى احتقاره لتلك الاشجار التى كان يراها قبل لحظة لا تتلاءم مع رسالته فى عالمنا.

كان شيرى شابا نسبيا وكان مع ذلك يدهش الأولاد بثباته المكين وقدرته على العمل. كان يخيل لهم أن شيرى لا يهجع أبدا. وعندما كانت الاصلاحية تستيقظ كنت أجد ادوارد نيكولاييفيتش يجوب الحقول بساقيه الطويلتين غير المتناسبتين قليلا مع جسمه كأنهما ساقا كلب أصيل. وحينما كانت تحين ساعة النوم يكون شيرى فى زريبة الخنازير يتفاهم حول بعض الترتيبات

مع النجار. وفى النهار كان بوسع المرء فى ذات الوقت أن يجده فى الاصطبل وفى قفص انضاج النباتات الذى يبنى وعلى طريق المدينة وفى نقل السماد الى الحقول، وكان كل واحد يشعر أن كل هذا يجرى فى نفس الآونة لأن ساقيه العظيمتين كانتا تنقلانه من جهة الى اخرى بسرعة رائعة.

وفى اليوم التالى تجادل شيرى مع أنطون فى الاصطبل. فما كان أنطون ليستطيع أن يفهم أو يحس كيف يمكن أن يعامل مخلوقا حيا ولطيفا كالجواد بالدقة الحسابية التى كانت تميز توصيات ادوارد نيكولاييفيتش الصارمة.

— ماذا استنبط أيضا؟ الوزن؟ هل رأى امروء هذا؟ وهو أن يوزن العلف؟ فيقول: هذه حصتها: لا أكثر ولا أقل. وانها لشحيحة حصصه، فمن الكل يعطى النزر القليل. فاذا ماتت الجياد فأنا المسؤول عنها، وهو يريد علاوة على ذلك توقيتا معينا لعملها. لقد قرر ان ابدأ دفتر: لأسجل فيه الساعات التى تعمل فيها الجياد.

ولم يملك الروع لشيرى حينما أخذ أنطون كعادته يصرخ ويصيح بأنه لن يعطى الجواد «الصقر»، لأن هذا الجواد حسب خططه كان ينبغي له بعد يومين أن يقوم بعمل خارق فذ. فقد دخل بنفسه الى الاصطبل، وكدن بنفسه الجواد «الصقر» الى العربة دون أن يعير براتشنكو نظرة، فوقف هذا مبهوتا مجروحا من هذه الاهانة. وغضب أنطون غضبا شديدا فألقى السوط فى ركن من الاصطبل وخرج. وعندما عاد فى المساء ليلقى نظرة عليه وجد فيه أورالوف وبوبليك مقيمين فيه سادة عليه. فانجرحت نفس أنطون جرحا بليغا وتوجه اليّ مصمما على تقديم الاستقالة اليّ، ولكنه ما ان وصل الى وسط الباحة حتى كان شيرى يسرع اليه وورقة فى يده كأن لم يكن شئ قد حدث فانحنى بلطف أمام رئيس المشرفين على خيلنا المزعج وقال:

— اسمع، أعتقد أن اسمك هو براتشنكو؟ اليك خطة عملك لهذا الأسبوع. سوف تجد فيها الاشارة المضبوطة للعمل المعين يوما بيوم لكل جواد: أوقات

خروجها... الخ... انظر: هنا الجواد المعين فى اليوم الفلانى لتنقلات الى المدينة وجواد الاستراحة. لعلك تدرس جدول استعمال الوقت هذا مع رفاقك وغدا لعلكم تقدمون الي التغييرات التى تجدونها نافعة مفيدة.

وأخذ براتشنكو الورقة مذهولا وقصد الاصطبل.

وفى اليوم التالى كان فى وسع المرء أن يرى غرة أنطون ورأس شيرى المدبب المحلوق وهما ينحنيان على مكتبى ويناقشان عملا جليل الشأن. كنت جالسا الى الطاولة الصغيرة أعمل و أنا أصيخ السمع من وقت لآخر الى محادثتهما:

– ملاحظتك صحيحة. حسنا، يوم الاربعاء سيقوم الجودان «الأشقر» و«قاطعة الطريق» بالحراثة...

– ...ان الجواد «الصبى» لن يأكل الشمندر بسبب أسنانه...

– لا قيمة لهذا – كما تعلم – يمكنك أن تفرمها له قطعا أصغر، حاول ذلك...

ـ ... ولكن اذا كان هناك من تقتضيه الحاجة بالذهاب الى المدينة... فما العمل؟

ـ عليه أن يذهب سعيا على قدميه أو يستأجر عربة من القرية. هذا ليس من شأنى ولا شأنك.

فقال أنطون مسرورا:

ـ هذا هو الصحيح.

وفى الحقيقة كان جواد الخدمة الوحيد لا يؤمن تأمينا كافيا لحاجات نقلياتنا. ولم يتمكن كالينا ايفانوفيتش أن يحصل على شئ من شيرى لأن هذا كان يقطع على وكيلنا منطقه الاقتصادى الشغوف بهذا الجواب الذى يقوله ببرودة هادئة:

ـ ان حاجات نقلياتك لا تعنينى أبدا. أنقل منتجاتك على ما تريد أو اشتر لنفسك جوادا. لدي ستون هكتارا ينبغي لي أن أقوم بحراثتها. وسأكون شاكرا لك اذا لم تعد الى الحديث معى عن هذه المسألة.

وكان كالينا ايفانوفيتش يضرب بقبضة يده على طاولتى صائحا:

ـ سأكدن بنفسى اذا اقتضى الأمر!

كان شيرى يسجل شيئا على دفتره، ولم يكن حنق كالينا ايفانوفيتش ليجعله يلتفت حتى بعينيه له. وبعد ساعة أخبرنى عند خروجه من المكتب:

ـ اذا خالف توقيت عمل الخيل بدون موافقتى فسوف أترك الاصلاحية فى اليوم نفسه.

فأرسلت على وجه السرعة أطلب كالينا ايفانوفيتش وأقول له:

ـ دعك من هذا، لا تخلق مشكلة معه.

ـ ولكن كيف سأعمل بجواد وحيد: لا بد من الذهاب الى المدينة وجلب الماء والحطب ونقل المؤن الى الاصلاحية الثانية.

ـ سنجد وسيلة أخرى.

وقد وجدناها.

كلما جاءنا أناس جدد، جاءتنا متاعب جديدة، فالاصلاحية الثانية مع هذا الرجل غير المفيد روديمتشيك، وشكل الأولاد فى الاصلاحية الجديد والسوي، والعوز

السابق الذى كان يزال وسط غنانا النامى : كل هذا كانت موجة حياتنا المتنوعة الأشكال التى تغطى دون أن يكون لي قدرة على الالتفات اليه، متاعب حياتنا وصعابها الباقية. ومنذ ذلك الحين كنت قلما أضحك ومع ذلك فالفرح الذى يعمر نفسى ما كان ليتوصل أبدا الى التخفيف بشكل ملحوظ للشدة الظاهرية التى كانت الحوادث والحالة النفسية فى عام ١٩٢٢ قد ألقتها غشاوة على عينى لا تنقشع من أمامها. هذه الغشاوة ما كنت لأتألم من تلبدها علي، كما كنت لا أكاد ألاحظها. بيد أن الأولاد كانوا يرونها دائما. لعلهم كانوا يعرفون أن هذه غشاوة فاتخذوا فى ذلك الحين تجاهى لهجة احترام مبالغ فيها قليلا ويشوبها بعض الضيق وشئ من الخوف، فما كانت لى استطاعة على تحديدها بالضبط. وقد كنت أراهم بالمقابل دائما متفتحة نفوسهم بالبشر، وكان يقوم بينى وبينهم تقارب روحى حقيقى فى كل مرة كان يقدر لى أن أمرح معهم وألعب ونصبح كالمجانين معا أو نمشي متأبطين أذرعة بعضنا بعضا فى الردهة.

وقد زالت من حياة الاصلاحية كل شدة ورصانة لا جدوى لهما. وما من أحد قد لاحظ اللحظة التى نجم فيها هذا التبدل نحو الأفضل والأحسن. فقد أصبحت الحياة كما فى الماضى فالضحكات والنكات كان تنطلق فى كل مكان. وكان جميعهم يبدى مزاجا مشرقا وقوة لا ينضب لها معين، مع فارق وحيد هو أن هذا كله كان يزينه منذ ذلك الحين زوال التراخى وزوال كل نشاط لا هدف له زوالا كاملا.

وقد وجد كالينا ايفانوفيتش مع ذلك الوسيلة لحل مصاعبنا فى النقل. فقد صنع للثور غافريوشكا نيرا بسيطا وبفضله أمكن نقل الماء والحطب والقيام بشكل عام بجميع نقلياتنا الداخلية، ولم يكن شيرى ليبدى تجاه هذا الثور أى اهتمام اذ ماذا يستطيع أن يخدم ثور وحيد. وفى ليلة من ليالى نيسان (ابريل) الجميلة كانت الاصلاحية كلها تضحك ضحكا قويا بشكل لم يحدث لها منذ أمد بعيد: كان أنطون ذاهبا الى المدينة ليجلب بعض الطرود فى عربتنا التى يجرها الثور غافريوشكا.

قلت له:

ـ ستعمل على توقيفك هناك.

فأجاب أنطون:

ـ فليحاولوا. نحن الآن جميعا متساوون. بماذا يقل شأن غافريوشكا عن الجواد؟... هو أيضا شغيل.

وجر غافريوشكا العربة الى المدينة دون أى تردد أو اضطراب.

٢٤. محن سيميون

كان شيرى يقوم بعمله بقوة وحزم. فقد قام بعمليات بذار الربيع بدورة زراعية مدتها ستة أعوام و قد عرف كيف يجعل من انجاز هذا المشروع حدثا هاما للاصلاحية. ففى الحقول والاصطبل وحظيرة الخنازير والمهجع وفى السير على الطريق أو عبور النهر وفى مكتبى والمطعم كان يدور حوله دائما النشاط الزراعى الجديد. وما كان الأولاد يستقبلون دائما أوامره بدون

مناقشة، وكان شيرى الذى لم يكن يرفض أبدا الاستماع الى الملاحظات التى لها تعليل، يقدم فى بعض الأحيان بطريقته اللطيفة الجافة مجموعة من الحجج الموجزة ليخلص الى ندائه:

ـ اشتغل كما اقول.

وقد ظل يمضى أيامه فى جهد شديد ولا اضطراب فيه فى الوقت ذاته، كان دائما من العسير تتبعه، وكان فى مستطاعه البقاء بصبر ساعتين أو ثلاثا الى جوار معلف أو السير خمس ساعات وراء آلة البذار. وكان فى وسعه أن يمر وأن يعاود المرور دائما كل عشر دقائق على حظيرة الخنازير ويرهق المشرفين على الخنازير بأسئلته المهذبة المضجرة:

ـ فى أى ساعة قدمت النخالة الى الخنازير؟ ألم تنس أن تلاحظ ذلك؟ هل سجلته كما يجب؟ هل أعددت كل شئ لتغسيلها؟

ولم يلبث الأولاد أن أبدوا تجاهه حماسة متحفظة. وغنى عن البيان أنهم كانوا مقتنعين بأن «صاحبنا شيرى»

لم يكن رجلا جليل القدر الا لأنه «صاحبنا» وفي كل مكان آخر هو أقل جدارة بالاعجاب. كان هذا الشعور يعبر عنه بالاعتراف الضمني بسلطته، وبالأحاديث الكثيرة التي كان يثيرها كلامه وطرائقه وشخصيته التي لا تؤثر فيها أي عاطفة، ومعارفه.

وما كان هذا العطف مفاجئا لي، فقد كنت أعرف مسبقا أن الأولاد لا يبررون الاقتناع الخاص بالمثقفين بأنهم لا يستطيعون أن يحبوا او يقدروا غير الناس الذين يبدون تجاههم الصداقة والحنان. وقد كنت على قناعة منذ وقت طويل أن تقدير الأولاد ومحبتهم – على الأقل الأولاد الذين هم مثل الأولاد الذين كانوا يعيشون في اصلاحيتنا – يتجه على الأخص صوب الرجال الذين من طراز آخر، ان ما ندعوه كفاءة عالية ومعارف أكيدة دقيقة ومهارة وفنا وأيديا بارعة وكلاما وجيزا لا اطالة فيه، وانعدام التعابير الفارغة والقابلية الدائمة للعمل والاستعداد له، كل هذا يأسر اعجاب الاولاد ويخلب نفوسهم.

يمكنك أن تعاملهم معاملة جافية لا حد لها، وفى وسعك أن تظهر لهم قسوة فى المتطلبات، وأن لا تلاحظهم اذا ظلوا واقفين أمامك وفى مستطاعك أن ترد بدون اكتراث على عطفهم، ولكنك اذا بدوت ماهرا فى عملك، ناجحا فى معارفك فان نجاحاتك فى هذه الحالة لا ترهق نفسك أو تزعجها فانهم جميعا يقفون الى جانبك ولن يخونوك ابدا. قلما يهم الشكل الذى تظهر فيه طاقتك وقدرتك، ففى وسعك أن تكون نجارا أو مهندسا زراعيا أو حدادا أو معلما أو ميكانيكيا.

بيد أنه على العكس، كن كما تشاء: لطيفا ممتعا فى حديثك وطيبا كريما عطوفا بقدر ما تستطيع فى حياتك وأوقات فراغك. فاذا رافق عملك الفشل والاخفاق واذا كان ملاحظا فى كل آونة أنك لا تعرف عملك واذا كان كل ما تصنعه مصيره الفشل والبوار فانك لن تحصل منهم على غير احتقار ساخر مدار فى بعض الأحيان وهائج معاد بضراوة فى بعض الأحيان الأخرى أو مليء بالهزء الشديد.

حدث أن جاء صانع للمداخن لتركيب مدفأة في مهجع الفتيات. وكنا قد طلبنا منه مدفأة مستديرة. وحالما دخل الينا، كان يقطع نهاره كله بالترهات والتوافه، فيرتب فرن المطبخ لدى أحدهم أو يصلح حاجزا فى الاصطبل. كان ذا مظهر مثير الفضول: فهو بدين مكتل أجرد وفى الوقت ذاته عذب مشرق النفس من كل ناحية. كان يجود بالكلمات الطيبة و النكات المرحة وكان يبرز من كلامه بواقع صانع المداخن ولم يكن له مثيل فى الدنيا.

كان الأولاد الذين يلحقونه متجمهرين، يستمعون اليه بارتياب كبير وعدم تصديق له، وكانت حكاياته توقظ لديهم ردود فعل كثيرا ما كانت تخالف كل المخالفة ما كان ينفقه ويبذله فى سبيلها.

ـ وأقوله لكم يا أولادى الصغار، كان يوجد هناك بطبيعة الحال صانعون آخرون للمداخن أقدم منى ولكن الكونت ما كان ليريد أن يشتغل أى واحد منهم. «هيا يا أصدقائى وأحضروا لى أرتيمى» ـ كان يقول مثل هذا.

«لأن هذا الرجل اذا ركب لى مدفأة فانها تكون مدفأة بالمعنى الصحيح». وانه لمن المؤكد أننى كنت فتيا فى المهنة وان وضع مدفأة لدى الكونت أمر تعلمون عظم شأنه... وقد كنت من حين الى آخر ألقى نظرة على العمل والكونت — و هذا شئ أريد أن أقوله — يقول لى: «اعمل ما فى طاقتك يا أرتيمى...»

ويسأله الأولاد:

— وبعدئذ هل نجم من هذا شئ؟

— وكيف لا؟ كان الكونت يأتى دائما ليلقى نظرة...

كان يشمخ برأسه الأجرد ليقلد الكونت وهو يتفحص المدفأة التى ركبها أرتيمى. وكان الأولاد لا يتمالكون أنفسهم فينفجرون بالضحك على أرتيمى الذى يظهر بمظهر الكونت، فقد كان الشبه بعيدا بينهما.

كان ارتيمى يستهل بتركيب المدفأة بخطابات مهيبة ذات علاقة باختصاصه فيذكر فى هذا المساق جميع المدافئ من النوع الذى رآه: المدافئ الجيدة كانت من صنعه، والسيئة من صنع صناع المدافئ الأخرين. كان

هذا الدعي لا يختلج فى نفسه وسواس من نشر أسرار المهنة جميعها فى الوقت الذى كان يعدد فيه جميع الصعاب التى تلازمه:

ـ ان أهم شئ فى هذا المقام هو مد خط القطر صحيحا. وهذا ما لا يعرفه بعضهم.

كان الأولاد يقصدون مهجع الفتيات حيث كانوا يراقبون بصمت آرتيمى وهو مشغول «بسحب خطه».

كان آرتيمى يتبجح كثيرا وقت وضع الأساسات. وحينما يصل الى كيان المدفأة نفسها يتبدى قلق واضطراب فى حركاته وينعقد لسانه.

كنت أمر عليه لأراه يعمل فكان الأولاد يبتعدون عنه وهم يلقون علي نظرات الاهتمام، فأهز الرأس قائلا:

ـ لماذا هى منتفخة؟

ـ منتفخة؟ لا... انها تبدو هكذا لأن العمل لم ينته، غير أنه حالما ينتهى فسوف تجد كل شئ على ما يرام.

وكان زادوروف يغمز بعينيه ويتفحص المدفأة:

ـ وعند الكونت كانت المدفأة «تبدو هكذا» ايضا؟

وكان آرتيمى لا يدرك التهكم والسخرية فى كلام زادوروف فيجيبه:

ـ طبعا، ان جميع المدافئ تبدو هكذا ما دامت لم تنته. وهكذا أنت مثلا...

وبعد ثلاثة أيام استدعانى أرتيمى لأستلم العمل. كانت الاصلاحية كلها مجتمعة فى المهجع وكان آرتيمى يمشى حول المدفأة وهو شامخ الرأس. كانت المدفأة تنتصب وسط الحجرة وقد برزت منها نواتئ من جميع الجهات جعلتها يبدو مشوه الشكل... وفجأة انهار جهاز المدفأة وأحدث ضجيجا كبيرا وغطى كل شئ بسيل أحجار القرميد المتطايرة بيننا، ولكن هذا الضجيج ما كان فى الامكان أن يحجب انفجار الضحك والصراخ والعويل الذى انطلق فى تلك الآونة. لقد أحدث سقوط أحجار القرميد كثيرا من الرضوض ولكنه لم يكن هناك من امرئ لم يعد فى حالة ينتبه فيها الى وجعه. كان

الضحك يسود المهجع وكل يهرب منه الى الردهات والباحة وجميعهم يتلوون من شدة الضحك. وتخلصت من ركام الأنقاض وأسرعت الى الغرفة المجاورة حيث كان بورون ممسكا بتلابيب آرتيمى وقبضة يده فوق صلعته الملطخة بالغبار.

وطرد آرتيمى بيد أن اسمه ظل طويلا مرادفا لاسم الرجل الذى لا يعرف شيئا ويكون متبجحا «دجالا». فكان يقال:

ــ ما هذا؟

ــ انه لأرتيمى حقيقى، ألا ترى؟

واذ لم يكن ارتيمى، فى اعين اولاد الاصلاحية، يدانى شيرى فى صفاته، فقد كان الاخير يتمتع بينهم بتقدير عام وهذا ما كان يؤمن السير السريع لأعمالنا الزراعية ونجاحها. وقد كانت لشيرى أيضا موهبة أخرى: وهى اكتشاف الأملاك التى لم يبق لها وارث ثم ممارسة السفاتج وبصورة عامة ايجاد اعتمادات مالية. وقد وجدنا لذلك ظهور قصاصات للجذور وآلات للبذار ودوافن للبذار

جديدة متلألئة وخنازير وحتى أبقار. ثلاث بقرات، فكر فى هذا! سيكون بعد أمد قليل حليب عندنا.

هذا وقد استولى على الاصلاحية كلها افتتان وشغف شديدين بالزراعة. ولم يبق غير الأطفال الذين يتمرنون فى المشاغل فلم يسارعوا الى نشاط الحقول. وعلى قطعة من الأرض وراء معمل الحدادة حفر شيرى طبقات من التراب وصنع له معمل النجارة هياكل خشبية لاقفاص الانضاج. وفى الاصلاحية الثانية اتخذت هذه الأعمال نسبا عالية.

وفى غمرة نشاطنا الزراعى فى الأيام الأولى من شهر شباط– فبراير– جاء كارابانوف لزيارتنا فى الاصلاحية. فاستقبله الأولاد بعناق وقبلات حارة. وتملص منهم بصعوبة ليصل الي:

– لقد مررت لأرى كيف تعيشون؟

كانت وجوه باسمة تفيض بالبشر تنظر من باب مكتبى: الأولاد والمربين والغسالات.

– سيميون هنا انظر! آه يا لعين!

وتجول كارابانوف حتى المساء فى أرجاء الاصلاحية، وذهب لرؤية مزرعة تريبكى ثم عاد الي مكتئبا صامتا فقلت له:

ـ احك لى يا سيميون قليلا كيف تعيش.

ـ آه نعم... أعيش لدى والدى.

ـ وميتياغين... أين هو؟

ـ لا أعرف أو أهتم به! لقد تركته، وذهب الى موسكو على ما يظهر.

ـ وعند والدك كيف تجد نفسك؟

ـ أوه، انهم فلاحون كسائر الناس. ان والدى لا يزال قويا نشيطا... أما أخي فقد قتل...

ـ كيف قتل؟

ـ كان مع الأنصار، فقتله رجال بليتيورا فى الشارع فى المدينة.

ـ وماذا تود أن تعمل؟ أتريد البقاء عند والدك؟

ـ لا... لا أريد البقاء... ولا أعرف ماذا أصنع...

وتلوى بادي الحيرة والاضطراب واقترب منى قائلا فجأة:

– ما رأيك يا أنطون سيميونوفيتش اذا بقيت في الاصلاحية؟ كيف؟

وألقى سيميون نظرة سريعة عليّ وخفض رأسه حتى ركبتيه.

وقلت له ببشر وبساطة:

– ولم لا؟ أجل ابق. فسوف نكون سعداء بك.

وانتفض سيميون من مقعده وقد تملكته نشوة الفرح وتابع قائلا:

– ولكن لم أعد أستطيع – أتعلم – لم أعد أستطيع! ان الأيام الأولى قد مرت ولكن بعدئذ... لا، لم أعد أستطيع! هذا كل شيء! انني كنت أذهب وأجيء وأعمل وآكل ولكن عندما كانت تطوف بي الذكرى كنت أشعر برغبة شديدة للبكاء. حدث هذا كما قلت لك. كنت متعلقا بالاصلاحية دون أن يخالجني شك في ذلك. لقد فكرت في نفسي أول الأمر: ان هذا لن يجدي شيئا. ثم قلت لنفسي: ومع ذلك سأذهب اليها لا لشيء سوى رؤيتها. وحينما وصلت ورأيت كل ما

يحدث عندكم! ألا ما أجمل الحياة! ورأيت صاحبكم شيرى...

قلت له:

ـ هيا لا تتأثر. كان ينبغى لك أن تعود على الفور؛ ما الفائدة من هذا المضض الأليم:

ـ أجل هذا ما كنت أفكر فيه، ولكن عندما كنت أتذكر جميع تلك الحوادث الرذيلة وكيف كنا نزدريك ف...

وقام بحركة بيده وسكت.

قلت له:

ـ حسنا، عليك أن تنسى كل هذا.

ورفع رأسه ثانية باحتراس:

ـ فقط... هذا ممكن اذا كنت تفكر... لعلك تعتقد أننى اتظاهر كما كنت تقول... لا أبدا. آه ليتك كنت تعرف كم من الأشياء قد تعلمتها. ولكن قل لى بصراحة هل تصدقنى؟

فقلت له بلهجة جادة:

ـ أصدقك.

ـ لا، قل الحقيقة هل تصدقنى؟
فقلت ضاحكا:
ـ آه... لقد أضجرتنى أخيرا! ان ما أفكر به هو أن الماضى لن يعود؟
ـ أرأيت؟ انك لا تصدقنى تماما...
ـ انك على خطأ يا سيميون بزج نفسك فى هذه الحالات. اننى أصدق جميع الناس، هناك شئ فقط: هو أننى أصدق البعض أكثر من الآخر: فأنا لى ثقة فى البعض بخمسة كوبيكات وفى البعض الآخر عشرة.
ـ وبالنسبة الى؟
ـ مئة روبل.
فجأر سيميون بصوته حانقا:
ـ اما انا فلا اصدقك ابدا!
ـ انها لخسارة كبرى!
ـ حسنا لن يهم، سوف أريك...
ومضى سيميون الى المهجع.
ومنذ اليوم الاول صار نفسه الساعد الأيمن لشيرى.

لقد كان لديه ميل بارز جيدا للزراعة. فكان يعرف كثيرا من أمور المهنة ولديه الكثير منها مجبول فى دمه خلف عن سلف بفعل وراثة فلاح السهوب. وقد كان فى الوقت ذاته يغترف بنهم من علم الزراعة الجديد ومن جمال هذا العلم ورونقه.

كان سيميون يرمق شيرى بنظرة الغيرة ويبذل جهدا ليريه أنه هو أيضا لا ينال منه التعب ولا يشعر بحاجة الى الراحة. ولم يكن غير هدوء ادوارد نيكولاييفيتش ليس فى وسعه تقليده لأنه كان على الدوام مضطربا وفريسة للهيجان فى غليان من الحنق أوالحماسة أوالمرح الفائض.

وبعد أسبوعين استدعيته وقلت له ببساطة:

— خذ هذه الرسالة. سوف تقبض خمسمئة روبل من الخزينة.

وفغر سيميون فمه وعينيه وعلت وجهه صفرة وشحوب وقال بجفاء:

— خمسمئة روبل؟ وبعدئذ؟

فأجبته: ـ لا أكثر. ـ وألقيت نظرة فى جرار طاولتى وقلت له: ـ سوف تجلبها لى.

ـ سأذهب على صهوة الجواد؟

ـ طبعا، وخذ مسدسا على كل حال.

وسلمت سيميون نفس المسدس الذى انتزعته فى الخريف من حزام ميتياغين مع ثلاث رصاصات. وأخذه سيميون بيديه بشكل آلي ونظر اليه نظرة باهتة ثم دسه فى جيبه بحركة سريعة، ولم يزد كلمة وخرج. وبعد عشر دقائق سمعت وقع حوافر على الأرض: فقد مر فارس بسرعة الريح أمام نافذتى.

وعاد سيميون قبل المساء ودخل الى مكتبى فى معطف حداد قصير وقد تزنر فى وسطه وهو خفيف رشيق ولكنه مقطب. ووضع بصمت على طاولتى حزمة من الأوراق المالية والمسدس.

وتناولت الحزمة وسألته بلهجة لا مبالاة فيها اطلاقا:

ـ هل عددتها؟

ـ نعم.

ورميت الأوراق المالية بدون مبالاة فى درجى.
وقلت له:
ـ شكرا، اذهب وتناول طعامك.
وجر كارابانوف دونما سبب حزامه من اليسار الى اليمين على معطفه القصير وخطا عدة خطوات مضطربة فى الغرفة ثم قال بصوت خافت:
ـ حسنا.
وخرج.
وانقضى اسبوعان. كان سيميون حينما يلقانى يلقي علي التحية بوجه متجهم كأنه يخجل.
وكان يصغى بتجهم أيضا الى أمرى الجديد:
ـ سوف تذهب لتقبض ألفى روبل.
وألقى علي نظرات طويلة مليئة بالحنق، ودس المسدس فى جيبه وقال لى فى أخر الأمر وهو يشدد على كل كلمة:
ـ ألفين؟ واذا لم أجلب المال؟
ووثبت من مقعدى وأنا أصرخ به:

– من فضلك لا تحلك مثل هذه الحماقات! أعطيتك أمرا فهيا واصنع ما تؤمر به.

وهز كارابانوف بكتفيه وغمغم كلاما غامضا:

– نعم... حسنا...

وعندما جلب المال حثنى قائلا:

– عده.

– ولماذا أعده؟

– عده هذا ما أطلبه منك.

– ولكن ألم تعده أنت؟

– أقول لك عده.

– أوه، كفى!

وأمسك عنقه كانما هناك شئ يخنقه ثم ياقته حتى كاد ينزعها:

– انك تسخر منى! انه ليس من الممكن أن يكون لك ثقة بى، ليس من الممكن! انه لرهان ما تفعله عمدا. اننى أعرفه: عمدا!..

وجلس على الكرسى يكاد يختنق.

ـ ينبغي لي ان احتمل تضحيات قاسية من اجلك!

وانقض سيميون:

ـ اية تضحيات؟

ـ مثلا ان ارى نوبتك الهيسترية.

وأمسك سيميون بمقبض النافذة وصرخ:

ـ أنطون سيميونوفيتش!

فقلت له متمالكا نفسي:

ـ ماذا أصابك؟

ـ ليتك تعلم! ليتك فقط تعلم! كنت أفكر وأنا أعدو على الطريق: اذا كان هناك اله، واذا كان هذا الاله يرسل أحد الأشخاص، واذا كان هذا الشخص يخرج من الغابة لينقض علي، فليأت عشر، بقدر ما يراد، لا يهمني، فسوف أطلق النار وأعض وأدافع دفاع الكلب حتى أُقتل... ليتك تعلم، كنت أكاد أبكي من ذلك. وانني لأعرف: أنك كنت هناك في بيتك تتساءل: هل سيعود بالمال أم لا؟

ـ انك حقا لمضحك يا سيميون! هناك دائما مخاطر مع المال. وبدون مخاطر، ما من وسيلة لجلبه الى الاصلاحية. ولكنى أنا، اليك ما كنت أفكر به: اذا كنت أنت الذى يجلبه فان المخاطر أقل. فأنت فتى قوى وانك تجيد ركوب الجواد وانك تتملص من بين أيدى اللصوص مهما كانوا. أما أنا فانهم يمسكون بى بسهولة.

وغمز سيميون بعينيه فرحا.

ـ أوه! انك لداهية يا أنطون سيميونوفيتش!

ـ هيا، ما حاجتى للاحتيال عليك؟ انك تعرف الآن كيف يقبض المال، ومنذ اليوم فصاعدا ستستمر فى قبضه. وما من خوف يساورنى. اننى لأعرف أنك انسان شريف مثلى. وقد كنت أعرف ذلك فيما مضى ايضا. أولم تره اذن؟

ـ لا، اننى ظننت أنك لم تكن تعرفه، ـ قال هذا سيميون وخرج من المكتب وهو يغنى بصوت عال:

انطلقت النسور تطير
من أوكارها في الشعاف المنحدرة.
طارت وهي تقرقر فرحا
ساعية وراء سعادتها...

٢٥. تربية القادة

حمل لنا شتاء عام ١٩٢٣ نجاحات عديدة في التنظيم حددت الى زمن طويل أشكال مجتمعنا. وكان أهمها الكتائب والقادة.

وحتى هذا اليوم يوجد في اصلاحية غوركي كتائبها وقوادها شأنها في ذلك شأن كومونة دزيرجينسكي وسائر الاصلاحيات المتناثرة في أوكرانيا.

وغني عن البيان أنه كان في الامكان العثور على نقاط مشتركة قليلة جدا بين ما أصبحت عليه الكتائب عندنا في عام ١٩٢٧ — ١٩٢٨ أو كتائب كومونة دزيرجينسكي وبين كتائبنا الأولى التي كان قوادها

زادوروف وبورون. ولكن بعض العناصر الأساسية قد سبق لها وجود شتاء عام ١٩٢٣. ان اهمية هذا النظام المبدئية لم يكن له تقدير الا بعد وقت متأخر كثيرا، حينما هزت كتائبنا أركان العالم التربوى بسعة سيرها الهجومى وحينما اتخذتها بعض جماعات حفظة كتب التربية هدفا لسخريتها وتهكمها. واذ ذاك كان عملنا لا يشار اليه بغير عبارات تربية «القادة». وكانوا يعتقدون انه قد حكم علينا حكما نهائيا لا استئناف له.

وفى عام ١٩٢٣ ما من امرئ كان يفترض أنه كانت تتأسس فى أحضان غاباتنا مؤسسة هامة جليلة الشأن كان ينبغى أن ينطلق صوبها كثير من المشاعر.

وابتدأ العمل بحادث تافه.

كانوا يعتمدون كالعادة على براعتنا اذ لن نسلم أحطابا هذا العام.

وكما فى الماضى كنا نستعمل الحطب الجاف ومنتجات تشذيب الغابة. وكانت احتياطات المحروقات الدنيا المجموعة خلال الصيف قد استهلكت فى شهر

تشرين الثانى ـ نوفمبر ـ وهكذا أصبحنا من جديد فريسة أزمة حقيقية للتدفئة. وفى الحقيقة قد كنا جميعا قد أرهقنا من المتاعب التى كانت تسببها لنا سخرة الاحتطاب. وليس الأمر أنه من العسير القطع ولكن لا بد من القول انه فى سبيل جمع حوالى مئة بود من هذا الحطب ـ ان جاز لنا أن ندعوه هكذا ـ فيجب جز عدة هكتارات من الغابة والتغلغل الى قلب الأجمات، وكان يكلف هذا العمل انفاق قوى كبيرة لا طائل لها لنقل كل هذه الأحطاب الى الاصلاحية. وكان هذا العمل يمزق الثياب التى لا نملك منها شيئا وتتجمد فى الشتاء الأرجل وتقوم المشاجرات المستمرة فى الاصطبل: اذ أن أنطون لا يريد أن يسمع الحديث عنه.

ـ اذهبوا واستعطوا بأنفسكم، فلن أرسل الخيل الى ذلك، لأجل السعى وراء الحطب! أتدعون هذا حطبا؟

ـ يا براتشنكو، ألا يجب مع ذلك أن نتدفأ؟ ـ هذا هو الجواب الذى كان يطرحه عليه كالينا ايفانوفيتش.

كان أنطون يتهرب منه قائلا:

ـ لا تستدفئوا فما أرى من ضير، وعلى كل حال فما من تدفئة فى الاصطبل ومع ذلك فنحن نشعر أننا على ما يرام.

وفى هذا الوضع الحرج كنا ننجح مع ذلك فى اجتماع عام أن نقنع شيرى بتخفيض اعمال نقل السماد الى أمد قليل وبتجنيد أقوى الأولاد وأحسنهم جزمات لجمع الحطب. وكانت تتألف جماعة من حوالى عشرين ولدا كان يدخل فى عدادها أولادنا النشيطون: بورون وبيلوخين وفيرشنيف وفولوخوف وأوسادتشى وتشوبوت وغيرهم. كانوا يذهبون منذ الفجر وجيوبهم محشوة خبزا ليقضوا طيلة النهار فى الغابة. وفى المساء كان طريقنا المعبد تزينه قطع من الأغصان الميتة التى كان أنطون يأتى لالتقاطها على عربة زلاقة يجرها جوادان وهو يبدى ازدراء لهذا العمل.

كان الأولاد يعودون الى الاصلاحية جياعا ونشيطين وكانوا فى غالب الأحيان يزينون عودتهم الى المأوى بلعب طريف يمتزج به بعض الذكريات من ماضيهم

اللصوصى. وبينما يكون أنطون مع ولدين آخرين يحملون الحطب اليابس على العربة الزلاقة، يكون الباقون قد انهمكوا فى ملاحقة ومطاردة متبادلة فى الغابة: كانت هذه الألعاب تنتهى بصراع وقبض على قطاع الطرق. وكان «قطاع طرق الغابات» الأسرى يساقون الى الاصلاحية تحت حراسة مسلحة بالفؤوس والمناشير. وكانوا يدفعونهم بقوة ونكات الى مكتبى حيث يكون أوسادتشى أو كوريتو الذى كان ينتمى فيما خلا من الزمن الى عصابات ماخنو (١٦) وقد فقد اصبعا من يده معها، فكانا يحثانى بشدة على أن أقرر:

ـ قطع رؤوسهم أو رميهم بالرصاص؟ انهم يجوبون الغابة مسلحين وهناك كثير منهم على ما يظهر.

وكان يبدأ الاستنطاق. ويسأل فولوخوف لبيلوخين بخبث وهو عاقد الحاجبين:

ـ هيا، كم مدفعا رشاشا عندكم؟

ويسأله بيلوخين وهو مستغرق فى الضحك:

ـ ماذا يعنى مدفعا رشاشا؟ هل يؤكل هذا؟

ـ مدفع رشاش؟ يا لك من لص لعين!

ـ ألا يؤكل هذا؟ فى هذه الحالة ان المدافع الرشاشة لا تهمنى أبدا.

وكانوا يسألون بغتة فيدورنكو الانسان الريفى تماما:

ـ اعترف أنك كنت لدى ماخنو!

فيدرك فيدورنكو على بسرعة نسبية كيف يجيب ليبقى فى اللعبة:

ـ أجل، كنت لديه...

ـ وماذا كنت تعمل هناك؟

وبينما يكون فيدورنكو يتأمل جوابه ويفكر فيه، يكون واحد منهم وراء ظهره يعطى الجواب بصوته الخاص الابله:

ـ كنت أحرس الأبقار.

كان فيدورنكو يلقى نظرة دائرية لا تصادف غير وجوه بريئة. فينطلق ضحك عام. فيضطرب ويبدأ بفقد روح اللعب الذى يجد مشقة فى الانغماس به، وفى هذه اللحظة ينهال عليه سؤال آخر:

ـ هل كانت الأبقار فى العربة العسكرية؟

وفى هذه المرة يطيش فيدورنكو وينسحب منها بهذه العبارة التقليدية:

ـ ما هذا؟

ويتأمله كوريتو بغضب شديد ثم يلتفت اليّ ويتفوه بهمس متوتر:

ـ أنأخذه الى المشنقه؟ انه لمنحط قظيع: وما عليك الا أن تتأمل عينيه.

فأجيبه بنبرة:

ـ أجل انه لا يستحق أى تساهل. خذوه الى المطعم وقدموا إليه حصتين.

فيجيب كيوريتو بأسلوب مسرحى:

ـ انه لجزاء مريع!

فيقول بيلوخين:

ـ لكى أقول الواقع: وأنا أيضا قاطع طريق رهيب... وأنا ايضا كنت أحرس الأبقار لدى الأم ماروسكا (١٧)...

وحينئذ يأخذ فيدورنكو بالابتسام ويغلق فمه

المبهوت. ويشرع الأولاد بتبادل انطباعاتهم عن العمل. فيحكي بورون:

– لقد سلمت كتيبتنا اليوم اثنتى عشرة عربة لا أقل. لقد قيل لكم انه سيكون فى رأس السنة ألف بود من الحطب وسوف تكون!

كانت كلمة «كتيبة» تعبيرا من العصر الثورى، من تلك الأزمنة التى كانت فيها أمواج الثورة لم تنتظم بعد فى صفوف منتظمة من الافواج والفرق. كانت حرب الأنصار التى دامت زمنا طويلا، خاصة فى اوكرانيا، تجرى بالكتائب فقط. وقد كان فى امكانها جمع عدد من الرجال يبلغ حتى عدة آلاف وأقل من مئة، وقد كان لها مآثرها ومكامنها فى الغابة.

وكان أولاد جماعتنا يتذوقون أكثر من أى شخص آخر رومانطيقية الحرب والنضال الثورى. حتى الذين رمتهم تقلبات القدر فى معسكر العدو الطبقى قد وجدوا فيها قبل كل شىء هذه الرومانطيقية نفسها. ان طبيعة النضال والتناقضات الطبقية قد كانت بالنسبة

للكثير منهم غير مفهومة وغير معروفة وهذا ما كان يفسر لماذا لم تطلب السلطة السوفييتية حسابا على ماضيهم فكانت ترسلهم الى الاصلاحية.

ان الكتيبة التى تشكلت فى أحضان غاباتنا مسلحة فقط بالفؤوس والمناشير كانت مع ذلك تبعث شكلا للحياة المألوفة العزيزة لتلك الكتيبة الأخرى التى كانت لا تزال تعيش فى نفوس الأولاد، هذا ان لم تكن تعيش فى خواطرهم أو على الأقل فى الحكايات والأساطير التى لا يحصى لها عدد.

وما كنت أود أن أعارض هذه اللعبة التى تعيش فى حالة نصف واعية من الغرائز الثورية لدى أولاد اصلاحيتنا. أما رجال التربية الذين يريقون المداد فى تسطير أصولها فحكموا على كتائبنا وتمارييننا العسكرية بالفشل، فقد كانوا مجرد عاجزين عن فهم ما نحن فى صدده. لم تكن ذكرياتهم عن كتائب الجند سارة، ذلك لأن هؤلاء لم يحسنوا استخدام منازلهم الجميلة الصغيرة ولم يراعوا نفسياتهم، وحين

تطلق قذائف مدفعيتهم لم يأبهوا «علمهم» وجباههم المقطبة.

ولكن لا ضير من ذلك. فمهما يكن من امر فان الاصلاحية ابتدأت من الكتيبة.

ففي كتيبة الغابة كان لبورون دائما الدور الأول، وما من أحد كان ينازعه على هذا الشرف. وقد أخذوا يدعونه في عرف اللعبة الرئيس «الاتامان».

وكنت أقول:

– هذا الاسم غير مناسب فما من رئيس اتامان الا عند قطاع الطرق.

فعارض الأولاد قائلين:

– ولماذا عند قطاع الطرق؟ فالأنصار عندهم أيضا. كان كثير منهم مع الأنصار الحمر.

– في الجيش الأحمر لا يقال رئيس اتامان.

– في الجيش الأحمر يقال «قائد» ولكن بيننا وبين الجيش الأحمر بون شاسع.

– ليس الى هذا الحد، فاذا قلتم «قائد» فهذا أفضل.

وأنجز قطع الحطب: وفى أول كانون الثانى– يناير – كان لدينا منه أكثر من ألف بود. ولكن كتيبة بورون لم تنحل، فقد انتقلت بأجمعها الى انشاء اقفاص الإنضاج فى الاصلاحية الثانية. كانت الكتيبة تغدو الى عملها منذ الصباح الباكر فتأخذ طعامها إلى مكان العمل ولا تعود الا فى المساء.

وأبدى لى زادوروف هذه الخاطرة ذات مرة:

–كيف يتدبر هذا عندنا؟ فهناك كتيبة بورون، وسائر الأولاد ما شأنهم؟

ولم يكن من حاجة للتفكير بهذا الأمر مليا. ففى هذا الوقت كان نظام اصدار الاوامر اليومية يوجد منذ حين عندنا، فصدر الأمر باحداث كتيبة ثانية يقودها زادوروف. وقد كانت مختصة بعمل المعامل، وأعاد اليها بورون عمالا بارعين مثل بيلوخين وفيرشنيف.

وقد اطرد تطور هذا النظام بسرعة كبيرة. فتشكلت الكتيبة الثالثة والرابعة فى الاصلاحية الثانية مع قائديهما

المعتبرين. وكونت الفتيات الكتيبة الخامسة تحت قيادة ناستيا نوتشيفنايا.

وقد أخذ هذا التنظيم شكله النهائى فى الربيع. فقد غدت الكتائب أكثر صغرا واستجابت لفكرة توزيع الأولاد حسب المعامل. واننى لأذكر أن صناع الأحذية كانوا يحملون دائما الرقم واحد. وعمال الحدادة الرقم ستة، وعمال خدمة الخيول الرقم اثنين وعمال تربية الخنازير الرقم عشرة. وفى بادئ الأمر لم يكن لدينا أى دستور. كان قادة الكتائب يعينون من قبلى ثم أخذت شيئا فشيئا أجمعهم فى مؤتمرات يطبق فيها الأولاد بسرعة الاسم الجديد الموفق جدا هو «مجلس القادة». وسرعان ما تعودت أن لا أعالج أمرا هاما بدونه، وانتقل تعيين القادة بشكل تدريجى الى المجلس أيضا الذى أخذ يكتمل بطريق الاختيار المشترك. أما شروط الانتخاب — بمعناها الدقيق — للقادة ومسؤولياتهم فلم نصل اليها الا بعد حين ولكننى لم أعتبر هذه الشروط تقدما، وظللت على هذا الرأى والاعتبار. وكانت تصحب

الاختيار لقائد جديد من قبل المجلس مناقشة فيها فطنة ونباهة. وبفضل الاختيار المشترك كان لدينا على الدوام قادة بالغو البراعة وكان لدينا في الحين ذاته مجلس لم ينقطع نشاطه على هذا المنوال ولم يحل على التقاعد.

كانت هناك قاعدة لها أهميتها ما تزال باقية حتى الآن، وهي المنع المطلق لمنح بعض الامتيازات مهما كانت للقائد: فما كان ليتناول أي شيء اضافي، وما كان ليعفى من العمل.

وفي ربيع عام ١٩٢٣ انتقلنا الى اتقان بعيد الأهمية في نظام الكتائب. كان هذا التدبير يؤلف في الواقع اكتساب أكثر شيء جوهري لمجتمعنا طيلة الثلاثة عشر عاما من تاريخه. فقد كان هذا الاكتساب وحده هو الذي أتاح لكتائبنا أن تذوب في مجتمع حقيقي قوى موحد يعرف التمييز في العمل والتنظيم ويعرف الديمقراطية في الاجتماع العام، والخضوع الى الأوامر وامتثال رفيق الى رفيقه، ولكنه ما كان ليتشكل في وسطه أرستقرطية في ظل أشكال طبقة القواد.

كان هذا الاكتساب هو الكتيبة المختلطة.

ولم يكن خصوم نظامنا ليروا قط فى العمل أحد قادتنا بلحمه ودمه، أولئك الخصوم الذين كانوا يهاجمون هجوما قويا ما كانوا يسمونه التربية العسكرية. ولكن هذا لم يكن أيضا الأكثر أهمية. ان الشيء الأكثر أهمية كان أنهم لم يسمعوا حتى الحديث عن الكتيبة المختلطة، ولم تكن لديهم أية فكرة عما كان يشكل العامل الأساسى الحاسم لهذا النظام.

كان وجود الكتيبة المختلطة مرده الى أننا فى ذلك الحين كنا منهمكين انهماكا أساسيا بالزراعة. كان لدينا حوالى ٧٠ هكتارا وكان شيرى فى الصيف يتطلب معونة الجميع وكان كل ولد يبقى فى الوقت ذاته مختصا بهذا العمل أو ذاك، الذى لم يكن هناك من أحد يود قطع صلته به: فقد كان الجميع يعتبرون الزراعة وسيلة لتأمين حياتنا وتحسينها فى حين أن المعمل كان اختصاصا وكفاءة. وفى الشتاء عندما تتضاءل أعمال الحقول الى أدنى حد، تكون المعامل كاملة، غير أنه منذ شهر

كانون الثانى (يناير) كان شيرى يشرع يستدعى الناس لبناء الأقفاص وأعمال السماد، ولم تكن طلباته الا لتزداد وتنمو.

وقد كانت الأعمال الزراعية بالتغيير الدائم لمكانها وشكلها تقتضى توزيعا متنوعا لجماعتنا بحسب المهمات. وقد ظهر لنا منذ البدء أن وضع قواد مخولين بسلطة لا تجزئة فيها لادارة أعمالهم شئ أساسى. فيأخذون على عاتقهم مسؤولياتها الكاملة. وكان شيرى نفسه يلح على ان يكون احد مسؤول عن النظام والأدوات والتنفيذ وكيفية العمل. انه لطلب ما من امرئ واع يثور ضدها الآن، ولم يثر ضدها على ما يظهر حين ذاك سوى رجال التربية.

و حالما فهمنا فهما جيدا ضرورة تنظيمنا، ساقتنا هذه الضرورة الى الكتيبة المختلطة.

كانت عبارة عن فريق مؤقت يؤلف لمدة أسبوع على الأكثر ويكلف بمهمة معينة، مثل: تعشيب حقل من حقول البطاطا، أو حراثة قطعة أرض أو تنظيف البذار أونقل السماد أو البذار و هكذا دواليك ...

كانت الأعمال المختلفة تتطلب عددا مختلفا من الاولاد: طورا رجلين وطورا خمسة أو ثمانية أو عشرين. وكان عمل الكتائب المختلطة يتنوع أيضا حسب الوقت: ففي الشتاء عندما يكون الأولاد يدرسون في مدرستنا فانهم كانوا يشتغلون حتى الغداء أو بعده على دفعتين. وبعد انتهاء العام الدراسي كان نهار العمل ست ساعات قد أقر، فكان الجميع يشتغلون في نفس الساعات، ولكن ضرورة الاستعمال بشكل كامل لجميع الأوائل كانت تجعل فريقا من الأولاد يعملون منذ الساعة السادسة صباحا حتى الظهر والباقون من الظهر حتى الساعة السادسة مساء. وفي بعض الأحيان كان العمل يقع علينا بكثرة فكان يقتضينا تمديد يوم العمل.

كان التنوع الكبير لأعمالنا ولمدتها يحدد أيضا التشكيل المتنوع للكتائب المختلطة. فتألفت قائمة من هذه الكتائب تشبه برنامج السكة الحديدية.

ففي الاصلاحية كان الجميع يعرفون أحسن معرفة أن الكتيبة المختلطة الثالثة «خ» تعمل من الثامنة صباحا

حتى الرابعة بعد الظهر مع فترة راحة لتناول طعام الغداء وبشكل الزامى فى حقل الخضار. بينما الكتيبة الثالثة «ب» تكون منهمكة فى البستان، والكتيبة الثالثة «ت» فى التصليحات والكتيبة الثالثة «أ» فى بناء الأقفاص. أما الكتيبة المختلطة الأولى فكانت تشتغل من السادسة صباحا حتى الظهر والكتيبة الثانية من الظهر حتى السادسة مساء. وبعد أمد قليل بلغ هذا التعداد ثلاث عشرة كتيبة مختلطة.

كانت الكتيبة المختلطة كتيبة للعمل فقط. عندما ينتهى عملها ويرجع اولادها الى الاصلاحية تنحل وتنتهى.

كان كل ولد من الاصلاحية يعرف كتيبته الدائمة التى لها قائدها الدائم ومكانه المعين فى نظام المعامل وفى المهجع والمطعم. لقد كان هذا وحدة جماعية اولية لأولاد الاصلاحية وكان قائدها يشترك اشتراكا اجباريا فى مجلس القادة. بيد أنه منذ الربيع كنا كلما اقتربنا من الصيف كان يحدث لكل ولد من الاصلاحية أن يمضى فى كثير من الأحيان مدة أسبوع فى كتيبة

مختلطة تعين لهذا الغرض أو ذاك. وقد كان في امكان هذه أن لا تضم بصورة عامة غير ولدين، وما كان واحد منهما يقل شأنه ليعين قائدا لها. فكان يدير العمل ويستجيب له. ولكن ما ان كان ينتهي نهار العمل حتى كانت الكتيبة تنحل.

كانت كل كتيبة مختلطة تشكل لمدة أسبوع، ونتيجة لذلك كان كل ولد من الاصلاحية في الأسبوع التالي يوجه الى تشكيلة جديدة مؤقتة من هذا النوع ليقوم بعمل آخر بقيادة قائد آخر يعين أيضا لمدة أسبوع من قبل مجلس القادة وبعدئذ يخصص الى كتيبة مختلطة غيرها لا بصفته قائدا وانما يدخل الصف.

وكان مجلس القادة يحرص دائما على أن تقع على عاتق كل واحد من أولاد الاصلاحية أعباء قيادة كتيبة مختلطة بشكل تدريجي ما عدا العاجزين منهم عن ذلك. فقد كان هذا حقا وعدلا، لأن القيادة كان لها قسط كبير من المسؤولية والمتاعب. وبفضل هذا النظام كانت غالبية الأولاد لا يساهمون في العمل الكادح

فحسب، بل فى أعمال التنظيم أيضا. كان هذا أمرا هاما جدا، وهو ما كانت تتطلبه بحق التربية الشيوعية. واليك السبب، فهو باد للعيان: فقد كانت اصلاحيتنا تمتاز فى عام ١٩٢٦ بقدرتها على التلاؤم ومعاودة التلاؤم مع كل حاجة. فبالنسبة لتنفيذ اقسامها المختلفة كان يوجد على الدوام فيض من المنظمين الصالحين ومحركى النشاط، وانهم لأناس كان فى الامكان الأعتماد عليهم والركون اليهم.

ان أهمية قائد الكتيبة الدائمة أصبحت قليلة الشأن جدا وما كان القادة يرأسون «كتائب مختلطة» حينما كانوا يقدرون أنهم لديهم عمل يشغل وقتهم بشكل كاف. بل كانوا يمضون الى العمل أعضاء بسطاء فى كتيبة مختلطة تحت امرة قائدها المؤقت الذى كان فى الغالب عضوا من وحدتهم الدائمة. و هكذا تكونت فى الاصلاحية سلسلة معقدة من الترابط المتبادل الذى لم يعد يتيح الى أى ولد أن ينشق عن الجماعة ليسيطر عليها.

ان نظام الكتائب المختلطة قد أعاد الحياة الى الاصلاحية شديدة و مليئة بالاهتمام الى حد بعيد وذلك بفضل تناوب مناصب العمل والتنظيم، وممارسة القيادة والامتثال، و بفضل العمل الجماعى والفردى.

٢٦. اشرار الاصلاحية الثانية

لقد أصلحنا ممتلكات تريبكى منذ أكثر من سنتين، وها قد ظهر فى ربيع عام ١٩٢٣ بشكل يكاد يكون غير متوقع بالنسبة لنا اننا كنا قد انجزنا فيها عملا كبيرا جدا، وأخذت الاصلاحية الثانية تلعب دورا جليلا فى حياتنا. وكان لشيرى هناك حقل نشاطه الأساسى: حظيرة الأبقار والاصطبل وزريبة الخنازير. وفى مطلع فصل الصيف لم تعد الحياة تغط فى النوم كالسابق، بل كانت تغلى بشكل حقيقى.

وظلت الكتائب المختلطة للاصلاحية الاولى مع ذلك العوامل الفعالة لهذه الحياة مدة أخرى من الزمن.

فقد كنا نرى طيلة النهار حركتها التي لاتكاد تنقطع في تعرجات الدروب وحواف الحقول بين الاصلاحيتين : فبعضها يسرع الى عمله في الاصلاحية الثانية والباقي يسارع لدخول الاصلاحية الأولى ليتناول طعام الغداء أو العشاء.

كان الخط المتطاول من الكتيبة يغطي مسافة البعد بخطى سريعة. ولم تكن البراعة والجرأة اللتين للطفولة تسمحان بأن تتبلبلا بتداخل المصالح الخاصة ولا بحدود الملكيات. ففي الفترات الأولى كان سكان القرى يحاولون وضع العراقيل فيها ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن هذا لا أمل منه: فقد كان الأولاد يقومون بتقويم خط طرق المواصلات الملتوى بين الاصلاحيتين بدأب قوى ويعملون على تصحيحها بثبات نزاع الى تحقيق هذا الهدف الأمثل: وهو الخط المستقيم. وعندما كان الخط المستقيم يمر بمزرعة، فلم يكن الحل الهندسي للمشكلة يؤلف كل العمل. فقد كان لا بد من جعل بعض العوامل حيادية مثل: الكلاب والسياجات والحواجز والأبواب.

وكانت الكلاب أيسر شيء: فقد كان لدينا خبز الى حد الكفاية. وحتى بدون هذه الوسيلة كانت كلاب القرية تتآلف نفوسها تآلفا قويا مع أولاد الاصلاحية. فقد كانت حياتها الريفية المملة المحرومة من البهجة والفرحة، قد طرأت عليها فجأة تجارب جديدة ورائعة: مجتمع عديد وأحاديث ممتعة وامكانية الدخول في نزاع شديد في ركام من القش، و أخيرا لذة رفيعة: في مرافقة سير الكتيبة قفزا، أو خطف غصن من ولد او الحصول منه على شريط جميل في بعض الأحيان. حتى الكلاب المقيدة كانت تبدى كفرها بالجميل اذ كان الشيء الأساسى ينقصها للأعمال العدوانية: فمنذ حلول الربيع كان الأولاد لا يرتدون أى بنطلون، فالسراويل القصيرة كانت أكثر صحية، وأكثر لياقة وأرخص ثمنا.

ان افساد أخلاق المجتمع القروى الذى ابتدأ بخيانة الكلاب لواجباتها قد أخذ مجراه، وكانت نتيجته جعل العراقيل الأخيرة لا جدوى لها بمنع تقويم الخط من الاصلاحية الى النهر كولوماك. ففى بادئ الأمر مر

أندرى وميكيتا ونيتشيبور و ميكولا من جانبنا، وهم أولاد تتراوح أعمارهم بين العاشرة والسادسة عشرة قد أخذتهم روعة حياتنا ونشاطنا. كانوا يسمعون منذ أمد طويل نداءات ابواقنا ومنذ أمد طويل سرى فى نفوسهم شوق كبير للعيش فى مجتمع كبير مرح، وها هم الآن أمام جميع هذه العلامات للنشاط الانسانى الرفيع مثل «الكتيبة المختلطة» و«القادة» و«التقرير» الذى كان يبلغ حد الروعة، فقد كانوا يرونها وهم فاغرو الأفواه اعجابا. وكان الذين يكبرونهم سنا يهتمون بالطرائق الحديثة للزراعة: «فالأرض البور لخيرسون» ما كانت لتقربهم من قلوب أولادنا فحسب، بل من حقلنا وآلة بذارنا أيضا. ومنذ ذلك الحين فصاعدا أصبحت تلك هى العادة اذ كان ينضم الى كل واحدة من كتائبنا المختلطة بعض الأصدقاء من القرية فيحملون خفية المجرفة والرفش الى خط الحراثة. وفى المساء أيضا كان هؤلاء الأولاد يملأون الاصلاحية التى أصبحوا لها تابعا لازما بشكل غير محسوس بالنسبة لنا. وقد كان فى الامكان

أن يرى في عيونهم الشوق لأن يصبحوا أولادا في الاصلاحية. وقد نجح بعضهم في ذلك بعد ما انتزعوا من حوزة آبائهم بسبب منازعات الأسرة أو الأخلاق أو الدين.

وأخيرا انتهى انحلال القرية بفعل أقوى شيء في الدنيا: فالفتيات ما عدن يستطعن مقاومة الفتون الذى كان يحدثه فيهن الولد ذو الساقين العاريتين، والهندام الجيد والمرح الفائض والتربية العالية. وقد كان أبناء القرية الذكور عاجزين عن تقديم شيء يقاوم هذا الفتون والسحر بقدر ما كان يزداد عدم تعجل الأولاد الى استغلال ضعف مقاومة تلك العذارى: فما كانوا ليضربوهن بأيديهم على أكتافهن، ولا كانوا يمسكونهن في أى مكان بمفردهن، وما كانوا يسيئون معاملتهن ويعذبونهن. وفي ذلك العهد كان جيلنا القديم قد تمكن من الاقتراب من كلية العمال ومنظمة الشبيبة الشيوعية، فأخذ يتذوق جمالات الأدب والتهذيب، ولذات الحديث الممتع.

وكان عطف فتيات القرية ما زال لم يأخذ فى ذلك الحين مظاهر الحب. فقد كن يعشن بعلاقات طيبة مع رفيقاتهن في الاصلاحية، اللواتى كن أكثر تطورا وتمدنا منهن، ولكنهن فى الوقت ذاته لسن «بنات ذوات». أما الحب والمغامرات الغرامية فجاءت بعد حين قليل. ولم تكن الفتيات لذلك يبحثن عن مواعيد وأغانى عذبة بقدر ما كن يردن مرضاة المجتمع. وأخذت جماعاتهن يزداد ظهورهن أكثر فأكثر عندنا. وقد كن لا يزلن يخفن أن يغامرن وحدهن فى عباب الاصلاحية. فكن يجلسن على المقاعد متراصفات كالبصل، ويتمتعن الى آخر قطرة بانطباعات جديدة كل الجدة عليهن. ولعل منع أكل بزور دوار الشمس – ليس فى الداخل فحسب بل فى الباحة – قد أثر فيهن تأثيرا بالغا.

وبفضل عطف الجيل الفتى على قضيتنا، فان السياجات والحواجز والأبواب ما عادت تستطيع كما فى السابق أن تؤدى خدمة الى اصحابها فتبدى احتراما وحرمة للملكية الخاصة. وفى نتيجة الأمر سرعان ما

أطلق الأولاد العنان لجرأتهم حتى أخذوا يستعملون «سلالم» للمعابر العسيرة. وعلى ما يظهر لم تعرف روسيا هذا النوع من الاتقان فى مادة الطرق. فقد كانت تتألف من القاء لوح يقوم على وتدين فوق السياج.

هذا ولا بد من الاعتراف بأن تقويم الخط الممتد بين كولوماك والاصلاحية قد تم أيضا على حساب الأراضى المزروعة. على أنه، مهما يكن من أمر، ففى ربيع عام ١٩٢٣ كان فى امكان هذا الخط أن ينافس خط سكة حديد موسكو لينينغراد (١٨) وهذا ما خفف تخفيفا عظيما عمل كتائبنا المختلطة.

وعند الغداء كان الطعام يقدم الى الكتيبة المختلطة قبل أى شخص آخر، وفى الساعة الثانية عشرة والثلث كانت تنتهى من تناول الطعام فتستعد على الفور الى الذهاب الى عملها. وكان المربى المناوب فى الاصلاحية يسلمها ورقة يوجد فيها كل ما هو ضرورى: رقم الكتيبة، وقائمة أعضائها، واسم القائد، وتعيين العمل، وأجل التنفيذ. وكان شيرى قد أدخل الى هذا العمل

دقة حسابية عالية: فقد كان الشغل يقدر بالمتر والكيلوغرام.

وكانت الكتيبة تسعى بخفة الى عملها، فبعد خمس دقائق أو ست كان المرء يرى خطها يسير بعيدا عبر الحقول. وها هي تقفز فوق سياج وتتوارى بسرعة بين المنازل. وفي اثرها وعلى مسافة محدودة بطول محادثة الشخص المناوب تتبعها الكتيبة التالية: الثالثة «ك» أو الثالثة «س». وكانت خطوط كتائبنا سرعان ما تحدد الحقل كله. وفي هذه الأثناء يكون توسكا جالسا فوق سقف المستودع، فيصرخ بصوته الداوى:

ـ الكتيبة الأولى «ز» تعود!

وفي الواقع كانت ترى تتلوى بين سياجات القربة. كانت الكتيبة الاولى «ز» تقوم على الدوام بأعمال الحراثة أو البذار، وبصورة عامة الأعمال التي تتطلب الخيل. لقد ذهبت الى العمل في الساعة الخامسة والنصف صباحا بقيادة بيلوخين، وهذا الأخير هو الذى رآه توسكا من فوق سقفه. وبعد عدة دقائق تصبح

الكتيبة الاولى «ز» — وهي ستة أولاد — في باحة الاصلاحية. وبينما يكون مجموعها يسعى للجلوس الى الطاولات في الغابة يكون بيلوخين قد سلم التقرير الى الشخص المناوب. وسجل روديمتشيك عليه ساعة الوصول، والعمل المنجز.

وكان بيلوخين كعادته مرحا:

— لقد تأخرنا خمس دقائق كما تعلم. وذلك بسبب الأسطول. فنحن بحاجة الى مركب للذهاب الى العمل ولكن ميتيا كان يمرر التجار...

ويسأله المناوب بفضول:

— أي تجار؟

— كما قلت لك! لقد جاءوا ليستأجروا البستان.

— وماذا كان؟

— لم ادعهم يتخطون الشاطئ قائلا: ماذا تريدون؟ أتريدون أن تقضموا تفاحنا ونحن ننظر اليكم؟ دوروا مركبكم أيها المواطنون وعودوا من حيث جئتم!.. مرحبا يا أنطون سيميونوفيتش كيف يسير العمل؟

ـ مرحبا يا ماتفى.

ـ قل لى بصراحة: هل سيخلع روديمتشيك عما قريب من هناك؟ فكما هو معلوم لديك يا أنطون سيميونوفيتش انه قليل الحياء. ان هذا المخلوق يجعل المرء يمرض من رؤيته يتسكع فى الاصلاحية. وما من أحد يرغب العمل معه ومع ذلك يجب عليه أن يوقع التقارير. ما هذا؟

كان الاولاد جميعهم متقززة نفوسهم ومشمئزة من روديمتشيك هذا.

وقد كانت الاصلاحية الثانية آنئذ قد حل فيها عشرون ولدا تقريبا يغمرهم العمل الى ما فوق الرأس. ولم يكن شيرى يستعمل الكتائب المختلطة المرسلة من الاصلاحية الأولى الا فى الحقول. أما الاصطبل وزريبة الأبقار والخنازير التى كانت تكبر دائما فقد كانت يخدمها الأولاد الذين يعيشون هناك. هذا وقد استنفد اصلاح البستان كثيرا من اليد العاملة. وكانت مساحة هذا البستان أربعة هكتارات، وكان يحتوى على كمية من الغراس

الفتية الطيبة. وكان شيرى قد قام فيه بأعمال جليلة. فقد قلبت الأرض بكاملها. وشذبت الأشجار ونظفت من الأوساخ . ونظفت المساحة التى كانت أشجار عنب الثعلب تشغلها. وخططت الممرات والدروب. ورسمت الساحات المزروعة بالزهور وفى هذا الربيع أعطت أقفاصنا لانضاج الثمار أول غلالها. وكنا نشتغل كثيرا على ضفاف النهر فنحفر السواقى ونجتث القصب.

كان اصلاح الممتلكات على وشك نهايته. فالاصطبل نفسه المبنى بالبيتون المفرغ ما عاد يبدو مثيرا بسقفه المبعوج: فقد غطى بالورق المقوى المزفت. وفى الداخل أنجز النجارون اصلاح أقسام الخنازير. وحسب حسابات شيرى كان ينبغى لهذا المكان أن يتسع كنفه لمئة وخمسين خنزيرا.

كان الأولاد يجدون بهجة ضئيلة فى العيش فى الاصلاحية الثانية لا سيما فى الشتاء، فقد كنا تعودنا على المساكن القديمة وكان كل شئ قد استوى فيها حتى اننا ما كنا نلاحظ تقريبا هذه المكعبات

الحجرية الكئيبة ولا انعدام الجمال والسحر منها بشكل كامل. وكان التناسق الرياضى والنظافة والترتيب الدقيق لأصغر الأشياء يحل محل الجمال.

وعلى الرغم من فتنة موقعها الفياضة فى منعطف كولوماك وعلى ضفافه المنحدرة، وعلى الرغم كذلك من البستان وأبنيتها الجميلة الواسعة فان الاصلاحية الثانية كانت لا تزال بشكل نصفى تتخبط بخرائبها وأنقاضها وحفر الكلس والأعشاب الضارة كانت تعيث فيها فسادا بشكل قوى حتى اننى كنت أتساءل فى بعض الأحيان هل سوف نتوصل الى التخلص منها.

وكان كل شيء فيها لا يزال غير معد للحياة: فقد كانت المهاجع صالحة ولكن لم يكن هناك مطعم ولا مطبخ بالمعنى الصحيح. فقد أقيم واحد كيفما كان ولكن القبو لم يكن جاهزا. كان أخطر شئ هو الجهاز الادارى. ولم يكن فى الاصلاحية الثانية أناس قادرون على المبادرة.

كل هذه الظروف جعلت الأولاد الذين كانوا قد

أنجزوا عملا كبيرا بهمة وشغف لاصلاح الاصلاحية الثانية، كانوا لا يريدون أن يعيشوا فيها. وقد كان براتشنكو على استعداد لأن يقطع يوميا أكثر من عشرين كيلومترا من الاصلاحية الى الأخرى. وكان يقبل أن لا يأكل ويسد رمقه، وأن يحرم نفسه من النوم بيد أنه يجد معيبا شائنا أن ينتقل اليها. حتى أوسادتشى كان يقول:

ـ أفضل أن أترك الاصلاحية على الذهاب الى ممتلكات تريبكى.

وفي ذلك الحين كانت جميع أفراد الاصلاحية الأولى قد كونوا جماعة متحدة اتحادا جيدا بحيث أنه قد كان من العسير جدا فصل أى واحد عنها. وقد كان ارسال بعض هؤلاء الأولاد الى الاصلاحية الثانية مجازفة بحياة هذه الاصلاحية وبالاولاد انفسهم وبسماتهم الخاصة. لقد كانوا يفهمون ذلك أحسن الفهم. فكان كارابانوف يقول:

ـ نحن هنا كالجياد الطيبة. فولد كبورون مثلا، ليس لنا الا أن نكدنه ليجر عربة كما يجب: وبطقطقة

من اللسان فانه يطلق ساقيه للريح ويجر العربة بوداعة، في حين أننا لو تركناه وشأنه، فانه سيؤدى بنفسه مع العربة في منحدر سحيق.

ونتيجة لذلك بدأت تتشكل في الاصلاحية الثانية جماعة تختلف كل الاختلاف بشكلها وقيمتها. فدخل فيها أولاد لم يكونوا كثيرى التفوق والنشاط وكذلك ليسوا عسيرى الخلق: فكانت بعيدة عن النضوج الجماعي وهذا نتيجة لاصطفائهم حسب اعتبارات من النسق التربوى.

كانت الشخصيات البارزة التي تلتقي بعرض الصدفة هناك تنبثق من جمهور الصغار أوكانت تبرز بشكل مفاجئ من بين الأولاد الجدد ولكنه في هذا الوقت لم تكن هذه الشخصيات قد توصلت الى البروز فتضيع في غمرة الجمهرة السادرة في ممتلكات تريبكى.

ولكن أولاد اصلاحية تريبكى كانوا يبدون في مجموعهم فوق الحد حتى انهم كانوا يوحون إليّ وإلى المربين و إلى أولاد الاصلاحية، بتثبيط للهمة متزايد، فهم: خاملون

قذرون ميالون حتى الى هذا الاثم الأليم الذى هو التسول. كانوا ينظرون على الدوام نظرة الحسد الى الاصلا حية الأولى ويعقدون فيما بينهم اجتماعات سرية دائمة حيث يتكلمون فيها عما يقدم من أطعمة للغداء والعشاء فى الاصلاحية الأولى، وعن المؤن التى نقلت الى أقبيتها وعن الأسباب التى لم تأت من أجلها هذه الأشياء اليهم. ولما كانوا عاجزين عن الاحتجاج الشديد المباشر، كانوا يتهامسون فى الزوايا ويرهقون الممثلين الرسميين بطلباتهم المضجرة.

وفان أولادنا قد بدأوا يتخذون وضعا فيه شيء من الاحتقار تجاه أولاد إصلاحية تريبكى. فكان يحدث لزادوروف أو فولوخوف أن يجلبا من الاصلاحية الثانية بعض المتذمرين، فكانا يدفعانه الى المطبخ طالبين:

ـــ أطعموا ـــ أرجوكم ـــ هذا المسكين الذى يموت جوعا.

وقد كان هذا المسكين الذى «يموت جوعا» يرفض بطبيعة الحال ما كان يقدم اليه وذلك بسبب حب للذات زائف. وفى الواقع كان أولاد الاصلاحية الثانية أفضل

تغذية من غيرهم. فقد كانت بساتينهم أقرب وكان فى الامكان القيام ببعض المشتريات من الطاحون، زد على ذلك أنه كانت لديهم الأبقار. وكان جلب الحليب الى اصلاحيتنا أمرا شاقا وعسيرا: بسبب البعد وعدم وجود الخيل.

كانت الجماعة التى تشكلت فى الاصلاحية الثانية كسولة ومتذمرة. واليك سبب هذا، لقد كان هذا الخطأ يعود الى عدة عوامل من الظروف، وقبل كل شئ يعود الى عدم وجود نواة والى عجز المربين.

وما كانوا المربون يودون أن يأتوا الينا: كانت الرواتب زهيدة ضئيلة وكان العمل شاقا عسيرا. وقد أرسلت الينا مديرية التعليم العام أخيرا أول من وقع تحت يدها: روديمتشيك ثم ديريوتشنكو. لقد وصلا ومعهما زوجتاهما وأولادهما، وحلا فى أفضل مساكن الاصلاحية. ولم أحتج على ذلك أو أستنكره بل كنت سعيدا بالعثور عليهما.

كان ديريوتشنكو واضحا كخشبة التلغراف: لقد كان رجلا من بيتليورا. و«لم يكن يعرف» اللغة الروسية وقد زين جميع أماكن الاصلاحية بصور رخيصة لشيفتشنكو وانصرف على الفور الى الشئ الوحيد الذى يقدر على القيام به وهو غناء أغان أوكرانية.

كان لا يزال فتيا. وكان كل شيء فى وجهه اولبيا مفتولا يشبه صورة قوزاقى اسطورى: له شاربان لولبيان وشعره كذلك، وله عقدة رقبة على نفس الشاكلة وهى عبارة عن شريط حريرى ملفوف حول ياقة قميصه الأوكرانى المطرز. وكان ينبغى لهذا الرجل أن يقوم بأشغال لا اهمية لها بالنسبة لعظمة الدولة الأوكرانية: كان يأخذ مناوبة النهار فى الاصلاحية فيزورزريبة الخنازير ويسجل مجيء الكتائب المختلطة وفى الايام التى يكون مأمورا فيها بالأعمال، كان يقوم بنصيبه مع الأولاد. كان هذا بالنسبة له عملا لا جدوى منه، وكانت الاصلاحية كلها تبدو له ظاهرة لا طائل منها أبدا وليس لها أى علاقة مع الفكرة العالمية.

وقد كان روديمتشيك نافعا للاصلاحية بقدر ديريوتشنكو، ولكنه كان أكثر اثارة للاشمئزاز والنفور أيضا.

كان هذا الرجل له ثلاثون عاما تقريبا من العمر. وقد سبق له أن اشتغل في مؤسسات مختلفة: في قلم المباحث القضائي، وفي التعاونيات والسكك الحديدية وأخيرا في تربية الأحداث في بيوت الأطفال. كان له وجه غريب يشبه كثيرا كيسا عتيقا للنقود قد بلي وفرغ. وقد كانت ملامح هذا الوجه كلها رثة مغطاة بصدأ محمر: فالأنف أفطس قليلا ومبروم الى جانب، والأذنان مسطحتان على دماغه قد ألصقتا به بثنيات رخوة لا حياة فيها، والفم الملتوى بالعرض كان منذ زمن طويل مفتوقا مخربا بل مشقوقا في كل جهة بسبب الاهمال الطويل.

وحالما وصل روديمتشيك الى الاصلاحية وأقام مع عائلته في مسكن تم اصلاحه، اشتغل أسبوعا ثم اختفى فجأة وتوارى عن الأنظار، وأخبرني ببطاقة

أنه متغيب من أجل عمل هام جدا. وبعد ثلاثة أيام عاد بعربة فلاح قد ربطت بها بقرة. وأمر روديمتشيك الأولاد بأن يضعوها مع أبقارنا. وقد كان شيرى نفسه جزءا من هذا الحادث المفاجىء.

وسارع روديمتشيك بعد يومين التي ليقدم شكوى:

— ما كنت أحسب أبدا أنه فى الامكان أن يعامل الجهاز الادارى بهذا الشكل! لعلهم نسوا — على ما يظهر — أن الزمن الماضى قد ولى الى غير رجعة. فنحن: أنا وأولادى، لنا نفس الحق فى الحليب كسائر الخلق. وما دمت قد أبديت مبادرة دون أن أنتظر أن تسلمنى الادارة حليبا، وما دمت قد أخذت بشخصى — كما تعلم — أمر شراء بقرة من ثمن غلالى الضئيلة، وجلبتها بنفسى الى الاصلاحية، ففى وسعك أن تستخلص أن هذا أمر يستحق التشجيع ولا يستحق بحال من الأحوال الاضطهاد واساءة المعاملة. فبأى شكل عوملت به بقرتى؟ ان الاصلاحية لديها عدة بيادر من التبن، وهى تستلم من المطحنة نخالة وتبنا وفضلات أخرى بثمن بخس.

وعلى هذه الحال: فان جميع البقرات تأكل ما عدا بقرتى فهي جائعة ساغبة، وان الأولاد يردون علي بأجفى لهجة قائلين: نحن لا تنقصنا بقرات... وتنظف أقسام البقرات بينما قد مضت خمسة أيام ولم ينظف قسم بقرتى بحيث انها الآن كلها وسخة. وهذا ما دعا زوجتى لأن تفرش لها الأرض بالقش و تشرف على العناية بها. كانت ستذهب لهذا الغرض ولكن الأولاد لا يعطونها رفشا ولا مذراة ولا قشا كذلك. فاذا أعطينا أهمية كبيرة الى شئ ضئيل الشأن كالقش ففى وسعى أن أتنبأ بأنه لا بد لى من اتخاذ تدابير شديدة لهذا الشأن. ولا بأس اذا انا فى الوقت الحاضر لم أعد عضوا فى الحزب. لقد كنت فيه وقد استحققت أن لا تفرض على بقرتى معاملة كهذه المعاملة.

ونظرت الى هذا الرجل مبهوتا دون أن أستطيع حتى الفهم على الفور ما اذا كانت توجد وسيلة من الوسائل للصراع معه.

-- اسمح لى أيها الرفيق روديمتشيك: ما هذه الحادثة؟

هذه البقرة هي ــ حقا ــ لك، وهي ملكية خاصة. كيف يكون في الامكان خلط الحابل بالنابل؟ ثم انك مرب في نهاية الأمر! ففي أي وضع وضعت نفسك تجاه الأولاد؟

ــ ماذا تقصد؟ ــ واندفع روديمتشيك يهدر. ــ لا أريد أن آخذ شيئا مجانا: سوف أدفع ــ طبعا ــ ثمن العلف وأجرة عمل الصبيان، اذا لم يكن هذا بثمن باهظ. ولكن عندما سرقت قبعة ولدي، وكان السارقون هم أبناء الاصلاحية حتما، لم أقل شيئا ولم أحرك ساكنا!

وبعثته الى شيري.

أما شيري فبعد أن أفاق من صدمة المفاجأة طرد بقرة روديمتشيك من الاصطبل. وتوارت هذه بعد عدة أيام عن الأنظار: وانه لبديهي أن صاحبها قد باعها.

ومر أسبوعان. وطرح فولوخوف هذا السؤال في اجتماع عام:

ــ ما هذا؟ لماذا أخذ روديمتشيك يقلع البطاطا من بستان الاصلاحية؟ كيف يأخذها روديمتشيك ونحن لا يوجد منها شيء في مطبخنا لنأكله؟

وأيد أولاد الاصلاحية فولوخوف، وقال زادوروف:

ــ أن الشيء الهام ليس البطاطا. انه رب عائلة ــ حسنا عليه أن يطلب ما يلزمه ممن له الحق، فالبطاطا ليست شيئا ذا بال. ولكن ما حاجتنا بروديمتشيك هذا؟ انه يقبع طيلة النهار في بيته أو يذهب الى القرية. والأطفال وسخون لا يرونه أبدا وهم يعيشون كالوحوش. وحينما نأتي لنأخذ توقيعه على التقرير لا نجده: فهو اما نائم أو يتغدى أو حتى ليس لديه الوقت :فعلينا أن ننتظره. ما فائدته؟

وقال تارانيتز:

ــ نحن نعرف كيف ينبغي للمربين أن يعملوا. ولكن روديمتشيك؟ فهو يذهب الى العمل مع كتيبة مختلطة، ويبقى هنا منتصبا مع مجرفته نصف ساعة ثم يقول: «حسنا سأذهب فلدى شغل في أحد الأمكنة» ويذهب وبعد ساعتين نراه يخرج من القرية وجعبته ملأى...

ووعدت الأولاد أن أتخذ معه تدابير. واستدعيت روديمتشيك في اليوم التالي، فجاء في المساء وابتدأت معه منفردين بتوجيه اللوم له ولكني ما كدت أبدأ حتى استشاط روديمتشيك غضبا وقاطعني قائلا:

ـ أنا أعرف مسبب هذه الحوادث، وانني لأعلم جيدا من يحيك هذه المؤامرات ضدى. كل هذا جاء من هذا الألماني! ولكن أفضل صنيع لك يا أنطون سيميونوفيتش أن تستعلم عن أمر هذا الرجل. أما أنا فقد قمت بذلك: لم يكن هناك تبن لبقرتي حتى ولا بالشراء. فبعتها، وأولادى ليس لديهم حليب فلا بد لى من أن أجلبه لهم من القرية. والآن اسأل عما يطعمه شيرى لكلبه ميلورد؟ بم يغذيه؟ انه يأخذ الذرة البيضاء المخصصة للدواجن ويجعل منها عجينة لميلورد. أجل من الذرة البيضاء! انه يطبخها بعدئذ بنفسه ويقدمها لكلبه دون أن يدفع شيئا. والكلب يأكل ذرة الأولاد مجانا وفي الخفية لا لشئ الا لأنه خبير زراعى ويتمتع بثقتك.

وسألت روديمتشيك قائلا:

ـ ومن أين تعرف كل هذا؟

ـ أوه! أنا لست ممن يطلقون كلاما فى الهواء. فأنا لست من أولئك الناس، خذ انظر..

وفتح صرة صغيرة أخرجها من جيبه الداخلى. وظهر شيء أبيض ومسود فى الحين ذاته، شيء من الخليط الغريب.

فقلت له دهشا:

ـ ما هذا؟

ـ اليك! ان هذا سيبرهن لك على كل شيء: هذا شيء من براز ميلورد. ومن هذا البراز سوف تعرف كل شيء؟ لقد ترصدته حتى حصلت على هذا. أرأيت ماذا يأكل ميلورد؟ الذرة البيضاء تماما. وبعد ذلك هل يشتريها؟ حتما لا! وانما يأخذها من مستودع الأطعمة.

فقلت لروديمتشيك:

ـ اليك يا رود يمتشيك! ان خير شيء تصنعه أن تغادر الاصلاحية.

— كيف «أغادرها»؟

— ارحل من هنا بأسرع ما يمكن. فأنا سأكف يدك عن العمل بشكل رسمى فى هذا اليوم بالذات. فاكتب بأنك تطلب هذا بملء رغبتك ورضاك. فهذا سيكون أفضل لك.

— لا اترك هذه الامور تمر هكذا.

— حسنا. لا تتركها ولكنى اكف يدك عن العمل.

وخرج روديمتشيلك و«ترك الأمور تمر هكذا» ورحل بعد ثلاثة أيام.

ولكن ما العمل مع الاصلاحية الثانية؟ لقد كان أولاد هذه الاصلاحية سيئين. وهذا ما لم يكن من الممكن التغاضى عنه طويلا. فقد كانت تحدث بينهم المشاجرات وكانوا على الدوام يسرقون بعضهم بعضا وانها لدلالة تكشف عن جماعة حقيرة.

«أين سنجد أناسا لهذا العمل المضنى؟»

أناساً جديرين بهذا الاسم؟ يا ويلتاه! لكم طلبنا!

٢٧. الظفر بالشبيبة الشيوعية

في عام ١٩٢٣ وصلت وحدات اولاد اصلاحية غوركي بنظام جيد الى الاحتكاك بحصن جديد كان لا بد من اقتحامه مهما بدا ذلك غريبا: وهو الكومسومول ـ الشبيبة الشيوعية.

لم تكن الاصلاحية في يوم من الأيام منظمة مغلقة موصدة. فمنذ عام ١٩٢١ كانت أواصر صلاتنا «بالمحيط المجاور» متعددة متنوعة. وبتأثير عوامل اجتماعية وتاريخية كان لنا في جيراننا الأقربين أعداء لم نكن نناضل ضدهم بكل ما أوتينا من قوة فحسب، بل كنا أيضا على صلة تجارية معهم أيضا ولا سيما بسبب معاملنا. وكانت هذه العلاقات التجارية تمتد بعيدا الى ما وراء طوق اعدائنا لأننا كنا نقدم خدمات جلى الى الفلاحين وننقل خدمات صناعتنا الى مناطق بعيدة مثل ستوروجيفوى وماتشوخي وبريغاديروفكا. أما القرى الكبيرة الأقرب منا مثل: غونتشاروفكا وبيروغوفكا وآندروشيفكا وزابيرالوفكا

فكانت تحت تأثيرنا منذ عام ١٩٢٣ ليس فقط من الناحية الاقتصادية بل حتى ببعثاتنا الاستكشافية التى تنشد أغراضا من نوع جمالى مثل البحث عن الجمالات الفتية المحلية أو تبيان قدرها فى مضمار زينة الرأس أو تقاطيع الوجه أو الهيئة أو الابتسامات، حتى هذه التسربات الأولى لأولادنا فى بحر القرية كانت نتيجتها توسيع علاقاتنا الاجتماعية. وفى هذه القرى تعرف أولادنا لأول مرة بالشبيبة الشيوعية.

كانت قوى الشبيبة الشيوعية هناك ضعيفة جدا كماً وكيفاً. كان شباب الشبيبة الشيوعية القرويون انفسهم يهتمون بالفتيات والساموغون أكثر من أى شىء آخر، ويحدثون فى كثير من الأحيان تأثيرا غير صالح فى نفوس أولادنا. لقد اكتشفنا النزعات النضالية فى صفوف الشبيبة الشيوعية وعقدنا صلة الصداقة مع شباب تعاونية لينين الزراعية المجاورة للاصلاحية الثانية على الضفة اليمنى لنهر كولوماك اذ كانت هذه التعاونية تجد نفسها بصورة اجبارية فى عداء سافر مع سوفييتنا الريفى

وكل جماعة المزارع. وقد كان الأولاد يعرفون حتى أدق تفاصيل جميع شؤون التعاونية الجديدة وجميع الصعاب التى رافقت ظهوره. وقبل كل شئ أوقعت التعاونية ضربة قوية فى أراضى الكولاك الشاسعة ولقيت من جانبهم مقاومة موحدة عنيفة ضارية. ولم يكن لها النصر سهلا يسيرا.

كان أهالى المزارع يكونون آنذاك قوة عظيمة، فقد كانت لهم «أيديهم» فى المدينة وكان كنههم الكولاكى لا يزال سرا مجهولا لبعض أهالى المدن من ذوى الشأن الرفيع، ولا يعرف سبب لذلك. وكانت مكاتب المدينة ميدانا لمعركة أساسية لهذا النضال الذى كان السلاح الرئيسى فيه القلم؛ ولهذا لم يكن فى وسع أولاد الاصلاحية أن يشتركوا اشتراكا مباشرا فيه. ولكن حينما أصبحت مسألة الأرض قد سويت تسوية نهائية، وابتدأت عمليات تقدير العتاد الزراعى المعقدة تعقيدا عاليا، قدمت الى أولادنا وأولاد التعاونية كمية من العمل الممتع الذى عزز صداقتهم أكثر.

ومع ذلك فان أفراد الشبيبة الشيوعية ما كانوا يلعبون

دورا رئيسيا فى التعاونية ايضا، وأنهم كانوا هم أنفسهم أضعف من أولادنا القدماء. وقد كان أولادنا القدماء يجنون ربحا كثيرا من أعمالنا المدرسية التى كانت تعمق تعميقا محسوسا معارفهم السياسية. فالأولاد الذين كانوا واعين ومعتزين بأنهم بروليتاريا كادحون، كانوا يدركون ادراكا كاملا الفرق بين وضعهم ووضع الشبيبة الريفية. وما كان عمل زراعى شديد وفى بعض الأحيان شاق مضن ليعوق تكوين قناعة راسخة لديهم بأن نشاطا آخر قد احتفظ لهم به.

وقد كان الكبار قادرين على التعبير بشكل أكثر تفصيلا عما يتوقعون من مستقبلهم ومطامحهم. لمساعدتهم على تحديد هذه المطامح والميول ما كان فى مستطاع القوى الفتية للشبيبة الشيوعية فى القرية أن تقوم بذلك، بل كان لا بد من قوى المدينة التى تلعب الدور الأول.

وغير بعيد عن المحطة كانت توجد معامل السكك الحديدية الكبيرة. وقد كانت تمثل للأولاد بدرجة

رفيعة، مجموعة ثمينة من الناس والأشياء عزيزة عليهم. وكان لمعامل السكك الحديدية ماض ثورى مجيد وجهاز قوى من الحزب. وكان الأولاد يحلمون بها كأنها قصر عجيب من قصور قصص الجن الخرافية، ولم يكن هذا القصر مدينا برونقه وبهائه الى الأعمدة الوضيئة «للطائر الأزرق» (١٩) ولكن الى شئ أروع: وهو أسراب الروافع الجبارة والمطارق البخارية المليئة بالقوة والبأس و الآلات — الادوات الدقيقة المجهزة بجهاز دماغى معقد تعقيدا رفيعا. وكان الناس أرباب هذا القصر أنبل الأمراء وأشرفهم قدرا بثيابهم الرائعة المتلألئة بشحوم القاطرات يفوح منها عبق الفولاذ والحديد. وقد كان لأيديهم الحق فى مس هذه السطوح المقدسة: من مسطحات وأسطوانات ومخاريط وجميع نفائس القصر. وكان هؤلاء الناس من نوع خاص. فلم يكن لهم لحى حمراء ممشوطة بأناقة وعناية. ولم تكن لهم هيئات بدينة كأرباب المزارع. كانت وجوههم يطفح منها الذكاء والدقة ويشع منها العلم والسلطان والسيطرة

التى يمارسونها على الآلات والقاطرات، وتفيض منها معرفتهم لأكثر القوانين تعقيدا التى تخضع لها وتسير حسبها السواند والمقابض والروافع. وبين هؤلاء الناس شبان عديدون من الشبيبة الشيوعية كانوا يؤثرون فينا بفتوة هيئتهم: كنا نرى هنا العناد والدأب ونسمع فيه الحديث الحازم ببأس العامل.

أجل، كانت معامل السكك الحديدية ذروة مطامح كثير من أولاد اصلاحيتنا فى تلك الفترة من عام ١٩٢٢. وكانوا قد سمعوا من يتحدث أيضا عن الأعمال الانسانية الأكثر روعة: مصانع خاركوف ولينينغراد، كل هذه الاسماء الأسطورية، مثل مصنع بوتيلوف او مصنع سورموفو، او مجموعة المصانع الكهربائية فى اوكرانيا ولكن هل هذا العالم فقير بالعجائب! ان حلم ولد بسيط من الاصلاحية فى الريف ما كان ليستطيع أن يطمح الى كل شئ. ومع هذا فقد أخذنا نعقد صلات معرفة أكثر بعمال السكك الحديدية وكانت لدينا امكانية رؤيتهم

بأم أعيننا والشعور بمباهجهم بكل جوارحنا حتى لمسها أيضا.

وقد كانوا هم الذين قدموا الينا أولا وبالضبط شبان الشبيبة الشيوعية منهم. وذات يوم من أيام الأحد سارع كارابانوف الى مكتبي وهو يضحك:

– افراد الشبيبة الشيوعية فى السكك الحديدية هم هناك. أوليس شيئا بهيجا!

كانوا قد سمعوا الكثير من الأنباء الطيبة عن الاصلاحية فجاءوا ليتعرفوا علينا. وكان عددهم سبعة شبان. وأحاط بهم الأولاد والتصقوا بهم واحتكوا بجوانبهم وبطونهم، وهذا بالمعنى الصحيح أنهم فى هذا الاتصال الوثيق الذى أمضوه طيلة النهار باطلاعهم على الاصلاحية الثانية والخيل والآلات والخنازير وشيرى وأقفاص الانضاج، قد احسوا احساسا عميقا بضعف شأن ثرواتنا بالمقارنة الى معامل السكك الحديدية. وقد تأثروا تأثرا بالغا من أن شبان الشبيبة الشيوعية

لا يتبخترون أمامهم فحسب ولا يبدون تفوقهم، بل قد أظهروا حتى حماسة وظلا من الشفقة.

وقبل أن يعود شبان الشبيبة الشيوعية الى المدينة مروا على مكتبى ليتحدثوا بعض الوقت. فقد كان يهمهم أن يعرفوا لماذا لم تكن لدينا منظمة للشبيبة الشيوعية. فعرضت عليهم عرضا وجيزا القصة المؤلمة لهذه المسألة.

فمنذ عام ١٩٢٢ كنا قد جهدنا من اجل تشكيل خلية للشبيبة الشيوعية فى الاصلاحية، ولكن المنظمات المحلية للشبيبة الشيوعية كانت تعارضها معارضة حازمة: كيف يمكن لاصلاحية للأحداث الجانحين أن تكون لديها منظمة للشبيبة الشيوعية؟ وقد ذهبت مساعينا أدراج الرياح فى الرجاء والمجادلة والعربدة، فكانوا يبدون دائما نفس الحجة: نحن لدينا أحداث جانحون. وحالما يتخرجون من الاصلاحية ويصبح من المؤكد أنهم قد صلح سلوكهم، عند ذلك يكون من الممكن الحديث عن منظمة للشبيبة الشيوعية لبعض هؤلاء الشبان.

وقد عطف عمال السكة الحديدية على وضعنا ووعدونا بالمساعدة لدى منظمة المدينة للشبيبة الشيوعية. وفعلا قد عاد أحدهم في يوم الأحد التالى ليحمل لنا أنباء غير مرضية. كان يقال فى لجنتى المدينة والمقاطعة: «هذا صحيح: كيف يكون من الممكن وجود شبان شيوعيين فى اصلاحية فيها كثير من أنصار ماخنو القدماء وعناصر اجرامية وبصورة عامة أناس مشبوهون؟»

وشرحت له أنه لدينا عدد قليل جدا من أنصار ماخنو وأن هذا العدد القليل قد وجد بعرض الصدفة فى هذه العصابات. وشرحت له أخيرا أنه يجب ألا يعطى لعبارة «اصلاح السلوك» معنى شكلى كما كان يعطى لها فى المدينة. فبالنسبة لنا قلما كان لنا شأن فى «اصلاح السلوك» وانما كان علينا أن نعيد التربية لمعنى السمو بها بحيث ليس فقط لا يكون خطرا أو لا يكون ضررا على المجتمع فحسب بل ينبغى له أن يصبح مواطنا فعالا فى العصر الجديد. ولكن: من سوف يصنعه؟ ما دام اذا أراد أحد الدخول فى منظمة الشبيبة الشيوعية، فانه

لا يقبل فيها، ثم يذكر له كل واحد جرائم قديمة تعود الى الطفولة قبل كل شئ. وكان عامل السكة الحديدية موافقا وغير موافق! كانت المسألة العويصة جدا بالنسبة له مسألة الحد: متى كان قبول ولد من الاصلاحية ممكنا ومتى كان غير ممكن، ومن ينبغى له أن يحل هذه المسألة؟

— كيف «من ينبغى له أن يحل المسألة؟» انها حتما منظمة الشبيبة الشيوعية فى الاصلاحية.

وظل شبان معامل السكك الحديدية يزورونا فى غالب الاحيان، بيد أننى أخذت أقيم اعتبارا بان الاهتمام الذى كانوا يبدونه لنا لم يكن من أسلم الاهتمامات وأصحها. لقد كانوا يعتبروننا أرباب خطايا وجرائم. وكانوا يودون برغبة شديدة أن يطلعوا على ماضى الأولاد ويتفحصونه؛ فكانوا على استعداد للاعتراف بنجاحاتنا ولكن مع هذا الاحتراس بأننا مع ذلك مجموعة فتيان غير أسوياء. وقد لقيت عناء كبيرا فى كسب عدد منهم الى جانب قضيتنا.

وقد ظلت المواقف التى اتخذت من قبلنا حول هذه المسألة منذ اليوم الأول لوجود الاصلاحية لم يطرأ عليها تبديل. كنت أقدر أن اعادة تربية أحداث جانحين ينبغي لها قبل كل شئ أن تتخذ الجهل الكامل للماضى أساسا لها. ولا سيما الجهل للجرائم الماضية. ولكن تطبيق هذا المبدأ تطبيقا حازما لم أتوصل اليه الا بصعوبة بالغة وكان عليّ ان اتغلب على طبيعتى، انا، فى جملة ما اتغلب عليه. كنت على الدوام مولعا بان اعرف لماذا ارسل الينا الولد، وماذا صنع. زد على ذلك أن المنطق المألوف لتربيتنا كان يبذل جهده آنئذ ليقتدى بمنطق الطب وكان يسئ استخدام الأدلة والأقيسة العقلية باتخاذه وضع الفطنة والذكاء، تلك الأقيسة التى تقول: لا بد لمعالجة المرض من معرفته. هذا النوع من المنطق الذى استهوانى حينا من الدهر كان يستميل الى سحره بشكل خاص زملائى وجهاز التعليم العام.

كانت لجنة الأحداث الجانحين ترسل الينا «اضبارات» الأحداث، مع جميع تفاصيل استجوابهم،

وشواهدها وغيرها من الأشياء المختلفة التى تعتبر مساعدة لنا فى دراسة المرض.

وكنت قد نجحت فى الاصلاحية بكسب جميع المربين بالوقوف الى جانب رأيى، ومنذ ١٩٢٢ رجوت اللجنة بأن لا تعود الى ارسال أى اضبارة. وكففنا بأخلص شكل عن الاهتمام بأخطاء الأولاد الماضية وكانت النتيجة طيبة جدا حتى ان الأولاد أنفسهم كانوا ينسونها بسرعة. كنت أبتهج كثيرا اذ أرى كل اهتمام بالماضى يمحى وتزول من حياتنا انعكاسات الأيام المليئة بالقذارة والألم والمقت بالنسبة لنا. وبهذا الشكل بلغنا المثل الأعلى: حتى أولاد الاصلاحية الجدد كانوا يتضايقون من سرد مآثر أعمالهم الماضية فلم يعد لهذا الأمر ذكر.

وفجأة، فى مناسبة جميلة مثل احداث منظمة الشبيبة الشيوعية فى الاصلاحية اضطررنا للعودة الى ذكر ماضينا وأخذنا نستعمل عبارات مقيتة مثل: «اصلاح السلوك» و«الجريمة» و«الاضبارة».

وبسبب المقاومة التى لقيناها، اتخذ طموح الأولاد

الى الشبيبة الشيوعية طابعا ذا ثبات نضالى: فقد استعدوا للقيام بمعركة حقيقية، وكان الأولاد الميالون الى المصالحة أمثال تارانيتز، يقترحون سلوك سبيل ملتو وذلك بتسليم الذين يودون دخول منظمة الشبيبة الشيوعية شهادة تثبت أنهم قد «صلح سلوكهم» وبالاحتفاظ بهم فى الاصلاحية فى الوقت نفسه على أن الغالبية قد احتجت على هذه الحيلة واستنكرتها، واستشاط زادوروف غضبا وقال:

— لن نعمد الى هذا! لسنا فى معرض المساومة والاسترضاء مع الغراك فلا ينبغى لنا ان نخدع احدا. يجب علينا أن نحظى بوجود شبان ينتمون الى الشبيبة الشيوعية فى الاصلاحية، وعلى المنظمة نفسها أن تعرف من هو أهل أو غير أهل لذلك.

كان الأولاد يمضون كثيرا الى منظمات الشبيبة الشيوعية فى المدينة حيث كانوا يدافعون عن قضيتهم ولكن دون أن يصلوا الى نجاح بذلك بشكل عام.

وفى شتاء عام ١٩٢٣ ساقتنا الصدفة إلى أن نعقد صلات صداقة مع منظمة أخرى للشبيبة الشيوعية.

كنا عائدين عند حلول المساء أنا وأنطون الى الاصلاحية وكانت الفرس «مارى» بحلتها البراقة ــ وقد تغذت تغذية جيدة ــ تجر العربة الزلاقة الخفيفة. وعند نزولنا من التلة وجدنا أنفسنا أمام حادثة غير متوقعة فى منطقتنا : كان هناك جمل. ولم يكن فى مقدور الفرس «مارى» أن تتغلب على اندفاعة طبيعية منها، فاضطربت وشبت وأخذت تخبط فى جرارات العربة وتجمح. وتشبث أنطون بمقدمة العربة دون أن يستطيع الامساك بالفرس. وكان هناك نقص خطير فى عربتنا كان أنطون يشير اليه فى الحقيقة منذ زمن طويل وهو جرارتا العربة القصيرتان جدا، هذا النقص هوالذى حدد تتابع الأحداث وقام بعملية تقاربنا مع منظمة الشبيبة الشيوعية الجديدة. كان حافرا الفرس «مارى» الخلفيان اللذان ينطلقان بضربات مذعورة، يقرعان حديد مقدمة العربة مما كان يزيد فى جنون جماحها. فكانت تجرنا بسرعة مريعة نحو الكارثة التى لا مفر منها. وكنا كلانا نجر عنانها فلا نزيد الأمور الا سوءا وتأزما : فكانت «مارى» المقنعة

ترغمنا بحنق أكثر على العدو. كنت أرى المكان الذى يجب أن ينتهى عنده كل شئ بشكل أليم كيفما كان: فعند منعطف الطريق كانت زلاقات الفلاحين القادمين لسقاية حيواناتهم، تتجمع حول مقر توزيع الماء. وكان يبدو أن لا أمل بالسلامة فالطريق مقطوع. وبأعجوبة مرقت «مارى» من بين عين السقاية ومجموعة الزلاقات. وسمعنا صوت خشب ينكسر وصراخا يرتفع، ولكننا كنا قد أصبحنا بعيدين. وانتهى المنحدر. كنا نطير آنذاك بعدو أهدأ على طريق سوى مستقيم، وكانت لأنطون فرصة نظر فيها الى ما حوله وأدار رأسه:

ـ لقد خربنا احدى عرباتهم؛ يجب ان نفر!

وهم أن يرفع سوطه فوق «مارى» التى كانت ما تزال تعدو. ولكننى أمسكت ذراعه القوية:

ـ لن تنهال عليها! انظر الى هذا الجواد اللعين الذى لهما.

وفعلا كان وراء ظهرنا جواد يعدو بقفزات هادئة واسعة بقوائمه القوية، فكان يلتهم الطريق بعدوه ووراء

كفله رجل تلمع على ياقته شارة حمراء، ويصوب نظره الى الآبقين المشئومين. ووقفنا ووقف الرجل ذو الشارة الحمراء فى الزلاقة مستندا على كتفى السائق لأنه لم يكن له مكان يجلس عليه. فالمقاعد الخلفية وساندة العربة لم تعد غير أخشاب مخلخلة على الطريق تجر قطع مهشمة مفككة.

وقال الرجل العسكرى بلهجة قاضبة:

ـ هيا اتبعانا.

وانطلقنا. كان أنطون يبتسم بشرا: فقد كان يتلذذ جدا بما أحدثناه بلبطتنا المضطربة فى العربة الأخرى. وبعد عشر دقائق وجدنا أنفسنا فى مكاتب «دائرة الامن الداخلى» وحينذاك ارتسم على وجه أنطون استغراب مرير:

ـ أوه! كان ينبغى لنا أن نقع على الـ «غى بى او».

وأحاط بنا رجال بشارة حمراء و قال لى أحدهم صائحا:

ـ كان لا بد لهذا من أن يحدث ما دمت وضعت ولدا يسوق... كيف كان فى وسعه أن يمسك الفرس؟ يجب عليك أن تجيب على ذلك.

وامتعض أنطون من الاهانة، وكاد يبكى وهو يقول هازا برأسه صوب موجه الاهانة له:

ـ تقول عنى: ولد! كان عليك أن لا تترك الجمال تفلت لتسعى فى الشوارع، بل كان منك النقيض: فقد سمحتم لكل هذه الأوباش أن تندس بين أرجل الناس... كأنما كان فى وسع الفرس أن ترى ذلك! أهذا صحيح أم لا؟

ـ أى أوباش؟

ـ الجمال! ألم ترها؟!

ومضى الرجال ذوو الشارات الحمراء وهم يضحكون:

ـ من أين خرجتما؟

ـ من اصلاحية غوركى.

ـ آه! انكما من هناك! ومن أنت؟ المدير؟ وقال وهو يضحك: لقد وقعنا اليوم على قنيصتين طيبتين،

وأخذ يدعو أفرادا آخرين ليريهم ايانا ضيوفا كراما.

والتفت حولنا دائرة عديدة منهم. وكانوا يمزحون ويسخرون من سائق عربتهم ويتكلمون مع أنطون وهم يستفهمون عن الاصلاحية:

ـ كنا نود منذ زمن بعيد أن نزور الاصلاحية. فعلى ما يقال انكم أولاد محاربون هناك. حسنا سوف نراكم يوم الأحد.

وجاء الوكيل الذى أخذ يقوم بهيئة حانقة بعمل محضر ضبط. وصرخ به بعدئذ:

ـ أولم تنته من ترهاتك البروقراطية! ماذا تجدى كتاباتك؟

ـ كيف «ماذا تجدى» ؟ أولم تر بأى حالة جعلوا عربتنا الزلاقة؟ عليهم أن يصلحها الآن.

ـ انهم سيفعلون ذلك بدون محضر ضبطك. أ لن تصلحوها؟ حدثونا الآن عن أحوالكم فى الاصلاحية هذا أفضل شىء. يبدو أنه ليست لديكم زنزانات!

ـ لم يعد ينقصنا غير هذا السجن! ـ وسألهم أنطون: وهل توجد لديكم واحدة منها؟

وعاد الحضور الى الضحك:

ـ سنذهب اليكم يوم الأحد حتما ونجلب الزلاقة لتصليحها.

وصرخ الوكيل: ـ وبأى شئ سوف أسير قبل يوم الاحد؟ فطمأنته قائلا:

ـ لدينا غيرها. ما عليكم الا أن ترسلوا واحدا معنا الآن ليأخذها.

وهكذا اكتسبت الاصلاحية أصدقاء طيبين. وفى يوم الأحد جاءنا الى الاصلاحية شبان من الشبيبة الشيوعية من الامن الداخلى. وتباحثنا مرة أخرى فى هذه المسألة: لماذا لا يستطيع أولاد الاصلاحية أن يصبحوا من الشبيبة الشيوعية؟ وانضم هؤلاء على الاجماع الى جانبنا. وقالوا لى:

ـ ولكن ماذا ينشدون من هناك؟ أين ما يقال عنهم مجرمون. انها لحماقات مشينة من جانب الأشخاص

الرصينين. سنحرك هذه المسألة ان لم يكن هنا ففي خاركوف حينئذ.

وفي ذلك الوقت انتقلت اصلاحيتنا الى الاشراف المباشر لمفوضية الشعب للتعليم العام في أوكرانيا على أنها «مركز نموذجي لاعادة تربية ألاحداث الجانحين». وشرع مفتشوها يزوروننا. ولم يكن هؤلاء أبدا رجالا بسطاء وخفيفي العقول، قد جاءهم الاعتقاد «بالتربية الاجتماعية» كنفحة انفال ربيعية. وقد اهتم ممثلو المفوضية قليلا في حقل التربية الاجتماعية بالنبتات الغضة المليئة بالنسغ، بالارواح وبحقوق الشخصية وغيرها من التعابير الشعرية. كانوا يسعون وراء أشكال جديدة للتنظيم وصورة جديدة لها. وكانت ألطف صفة لهم أنهم ما كانوا يجهدون ليتقمصوا شخصية الدكتور فاوست الذي لا ينقصه سوى لحظة للسعادة. بيد أنهم كانوا يعاملوننا معاملة الرفاق مستعدين لمشاطرتنا بحثنا عن الجديد وللتمتع معنا بكل ذرة من الجديد أتينا على اكتشافها.

وقد كانت الدهشة تتملك رجال خاركوف من خيبتنا فى موضوع الشبيبة الشيوعية:

– هل تعملون هكذا بدون منظمة للشبيبة الشيوعية؟.. ان هذا ليس ممكنا؟.. من استنبط مثل هذا الشئ؟

وقد كانوا فى المساء يتجاذبون أطراف الحديث مع أولادنا القدماء، فيتهامسون ويهزون رؤوسهم بحركات فيها العطف والمودة.

وأخيرا بفضل المساعى التى قامت بها مفوضية التعليم العام وكذلك أصدقاؤنا فى المدينة، لدى اللجنة المركزية للشبيبة الشيوعية فى أوكرانيا، حلت المسألة بسرعة البرق. وفى صيف عام ١٩٢٣ عين تيخون نيستيروفيتش كوفال مشرفا سياسيا فى الاصلاحية.

كان تيخون نيستيروفيتش رجلا ريفيا. ففى خلال أربعة وعشرين عاما كانت حياته قد تزودت بثروة كمية من الأحداث الهامة، لا سيما فيما يخص النضال فى القرية، وكان قد جمع تجربة مكينة فى حقل العمل السياسى، وكان علاوة على ذلك رجلا ذكيا وذا شهامة

هادئة. ومنذ وصوله تكلم مع الأولاد على أنه رفيق ومساو لهم وبدا في الحقول كما في البيادر مزارعا مجربا.

وتأسست في الاصلاحية خلية للشبيبة الشيوعية عدد أعضائها تسعة أولاد.

٢٨. افتتاح مسيرة النصر

شرع ديريوتشنكو يتكلم اللغة الروسية على حين غرة. كان هذا الحادث الخارق ذا صلة بسلسلة الأحداث غير المرضية التي حدثت في بيته الزوجي. وقد ابتدأ هذا بالولادة المقبلة لزوجته، ولا بد لنا في معرض الحديث عنها من القول: انها امرأة لا تقيم اعتبارا على الاطلاق للفكرة القومية الأوكرانية. ومهما يكن ديريوتشنكو مضطربا بالولادة المقبلة للعرق القوزاقي المجيد، فما كان هذا الحادث بحد ذاته يكفي لزعزعته؛ ففي أصفى لهجة أوكرانية كلم براتشنكو طالبا منه جوادين ليذهب سعيا وراء قابلة. ولم يمتنع براتشنكو عن الرضى باصدار عدد

من الأحكام التى كانت تتناول، فى نفس الاستنكار، الولادة القادمة لطفل ديريوتشنكو بقدر ما تناولت احضار قابلة لأنه حسب رأيه «بقابلة أو بدونها هو ذات البضاعة لن يطرأ عليه تبديل أو تغيير». ومع ذلك فقد قدم الجياد الى ديريوتشنكو، غير أنه فى اليوم التالى تبين أنه يلزم أخذ الأم المقبلة الى المدينة. وقد كان أنطون بالغ الحزن والاستياء من ذلك حتى انه فقد بذلك الشعور بالوقائع فقال:

– لن أعطى الجياد!

ولكن أنا وشيرى وكذلك سائر الاصلاحية، قد شجبنا موقفه بشدة وحزم فلم يجد بدا من التخلى عنه. كان ديريوتشنكو يسمع نصح أنطون بصبر ثم وجه اليه هذا الحديث المقنع الذى لم ينس أن يرصعه بلطف التعبير وجماله:

– لما كان هذا الأمر يتطلب حلا عاجلا فمن المستحيل التأجيل أيها الرفيق المحترم براتشنكو!

وكان براتشنكو يعترض عليه بمسلمات رياضية كان يعتبرها قوة مقنعة:

ــ أما أعطيتُ جوادين لجلب قابلة؟ حدث هذا. ثم يلزم جوادان لاعادتها الى المدينة؟ أتظن ان الجياد تهتم جدا بمعرفة كل من سيلد؟

ــ وأخيرا أيها الرفيق...

ــ لا مجال للقول «أخيرا أيها الرفيق!» فكر اذن ماذا سيؤول اليه الأمر اذا أخذ كل واحد يصنع مثل هذا الصنيع!..

ودليلاً على الاحتجاج كدن أنطون أقل الجياد حبا من قبله وأقلها سرعة لتجر العربة فى خدمة المرأة التى ستلد. وأعلن أن عربة الركوب فى حالة عطل، واستعاض عنها بعربة أخرى، وأصعد الى مقعدها سوروكا ليبين بوضوح أن الأمر لم يكن من قبيل خروج للابهة والفخفخة.

ولكنه ما لبث أن انتابه حنق شديد وذلك عندما طالب ديريوتشنكو مرة أخرى بالجياد لاعادة زوجته

التى قد وضعت. على أنه لم يكن أبا سعيدا، فمولوده الأول الذى كان يود أن يطلق عليه الاسم المجيد «تاراس» لم يعش أكثر من أسبوع بعد وضعه ومات دون أن يضيف شيئا من المجد الى تاريخ الجنس القوزاقى.

كان ديريوتشنكو وقد علا وجهه الحزن من هذا الحادث، يتكلم بلهجة خافتة دون أن يكون شئ خاص من الفجيعة يبدو فى ألمه، واستمر باصرار يتكلم باللهجة الأوكرانية. وفى المقابل كان براتشنكو من شدة حنقه لا يجد كلماته بأى لغة وما كان يخرج من فمه سوى قطع من الجمل لا يفهم لها معنى:

ــ لقد مشاها بدون طائل! الحوذى ... ما من شئ يدعو للعجلة... كان من الممكن الانتظار ساعة. انهن جميعهن سيلدن... ودائما بدون فائدة...

وأعاد ديريوتشنكو الى عشه الزوجى زوجته المفجوعة، وانتهت آلام براتشنكو لمدة طويلة. ولم يعد له نصيب فى تلك الحادثة المؤسفة، بيد أنها مع ذلك لم تنته. ان تاراس ديريوتشنكو كان لم يأت الى الدنيا عندما

تدخل في الأمر حادث عرضي ولم يعد مع ذلك غريبا عن الحادثة نفسها. وقد كان هذا الشيء العرضي مؤلما أيضا لديريوتشنكو. وسوف نرى الآن ما هي المسألة.

كان المربون وجميع الهيئة الادارية في الاصلاحية يتناولون طعامهم جاهزا من القدر المشترك. ولكنه بعد أمد محدود سمحت لكالينا ايفانوفيتش أن يسلم بعضهم المنتجات الغذائية كما هي دون أن تطبخ وذلك ارضاء للعادات الخاصة بالحياة العائلية، ورغبة مني في تخفيف عمل المطبخ قليلا. وقد كان ديريوتشنكو من هذا العداد. وكانت لي فرصة حصلت فيها من المدينة على كمية من الزبدة، قليلة كل القلة، تكفي قدرنا المشترك عدة أيام. ولم يكن يخطر في بال أحد بطبيعة الحال أن هذا السمن يمكن أن يدخل في عداد الحصص المسلمة على حدة. ولكن ديريوتشنكو انفعل كثيرا وثار عندما علم أن هذا الغذاء النفيس يعوم منذ ثلاثة أيام خلت، في صحون الأولاد. وسرعان ما بدل وضع البندقية على كتفه. وهذا يعني أنه عاد الى القدر المشترك ولم يعد يريد

أن يسلم حصصا على حدة. وشاء القدر المؤسف أن تكون مؤونة السمن التى يختزنها كالينا ايفانوفيتش قد نفدت تماما فى اللحظة التى عاد فيها الى ما كان عليه. وهذا ما دعا ديريوتشنكو لأن يسارع ليقدم إلي احتجاجا شديدا:

ـ لا يحق لكم أن تسخروا من الناس هكذا! أين السمن؟

ـ السمن؟ لم يعد هناك شيء منه. لقد أكل.

وكتب صاحبنا بيانا آخر أعلن فيه أنه هو وعائلته سيتناولون من اليوم فصاعدا غذاءهم كما فى السابق على حدة. قلت له، تفضل كما تريد! غير أنه بعد يومين جلب كالينا ايفانوفيتش سمنا مرة أخرى ولكنه بكمية قليلة أيضا. وكز ديريوتشنكو أسنانه وتحمل هذه التجربة الجديدة دون أن يعود الى القدر المشترك. غير أنه حدث شيء فى دائرتنا للتعليم العام تدفق فيه السمن ببطء على أجهزة هيئات التعليم العام والأولاد. ولم يعد شيئا نادرا أن يعود كالينا ايفانوفيتش من المدينة وهو واضع وراءه

جرة صغيرة مغطاة بقطعة قماش نظيفة؛ ولم يعد يذهب الى المدينة دائما الا ومعه هذا الوعاء. وغني عن البيان أن الجرة كانت تعود في أغلب الأحيان بدون أي غطاء، فيقول آنذاك كالينا ايفانوفيتش وهو يرميها كيفما كان فوق القش:

— من أجل أناس لا ضمير لهم، يوجد سمن! وفي وسعهم على الأقل أن يعطوا الناس ما ينظرون اليه. ولكن ماذا يعطي هؤلاء الطفيليون؟ انهم لا يعطون لحسة حتى ولا شمة!

ومع ذلك فلم يعد لديريوتشنكو صبر: فعاد ثانية الى القدر المشترك ولكن هذا الرجل لم يكن قادرا على رؤية الحياة في حركتها وفعاليتها، فما كان ليعير اهتماما الى هذا الواقع وهو أن منحنى الدهون الغذائية كان يرتفع بشكل دائم في الاصلاحية. لقد كان من الناحية السياسية قليل التطور فما كان يعرف أن الكمية يجب أن تتحول، في درجة معينة من التطور، الى كيفية. هذهِ الحادثة من الانتقال وقعت بشكل مفاجئ على رأس

أسرته. وأخذنا فجأة نتناول سمنا بغزارة كبيرة حتى انني بعد أسبوعين وجدت أنه من الممكن أن نسلم منه حصصا شخصية. كانت الزوجات والجدات والبنات والحموات وغيرهن من الأشخاص ذوى الأهمية بدرجة ثانوية، يحملن الى بيوتهن من مستودع كالينا ايفانوفيتش، مكعبات صغيرة ذهبية ما عدا ديريوتشنكو فكان يستهلك حصته من الدهن بشكل أنواع غير جميلة كثيرا من طبيخ الأولاد. وجعل الغم وسوء الحظ الملازم له يصبغان وجهه بالشحوب وطلب ثانية وقد استولى عليه الاضطراب، أن يعود لتناول حصصه. كان ألمه عميقا وكان يثير شفقة عامة ولكنه فى غمه وكدره كان يعتصم بموقفه القوزاقى ورجولته ولم يترك قط لغته الأوكرانية العزيزة.

وفى تلك الآونة كان شأن المواد الدهنية الدسمة أخذ يتطابق تطابقا زمنيا مع المحاولة البائسة لتخليد نسل آل ديريوتشنكو.

كان هو وزوجته يجتران بصبر ذكرياتهما الأليمة عن الطفل تاراس حينما شاء القدر أن ينصلح الحال ويحمل

الى ديريوتشنكو فرحة كانا يستحقانها منذ زمن طويل:
اذ أن تسليم حصص «لمدة خمسة عشر يوما الفائتة»
نقل الى جدول أعمال الاصلاحية لتنفيذه، وظهرت
الزبدة بين غيرها من مواد الحصص الشخصية. وجاء
ديريوتشنكو المحظوظ الى كالينا ايفانوفيتش ومعه كيس.
كانت الشمس تسطع وكل المخلوقات الحية تتمتع
بالحياة وتبتهج. ولكن هذه البهجة كانت قصيرة العمر.
فبعد نصف ساعة تقريبا سارع الي ديريوتشنكو مكتئبا
منكسر النفس فلم يعد رأسه القوى ليتحمل ضربات
القدر فالقاطرة قد تركت السكة ودواليبها قد حطمت
العوائق وهو يتكلم اللغة الروسية الصرف:

— لماذا لا أستلم حصة من السمن عن ابنى؟

فسألته متعجبا: أى ابن؟

— عن تاراس! كيف «أى ابن»؟ هذا استبداد
أيها الرفيق المدير. كل فرد من أفراد العائلة يجب أن
يتناول حصة. تفضل وسلمنى حصته.

— ولكن ابنك تاراس ليس فى عالم الدنيا.

ـ هذا ليس من شأنك اذا لم يكن في عالم الدنيا. لقد قدمت إليك شهادة تثبت أن ابنى ولد فى اليوم الثانى من حزيران ومات فى اليوم العاشر منه. فيجب عليك أن تسلم له حصة سمن عن ثمانية أيام...

وكان كالينا ايفانوفيتش قد جاء على الفور خصيصا ليشهد هذه الدعوى فأمسك ديريوتشنكو من مرفقه باحتراس قائلا:

ـ أيها الرفيق ديريوشنكو! أى أبله يطعم سمنا لطفل صغير؟ فكر: هل يستطيع طفل صغير أن يتحمل هذا الغذاء؟

ونظرت اليهما كليهما نظرة متجهمة.

ـ يا كالينا ايفانوفيتش ما بالكم اليوم جميعا!.. انه طفل صغير مات منذ ثلاثة أسابيع...

ـ آه! نعم هل مات؟ فى هذه الحالة اذن ماذا يلزمك؟ ان السمن يفيده الآن بقدر ما يفيد البخور المرحوم. وبما أنه توفى فلنجل ذكراه.

كان ديريوتشنكو حانقا يعربد في الغرفة ويلوح بيده:

ــ لقد ظل فردا من العائلة طيلة ثمانية أيام وله حق، فينبغي أن تسلم حصصه.

وكبت كالينا ايفانوفيتش ابتسامة بعسر وقال له مبينا:

ــ أله حق؟ من الناحية النظرية فقط، أما من الناحية العملية فلا، على الاطلاق. وسواء كان في هذه الدنيا أم لا فهذا سيان الآن.

وطاش ديريوتشنكو واتخذ سلوكه وضعا مضطربا قبيحا. ففقد حتى أدنى مظهر نموذجي له، وجميع الأشكال اللولبية التي كانت تكون العلامات الخاصة به قد تدلت وتهدلت: شارباه وذؤابة شعره وعقدة رقبته. وعلى هذه الحال اندفع صوب مدير التعليم العام وأحدث في نفسه تأثيرا سيئا. فاستدعاني المدير وقال:

ــ جاءني أحد المربين من عندكم ليشتكي الي. ألا تعلم ماذا ينبغي لك أن تصنع؟ عليك أن تطرد أمثال هذه الأشكال. كيف تستطيع أن تحتفظ في الاصلاحية

مرتزقا ثقيلاً من هذا النوع؟ ان الأباطيل الكاذبة التى سردها على حول من يسمى تاراس، والسمن وما لا أدرى!

ـ أنت الذى عينته مع هذا.

ـ مستحيل... اطرده على الفور!

وهكذا كانت النتيجة الطيبة التى أدى اليها رد فعل هذين الأمرين: تاراس والسمن. وسلك ديريوتشنكو وزوجته نفس السبيل الذى سلكه روديمتشيك. وقد ابتهجت بذلك وابتهج الأولاد كذلك وابتهج أيضا الركن الصغير من الأرض الأوكرانية الواقعة فى الناحية المباشرة من مسرح الأحداث التى كنا فى صدد وصفها. ومع ذلك فان القلق قد أحاط بى ونغص فرحى. والسؤال نفسه الذى كان يعترضنى وهو: من اين سيأتى الرجل الحقيقى؟ ـ عاد من جديد فامسك بخناقى، ذلك لان الاصلاحية الثانية لم يعد فيها مرب. ولكن الامر جرى على هذا النحو: فقد كان الحظ يحالف اصلاحية غوركى بعزم، فعثرت بشكل غير متوقع على من كان يلزمنا. فقد لقيته فى الشارع ببساطة. كان واقفا على

الرصيف أمام واجهة مخازن دائرة التعليم العام، وقد أدار لها ظهره ليرى المشاهد الصغيرة فى الشارع الأغبر الملوث بالقش والروث. وكنت أنا وأنطون نخرج أكياس الطحين من المخزن. وبينما كان أنطون يتقهقر وضع رجله فى حفرة وسقط. فسارع الرجل الحقيقى الى مكان الحادث وأنجزنا كلانا وضع الكيس المذكور فى العربة. وشكرت الرجل المجهول وأعرت انتباها الى هيئته الخفيفة ووجهه الذكى الفتى وكذلك الى الاحترام الذى ابتسم به ردا على كلمات شكرى. كان يرتدى فى رأسه قبعة فرو بيضاء وقفت على رأسه وقفة عسكرية ثابتة.

قلت له:

ــ أنت لا ريب رجل عسكرى؟

فابتسم قائلا:

ــ لقد عرفت.

ــ أنت فارس؟

ــ أجل!

ـ في هذه الحالة، ماذا يمكن أن يسترعى اهتمامك من دائرة التعليم العام؟

ـ المدير هو الذى يهمنى. فقد قيل لى انه سيكون هنا عما قريب. فأنا أنتظره.

ـ هل تنشد عملا؟

ـ أجل، فقد وعدت بشيء كأن أكون مدرسا للتربية البدنية.

ـ تحدث معى عن ذلك أولا.

ـ كما تريد.

وتحدثنا، ثم تسلق عربتنا وذهبنا الى الاصلاحية. أطلعت بيوتر ايفانوفيتش على الاصلاحية. وسويت مسألة تعيينه فى المساء نفسه.

وجلب بيوتر ايفانوفيتش الى الاصلاحية مجموعة من الصفات والخصال الطيبة. كان فيه كل ما كان يلزمنا: الشباب والهيئة الوسيمة والجلد والرصانة والنشاط، ولم يكن لديه أى شيء مما لم يكن يلزمنا: فليس لديه أدنى ظل للأوهام التربوية ولا أى وضع مصطنع تجاه

الأولاد ولا أى نزعة لاستغلال وارتزاق عائلية. وعلاوة على هذه الخصال فقد كان لدى بيوتر ايفانوفيتش غيرها تكملها: كان يحب الأشياء العسكرية ويحسن العزف على البيانو ولديه موهبة شعرية بعض الشيء وكان يتمتع أيضا بقوة بدنية عظيمة. وفى اليوم الذى تلا وضع الاصلاحية الثانية تحت أوامره، اتخذت هذه الاصلاحية شكلا آخر. فبين المزاح والأمر والهزء والمثل أخذ بيوتر ايفانوفيتش يجمع الأولاد فى وحدة. وقد وثق بجميع توجيهاتى التربوية والتزمها دون أن يضعها موضع شكه وهكذا أعفانى من الأحاديث والثرثرات التربوية العقيمة.

وسارت الحياة فى كلتا اصلاحيتينا سيرا منتظما وشعرت فى الجهاز الادارى جدا وتلاحما جديدين بالنسبة لى: فقد كان تيخون نيستيرفيتش وشيرى وبيوتر ايفانوفيتش وكذلك رجالنا القدماء من الأيام الأولى، كلهم كانوا يخدمون قضيتنا خدمة حقة.

وبلغ عدد الأولاد فى الاصلاحية آنئذ ثمانين ولدا. كانت ملاكات عامى ١٩٢٠ و ١٩٢١ قد ذابت فى

جماعة موحدة توحيدا قويا لها هيمنة سافرة، وكانت ارادتها تكـّون فى كل خطوة ولكل قادم جديد اساسا صلبا، فكان لا بد لهذا القادم من الخضوع اليها حتما. وما كنت لأجد أى محاولة للمقاومة تبدر تقريبا. كانت الاصلاحية تفرض سلطانها بقوة على القادمين الجدد، وتتحدث حديثا حيا الى نفوسهم بلسان أشكالها الخارجية وبالدقة وبساطة قواعد الحياة وبمجموعة جميلة من التقاليد والعادات التى ما كان أحد حتى أقدم الأولاد ليتذكر دائما أصلها. كانت واجبات كل ولد مصوغة بعبارات حازمة شديدة بيد أنها كانت جميعا مشارا اليها بدقة فى دستورنا (٢٠) ولم يعد يبقى مكان لدينا لأى تظاهرات من عدم النظام والطاعة، وكذلك لتصرفات كيفية. وفى الوقت ذاته كان عمل لا ريب فيه أبدا، يفرض على كل الاصلاحية: وهو انجاز اصلاح الاصلاحية الثانية لنجد أنفسنا أخيرا مجتمعين تحت ظل مكان واحد ونوسع استثمارتنا. كانت هذه المهمة واجبا محتما علينا، وكنا متأكدين من أننا سننجزها حتما، و ما من

أحد كان الريب يساور نفسه فى ذلك. ولهذا ارتضينا جميعا ببساطة بالغة كثيرا من المتاعب وأبينا اللهو والملابس الجميلة والغذاء الوفير فى سبيل تخصيص كل درهم لازم الى زريبة الخنازير والى البذار والى آلة حصادة جديدة. لقد تحملنا جميع هذه التضحيات الصغيرة من أجل اعادة البناء بنفس مستبشرة هادئة وبثقة بهيجة حتى أجزت لنفسى أن ترد بمزاح مجرد عندما طرح أحد الأولاد فى اجتماع عام هذا السؤال: ألم يحن الوقت لتصنع لنا سراويل جديدة؟ فقلت:

ـ عندما ننجز الاصلاحية الثانية ونصبح أغنياء حينذاك سنكتسى من مفرق رأسنا حتى قدمنا: فسوف يكون للأولاد جاكيتات من المخمل وأحزمة من الفضة، وسوف يكون للبنات فساتين حريرية وأحذية لماعة، وسوف تكون لكل كتيبة سيارة، وعلاوة على ذلك ستكون لكل واحد دراجة خاصة به. وسوف تكون الاصلاحية كلها قد غرست بآلاف من الورود. هكذا! ولكن ما

دمنا ننتظر فلا بد لنا أن نشترى بهذه الثلاثمئة روبل بقرة جيدة.

وضحك الأولاد مبتهجين، ولم تعد قطع القماش المخيطة على سراويلهم وقبعاتهم الرمادية المتسخة لتظهر لهم زرية رثة.

وفى هذه الفترة كان لا يزال فى وسع المرء أن يؤاخذ نخبة أولاد الاصلاحية على كثير من الانحرافات عن السبيل السوي للمثل الأعلى والأخلاق الفضلى. ولكن من هو معصوم من أمثال هذه الهفوات فى هذه الدنيا؟ فبالنسبة الى العمل الصعب الذى كنا نقوم به، كانت جماعتنا القائدة تبدى خصال جهاز رائع ذى احكام دقيق جدا. كان استحقاقها الرئيسى — حسب رأيي — أن تنزع بشكل غير محسوس الى أن لا تعود نخبة كى تجتذب اليها جمهرة الاصلاحية كلها.

كانت هذه النخبة تتألف تقريبا من جميع ألادنا القدماء أمثال: كارابانوف وزادوروف وفيرشنيف وبراتشنكو وفولوخوف وفيتكوفسكى وتارانيتز وبورون وغود وأوسادتشى

وناستيا نوتشيفنايا الذين انضم اليهم أسماء جديدة أمثال: أوبريشكو وغيورغيفسكي وفولكوف جورا وفولكوف آليوشا وستوبيتسين وكودلاتي.

كان أوبريشكو قد أخذ كثيرا من الخصال الطيبة من أنطون براتشنكو: الحماسة، والولع بالخيل وقدرة خارقة على العمل. ولم تكن لديه نفس الموهبة الخلاقة كما لم يكن مبرزا نفس التبريز ولكنه بالمقابل كانت لديه خصال لا توجد في غيره: قوة فياضة وحركات ماهرة محكمة منسجمة.

كان غيورغيفسكي في أعين أولاد الاصلاحية مخلوقا غامضا. فمن جهة كان مظهره يوحي لنا بأنه غجري. فقد كان في وجهه الأسمر شيء من الطبيعة الغجرية: عيناه السوداوان طافيتان على رأسه ومرحه المستخف المبهم، ثم ازدراؤه الماكر للملكية الخاصة. ولكنه من جهة أخرى كان من دون أدنى ريب سليل أسرة مثقفة. فقد كان ملما بالقراءة، وكان مهندما جيدا وذا بنية جسمية حضرية، ويتكلم بنبرة أرستقراطية خفيفة ويلثغ

قليلا. وكان أولاد الاصلاحية يؤكدون انه كان ابن حاكم سابق لمقاطعة ايركوتسك. على أن الولد كان يناقض كل امكانية تدل على أنه من مثل هذا الاصل ولم تكن أوراقه تحمل أى أثر لهذا العيب اللعين، غير أنني فى أمثال هذه الحالة كنت دائما أميل الى تصديق أولاد الاصلاحية.

كان قائد كتيبة فى الاصلاحية الثانية وكان يتميز بصفة من أجمل الصفات: فما كان هناك من امرىء يهتم بأتباعه الصغار غير قائد الكتيبة السادسة. كان يحملهم على القراءة ومطالعة الكتب ويساعدهم على اللبس ويرغمهم بنفسه على التغسيل، وكان لا يتوقف عن التأثير فيهم بالاقناع والحجة والالحاح. وفى مجلس القادة كان على الدوام يتجسد فيه حب الصغار والعطف عليهم. وكان فى وسعه أن يمتدح نفسه بنجاحات كثيرة، اذ كان يوكل اليه أمر أوسخ الأولاد وأشقاهم، فكان يجعلهم فى مدة أسبوع أناسا متأنقين ممشوطى الشعر بعناية يمشون مشية دقيقة فى طريق العمل الجاد.

وكان فى الاصلاحية شخصان اسمهما فولكوف.

جورا وآليوشا. وعلى الرغم من أنهما أخوان فلم يكن بينهما صفة واحدة مشتركة. أما جورا فقد ابتدأ بداية سيئة في الاصلاحية: فأبدى كسلا وتقاعسا لا سبيل الى قهرهما كما أظهر طبيعة حادة كريهة وخلقا شرسا كالكلب فكان شريرا وحقودا بشكل لا يثير المرحمة. وما كان يبتسم قط، فيتكلم قليلا حتى قدرت أنه كان ليس من «أتباعنا» وانه سوف يهرب. وقد جرى اصلاحه بدون اى مجهود وبدون أى عمل تربوى. وظهر ذات يوم في مجلس القادة أنه لاجل حفر حفرة قبو لم يبق سوى هذا الانسجام الممكن: غالاتنكو وجورا. فساد الضحك.

— لن يخطر أبدا فى البال جمع كسولين مثلهما.

وساد ضحك شديد حينما اقترح أحدهم بالقيام بتجربة ممتعة: تأليف كتيبة مختلطة منهما ثم رؤية ماذا سينتج عنهما، وكم يحفران من الأرض؟ ومع ذلك فقد اختير جورا للقيادة، وكان غالاتنكو لا يزال أسوأ منه. فاستدعى جورا الى المجلس وقلت له:

ـــ يا فولكوف! اليك المسألة: لقد عينت قائدا لكتيبة مختلطة عليها أن تحفر القبو الجديد وقد أعطيت غالاتنكو. ولكننا نخشى أن لا تحسن الانتصار عليه.

وفكر جورا لحظة ثم غمغم:

ـــ سأصل الى الظفر عليه!

وفى اليوم التالى سارع الولد المناوب يبحث عني وهو مسرور النفس: ـــ تعال معى انه لشئ ممتع ومضحك أن ترى جورا وهو يدرب غالاتنكو! ولكن حذار أن يسمعنا فلا نرى شيئا.

وزحفنا متسترين بالاشجار حتى بلغنا مكان العمل. وعلى قطعة من الأرض وسط ما بقى من بستان قديم كان قد رسم مستطيل القبو المقبل. وفى أحد طرفيه قطاع غالاتنكو وفى الطرف الآخر قطاع جورا. كان وضع القوى والاختلاف الظاهر من العمل المنجز يبرزان للعيان: فجورا قد حفر عدة أمتار مربعة وغالاتنكو حفر قطعة صغيرة. ولكن غالاتنكو لم يجلس: كان يضع ثقل رجله الضخمة على الرفش العنيد، ويقلب التراب

وهو يتلفت كثيرا برأسه الثقيل صوب جورا. فاذا لم ينظر جورا اليه توقف عن العمل ولكنه يحتفظ برجله على الرفش مستعدا للغرز فى التراب لدى أول اشارة تنبيه وقد كان بينا أن فولكوف كان منزعجا من هذه الحيل. فقال لغالاتنكو:

– هل تظن أننى سأقف عند هذا الحد بأن أراقبك وأرجوك؟ فأنا ليس لدى الوقت لأضيعه معك. أرايت؟

فغمغم غالاتنكو قائلا:

– ولماذا تزعج نفسك أنت؟

واقترب منه جورا بدون أن يرد عليه:

– انتهيت من الحديث معك. أفهمت؟ واذا لم تحفر من هنا حتى هناك سوف أرمى بغدائك فى علبة الأوساخ.

– كأنى سوف أدعك تفعل ذلك! وماذا سيقول لك أنطون؟

ـ سيقول ما يشاء، ولكن تأكد أننى سوف أرمى به في القاذورة.

وحدق غالاتنكو فى وجه جورا وأدرك أنه سيعمل ما يقول فغمغم:

ـ سوف أعمل فلماذا تزعجنى؟

وأخذ رفشه يحرك تحريكا أنشط للتراب وشد الولد المناوب على مرفقى. فهمست له:

ـ يجب ان نشير الى هذا فى التقرير.

وفى المساء أتم الولد المناوب قراءة التقرير:

ـ من المناسب لفت الانتباه الى العمل الطيب الذى أنجزته الكتيبة المختلطة الثالثة «ب» تحت قيادة فولكوف رقم واحد.

ولف كارابانوف ذراعه على رأس فولكوف وضحك:

ـ آه! ان هذا الشرف لا يكون لأى قائد كان!

فابتسم جورا مزهوا وألقى غالاتنكو ابتسامة علىٰ من باب المكتب وقال بصوت مبحوح:

ـ آه! لقد اشتغلنا اليوم وقمنا بعمل شديد.

ومنذ ذلك الحين انطلق جورا بسرعة الريح فى طريق الكمال، وبعد شهرين نقله مجلس القادة الى الاصلاحية الثانية بمهمة خاصة ليأخذ بزمام الكتيبة السابعة الكسلى.

أما آليوشا فولكوف فقد أعجب الجميع منذ اليوم الأول. كان دميما وكان وجهه مغطى ببقع مختلفة وجبينه منخفضا كثيرا حتى كان يبدو كأنما الشعر الذى يعلو رأسه لا ينبت الى فوق وانما الى الأمام. ولكن آليوشا كان ذكيا وكان ذكاؤه يطغى على خصاله وهذا ما كان يبرز لعينى كل واحد على الفور. وما كان ليوجد قائد كتيبة مختلطة أفضل منه: كان يعرف بشكل رائع حساب العمل وتنظيم الأولاد وايجاد طرائق ووسائل جديدة للعمل.

وكان كودلاتى ذكيا أيضا كل الذكاء. وهو انسان ذو وجه منغولى عريض. وكان مربوع القامة بخيلا بعض الشئ. وعلى الرغم من أنه لم يكن سوى اجير قبل مجيئه الينا فانه كان يطلق عليه دائما لقب «كوركول» (كولاك

فى أوكرانيا. — المعرب) وفعلا لولا الاصلاحية التى فتحت له مع الزمن صفوف الحزب لكان كودلاتى قد أصبح كولاكيا: كانت تقبع فى أحشائه وتسيطر غريزة الاقتصاد الفلاحى — ان صح التعبير — وكذلك حب الخير والعربات والنوارج والخيل والسماد والحقل المحروث وكل عمل فى ساحة المزرعة وفى السقيفة والمستودع. وقد كان لكودلاتى حكم ذو ثقة قوية جدا، وكان يتكلم دون عجلة بعقل مكين لرجل اقتصاد ومدبر رصين كامل. ولكنه بحكم أنه كان اجيرا قديما فقد كان يبغض الكولاك بنفس الهدوء وبقوة وحس سليم شديد بمقدار ما كان يجعل منها فى كل شئ مقتنعا من قيمة مشاعتنا ومن كل مشاعة بشكل عام. وكان كودلاتى قد أصبح الساعد الأيمن لكالينا ايفانوفيتش منذ زمن طويل، وهكذا كان يعتمد عليه قسم كبير من اقتصادنا منذ أواخر عام ١٩٢٣.

أما ستوبيتسين فكان أيضا اداريا بارعا ولكن من نوع آخر تماما. كان بروليتاريا حقيقيا. فهو سليل عمال من خاركوف وكان فى مستطاعه أن يقص أين كان قد

اشتغل والد جده وجده وابوه. ومنذ أمد بعيد كان اسمه يبرز بتقدير فى صفوف بروليتاريا هذه المدينة، وكان أخوه الأكبر قد اعتقل بعد حوادث عام ١٩٠٥. كان ستوبيتسين فى خير من حاله، كان له حاجبان دقيقان، وعينان سوداوان نفاذتان. وفى فرجتى شفتيه تمتد شبكة عضلات مفككة متحركة وكان وجهه تبرز فيه بشكل قوى حركات هزلية وتغييرات تعبيرية سريعة مسلية. كان ستوبيتسين يهتم فى أهم فرع من مزرعتنا، وهو زريبة الخنازير فى الاصلاحية الثانية اذ تزايد القطيع ونما فيها بسرعة خيالية. كانت كتيبة مختلطة — العاشرة — تشتغل فيها تحت قيادته. كان يعرف أن يجعل منها جماعة قوية قليلة الشبه بمربى الخنازير التقليديين: فقد كان الأولاد معهم على الدوام سجل ورأسهم مشغول بالحصص والقلم والدفتر فى أيديهم ولوحات مثبتة على أبواب أقسام الزريبة وخطوط بيانية وتعليمات معلقة فى أركان البناء، وكل حيوان له شهادة أصله. وأى شئ لم يكن يرى فى هذه الزريبة!

وفى الاتصال المباشر مع النواة الموجهة وجد فريقان كبيران قد كونا احتياطها. فمن جهة أولاد الاصلاحية القدماء الأشداء الذين كانوا شغيلة عاملة ورفاقا طيبين، ولكنهم ما كانوا يملكون مواهب ظاهرة للتنظيم، وهم أولاد أقوياء هادئون أمثال: بريخودكو وتشوبوت وسوروكا وفيدورنكو وشنيدر وأوفتشارنكو وكوريتو وليشى. ومن جهة أخرى الأولاد الصغار الذين كانوا يشبون ويترعرعون، وهم الفريق الخلف الذى كان يتراءى منه التنظيم المقبل. وبسبب أعمارهم ما كان فى الامكان أن يتسلموا زمام الأمور ثم ان الأولاد القدماء كانوا فى مراكز القيادة، وكانوا يحبونهم ويحترمونهم، ولكنهم كانت لهم امتيازات عليهم: فقد تذوقوا حياة الاصلاحية وهم اصغر سنا وتشبعوا تشبعا عميقا لتقاليدها وكان ايمانهم أقوى بقيمة مجتمعهم العظيمة، وعلاوة على هذا كله، كانوا أكثر ثقافة وكان رصيد المعارف لديهم أقوى وأكثر حياة. كان قسم منهم أصدقاء لنا، مثل: توسكا وشيلابوتين وجيفيلى وبوغويافلنسكى ويضاف اليهم أسماء: لابوت

وشاروفسكي ورومانتشنكو ونازارنكو وفيكسلر. وكلهم سيصبحون قادة ورؤساء لعهد الظفر وفتح كورياج. ومنذ الآن كانوا كثيرا ما يصلون الى مناصب قيادة الكتائب المختلطة.

ان هذه الجماعات التى أتينا على تعدادها كانت تؤلف أكبر قسم من مجتمعنا. وقد كانت هذه الجماعات قوية جدا وتعودت أن تكون القدوة بقوتها ومعرفتها وتجربتها. أما سائر الأولاد فما كان فى وسعهم الا أن يقتفوا اثرهم. وكان هذا القسم الباقى فى أعين أولاد الاصلاحية يقسم الى ثلاثة أقسام: «الحثالة» و «الصغار» و «الأوباش». وقد كان فى عداد «الحثالة» الأولاد الذين لا يظهرون فى شئ ولا يجيدون اى عمل، أى الذين ما كانوا يبدون بشكل شخصى متأكدين من كونهم أولادا فى الاصلاحية.

ومع هذا فلا بد من القول ان هذه «الحثالة» كانت تبرز شخصيات جديرة بالاعتبار، وبصورة عامة، ما كانت الا حالة مؤقتة. وكانت في وقت من الاوقات

تتألف فى غالبيتها من اولاد الاصلاحية الثانية. وقد كان عدد الصغار حوالى خمسة عشر ولدا وكانوا يمثلون فى أعين أولاد الاصلاحية نوعا من المادة الأولية التى كان عملها الرئيسى أن تتعلم مسح أنفها. وما كان هؤلاء الصغار يطمحون الى التبريز فى أى نشاط خاص وكانت ألعابهم: التزحلق والتجديف وصيد السمك والزلاقات وغيرها من الترهات ترضيهم كل الرضى. وقد كنت أقدر أنهم على حق وصواب.

أما «الأوباش» فكانوا خمسة أفراد: غالاتنكو وبيريبيتلياتشنكو وايفغينيف وغوستوايفان وواحدا آخر أيضا. وكان الاتفاق الاجماعى للمجتمع قد صنفهم فى هذا النوع، بعد ان تبين عند كل منهم عيب يفقأ العين: كان غالاتنكو شرها وكسولا، وكان ايفغينيف عبيطا وثرثارا وكذابا، وكان بيريبيتلياتشنكو بكاء متسولا وكان غوستوايفان ضعيف العقل «مجنونا» يمضى وقته بالصلاة الى العذراء ويحلم بالدير، وقد توصل أفراد

قسم الأوباش مع الزمن الى التخلص من بعض هذه المعايب ولكن لم يكن هذا على الفور.

هكذا كان مجتمعنا فى أواخر عام ١٩٢٣، فمن الناحية الخارجية كان جميع الأولاد ما عدا بعض الاستثناءات النادرة، قد انتظموا وكانوا يظهرون التأنق العسكرى. وقد كنا خصصنا الى مواكب العرض أعيادا بنظام بديع فيه اربعة أبواق وثمانية طبول. وكان لنا علم أيضا وهو عبارة عن راية مطرزة بالحرير على الحرير قدمتها هدية لنا مفوضية التعليم العام فى أوكرانيا بمناسبة الاحتفال بعيدنا الثالث.

وفى أيام الأعياد البروليتارية كان أولاد الاصلاحية يدخلون المدينة على أصوات قرع الطبول فيؤثرون فى نفوس أهل المدينة واختصاصيي التربية بجمال صفهم الصارم وبالنظام الحديدى وبروعة مشيتهم الخاصة كنا نصل دائما الى ساحة المدينة بعد جميع الناس حتى لا ننتظر أحدا، وبعد ذلك تعلو صيحة الامر «انتبه!» فيتهيأون بقوة صارمة، وتطلق أبواقنا تحيتها الى جميع

شغيلة المدينة ويرفع الأولاد يدهم بالتحية. وبعدئذ تحل الصفوف لينطلقوا الى متع العيد ومسراته غير أنه كان يبقى في مكان الصف حامل العلم والحرس جامدين لا يتحركون ويقف في مكان الصف الأخير المشير الصغير. كان هذا الوضع مؤثرا جدا حتى انه ما من أحد قط كان يجرؤ على احتلال مكاننا. كنا نتغلب على فقرنا في الثياب بكل سهولة؛ كنا نعارض البزات من القماش معارضة شديدة اذ أنها خاصة بالمياتم، على أننا ما كان في مقدورنا أن نقدم بزات أغلى ثمنا ولا أحذية جميلة جديدة. وقد كنا نأتي الى الاستعراض حفاة الا أن هذا كان يبدو كأنما هو شيء متعمد. وكانت قمصان الأولاد البيضاء تشرق بالنظافة وكانوا يرتدون سراويل سوداء صالحة، وقد شمرت الى ركبهم حتى ثنيات الثياب البيضاء النظيفة. وكانت أكمام القمصان مشمرة أيضا حتى المرافق وهذا ما كان يجعل مجموع الشكل على السواء أنيقا ومسرا وذا طابع قروي الى حد ما.

وفي اليوم الثالث من شهر تشرين الاول (اكتوبر) من

عام ١٩٢٣ أخذنا هذا التشكيل فى ساحة التدريب فى الاصلاحية. وقد كان هذا اليوم آخر يوم من عملية معقدة تعقيدا شديدا دامت ثلاثة أسابيع. وبموجب القرار الذى اتخذ فى الجلسة المشتركة من المجلس التربوى ومجلس القادة، انتقلت اصلاحية غوركى الى مزرعة آل تريبكى الآنفة الذكر، وسلمت مؤسستها القديمة الواقعة على ضفة بحيرة راكيتنويه الى دائرة التعليم العام ووضعتها تحت تصرفها. وفى الثالث من شهر تشرين الاول كان شئ قد نقل الى الاصلاحية الثانية: المعامل والسقائف والزرائب والمخازن والحوائج الشخصية والمطعم والمطبخ والمدرسة. وفى هذا الصباح لم يكن باقيا هناك غير جماعة مؤلفة من خمسين ولدا وأنا والعلم.

وفى الساعة الثانية عشرة وقع ممثل دائرة التعليم العام صك استلام منطقة اصلاحية غوركى وانتحى جانبا. فأمرت:

— الى العلم، انتبه!

ووقف الأولاد وقفة جامدة بوضع عسكرى بينما كانت الطبول تقرع والأبواق يتعالى صوتها تحية للعلم. واخرج

فريق الراية رايتنا من مكتبى وحينما أخذ مكانه فى الجانب الايمن، لم نقم بتوديع الاصلاحية القديمة. لا لأن المكان ما كان يوحى الينا بمحبة وحنين، بل لأننا ما كنا نحب أن ننظر الى الوراء. ولم ندر حتى رأسنا اليها ،وأخذت جلبة الطبول تتعالى فى سكون الحقول، وبدأ الصف بسيره على طول البحيرة ومر من تحت جدران حصن أندرى كاربوفيتش وهو يواصل السير فى شارع القرية ثم هبط ليبلغ البرارى المنخفضة لنهر كولوماك ثم الجسر الجديد الذى هو من صنع أولاد الاصلاحية.

وفى باحة الاصلاحية الثانية كان قد تجمع كل الجهاز الادارى وانضم اليه قرويون عديدون من قرية غونتشاروفكا، وكان أولادها المصطفون يشكلون صفا واحدا بديعا مثل صفنا وقد وقفوا جامدين لتحية علم اصلاحية غوركى.

وهذا دخلنا فى عهد جديد.

ملاحظات

١. يقصد المدرسة فى بولتافا التى كان يديرها ماكارنكو. لم يكن لهذه المدرسة مقر خاص بها فكانت تعمل فى مقر مجلس الاقتصاد الوطنى فى المقاطعة. — ص٨.

٢. مئة وخمسون مليونا — هى اوراق نقدية لعام ١٩٢٠. — ص ١٣.

٣. يقصد المؤلف «البان» الاسطورى، اله الغنم وحامى الطبيعة، الذى رسمه الرسام الروسى المشهور فروبيل (١٨٥٦ — ١٩١٠). — ص ١٨.

٤. ايليا مورومیتز — بطل الاساطير الروسية القديمة. — ص٢٢.

٥. العندليب الشقى — قاطع طريق اسطورى تغلب عليه ايليا مورومیتز. — ص ٢٣.

٦. «التربية الاجتماعية» — قسم التربية الاجتماعية فى دائرة التعليم العام الذى كان يشرف على اصلاحيات للاطفال ويزدرى ماكارنكو هنا المبادئ الساذجة المجردة فى التربية التى كان هذا القسم يغرسها. — ص ٢٨.

٧. اى فى الازمنة الغابرة. كي وتشيك وخوريف – مؤسسو مدينة كييف الاسطوريون. – ص ٢٩.

٨. راية بيتليورا الصفراء الزرقاء. – راية عصابة قومية معادية للثورة وعلى رأسها بيتليورا. – ص ٣٣.

٩. يقصد المؤلف لجنة الاحداث الجانحين لدى ادارة التعليم العام. – ص ٤٥.

١٠. «حورية الماء» – اوبرا لدارغوميجسكي (١٨١٣ – ١٨٦٩). الطحان المعتوه – بطل هذه الاوبرا الذى يلبس اسمالا رثة. – ص ٥٢.

١١. «غرك» – يشرح ماكارنكو ان هذا الاسم «كانوا يطلقونه فى الاصلاحية على اناس ذوى سمات مختلفة فغراك قبلى كل شئ رجل متأخر، قروى لايحسن الكلام والسلوك وبدائى بشكل عام. ولكن هذا الاسم يشمل ايضا خصال البخل والحسد والحب للاكل وسؤ المظهر اذ انه دائما قذر بعض الشئ وكسلان». – ص ١٥٠.

١٢. زادوروف يمثل هنا اسم الكاتب كورولنكو وكلمة روسية كوروليوك التى هى مترادف لكلمة «صغير». – ص ١٩٦.

١٣. التمائم – القعقع الميتة التى تبعد الجنون، الشياطين، حسب اعتقاد شعبى قديم. – ص ٢٢٣.

١٤. بستالوتزى يوهان هنريخ (١٧٤٦ – ١٨٢٧) عالم التربية السويسرى المشهور.

روسو جان جاك (١٧١٢ – ١٧٧٨) – فيلسوف فرنسى كبير. وكانت آراؤه التربوية معروضة فى مؤلفه «اميل او حول التربية».

ناتورب باول (١٨٥٤ – ١٩٢٤) فيلسوف الماني مثالي ورجل التربية.

بلونسكي (١٨٨٤ – ١٩٤١) رجل التربية ونظري. وضع كتاباً عن «المدرسة العملية» (عام ١٩١٩) وفيما بعد انتقل الى موقف العلم المزور – علم البيدولوجيا. – ص ٢٥٦.

١٥. اراكتشييف – رجعي متطرف، رجل قريب الامبراطورين الروسيين بافيل الاول والكسندر الاول. وهو طبق نظام الاستبداد البوليسي والعسكرية الوقحة. واسمه مستعمل للاشارة الى تصرفه باختلاف انواعه. ويستعمل المؤلف هذا الاسم بصورة سخرية. – ص ٣١١.

١٦. ماخنو – رئيس عصابة معادية للثورة كانت تعمل في اوكرانيا خلال الحرب الاهلية. – ص ٤٩٥.

١٧. ماروسكا – رئيسة عصابة معادية للثورة. – ص ٤٩٧.

١٨. خط اكتوبر خط حديدي يصل موسكو لينينغراد (وكان هذا الخط يسمى فيما مضى خط نيقولاي تخليداً لاسم القيصر الذي بني في عهد حكمه) وكان يمتاز باستقامته لان بناءه جرى دون حسبان خصائص الارض التي بني عليها. – ص ٥١٦.

١٩. الاعمدة الوضيئة «للطائر الازرق» – ديكورات لفصل من مسرحية الكاتب البلجيكي موريس ميترلينك (١٨٦٢ – ١٩٤٩) في اخراج المسرح الفني لموسكو. – ص ٥٣٩.

٢٠. تقصد الوثيقة التي وضعها ماكارنكو والتي كانت تحدد حقوق اولاد الاصلاحية وواجباتهم. – ص ٥٧١.

محتويات

الى القراء

ان دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب، وترجمته، وشكل عرضه، وطباعته، واعربتم لها عن رغباتكم.

العنوان: زوبوفسكي بولفار، ٢١
موسكو – الاتحاد السوفييتي.


Bibliotheca Alexandrina
0417702